
محمود الجعيدي
رواية
قبر الغريب
سادر الكتب

إهداء

إلى

أبي

١

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وقد حلت موجة من الصقيع في ذلك اليوم من شهر يناير جعلت الناس تقبع في منازلهم..

كانت الشوارع شبه فارغة إلا من طوارق الليل الذين تقطعت بهم السبل أو خرجوا لقضاء حاجة ضرورية..

بعض المقاهي الشعبية كانت أبوابها مفتوحة على استحياء لكن يمكن سماع أصوات التلفاز وأصوات أحجار (الشيشة) وهي تقرقر ممتزجة بضحك الساهرين..

على مقربة من أحد تلك المقاهي، يوجد منزل منخفض يقف منتصبًا على آخر الشارع.. المنزل عبارة عن طابقين فقط.. يبدو كغيره من المنازل القريبة لكن لسببٍ غير معلوم كان الظلام الذي يحيط به يبدو أكثر كثافة من الطبيعي، كما أن القطط السوداء التي تفترش الأرض حوله تبدو مريبة، هذا عن المنزل من الخارج، أما من الداخل، فقد كان متواضعًا قليل الأثاث بالرغم من مساحته الكبيرة، الشيء المميز به هو كمية المصاحف والآيات القرآنية التي تغزو كل شبر فيه، أيضًا رائحة البخور الرطبة وبعض سحب الدخان الخفيفة كانت موجودة..

في الطابق الثاني العلوي كان يسمع صوت امرأة تسعل بشدة وصوت رجلٍ يهتف بشيءٍ يشبه التوسل:

- أنا بقول تفضلي هنا.. انتي تعبانه يا (خديجة).

- لا يا (جمال).. مقدرش اقعد واسيبك.

كان يبدو أنها ترفض بإصرار.. وضع (جمال) فوق جسده معطفًا ثقيلًا وهو يغمغم:

- طالما انتي مصممة.

نهضت (خديجة) التي كانت تجلس على السرير ثم ارتدت عباءة سوداء وهي تحاول أن تخفي الارتعاشة التي دبت في أوصالها الهزيلة..

في تلك اللحظة تناهى إلى مسمعهما صوت غامض يأتي من الشرفة الموصدة بإحكامٍ شديد، ورغم ذلك تسلل من تحتها تيار هواءٍ بارد حاد كالسكين..

استعاذ (جمال) بالله من الشيطان الرجيم وهو ينظر من خلال الظلام إلى باب الشرفة والذي راح يهتز اهتزازات سريعة، ومن ورائه ظهر خيال لشخصٍ يحاول الولوج..

تراجع (جمال) بظهره إلى الوراء ببطءٍ بينما قالت (خديجة):

- عشان تعرف إن لازم أروح معاك.

- عندك حق.

علقت (خديجة) آية قرآنية على باب الشرفة، فتوقف عن الاهتزاز.. قالت:

- كدا كويس؟

- تمام

ابتلع (جمال) ريقه بصعوبة ثم جذبها بسرعة ونزلا درجات السلم كأن شياطين الموت تطاردهما..

لم يكد يهم بإغلاق باب المنزل خلفهما حتى سمع صوت الشرفة وهي تفتح وصوت أقدام ثقيلة تسير داخل المنزل.. جذبه الفضول كي ينتظر قليلًا.. صوت الأقدام التي تتحرك تقترب جدًّا.. حثته (خديجة) على المضي قدمًا وإغلاق الباب:

- اقفل.

لكنه لم يسمعها.. بلا مقدمات توقفت حاسة سمعه وهو يتابع الشيء القادم من هناك..

من وسط الظلام برزت قدمان مشوهتان..!

هتف:

- يا حفيظ!!

ثم وضع قفلًا على الباب بسرعة وابتلع صرخته وهو يلتفت لزوجته قائلًا:

- يلا بينا.. خايف يكون الأوان فات.

لحسن الحظ أن الشوارع كانت فارغة وإلا لتعجب الناس من طريقة جريهما..

توقفا الاثنان على قارعة الطريق الفارغة.. قالت (خديجة) بقلق:

- هنلاقي تاكسي في الوقت ده؟

- آه.. هنلاقي.. ده مفترق طرق.. متتقلقيش.

عشر دقائق ثم ظهر تاكسي تشق أنواره الطريق مثل سيف أبيض باتر..

أشار له (جمال) بلهفة..

توقف التاكسي على مقربة منهما ثم هبط زجاج نافذة السائق ببطءٍ حتى توقف في المنتصف وظهرت ملامح السائق غير كاملة..

كان رجلًا عجوزًا لا يوجد لديه ما يخسره، لهذا اعتاد العمل في مثل تلك الساعات الكئيبة.. كان يعلم أن زبائن هذا الوقت لا يناقشون في الأجرة.. إنهم في الغالب مضطرون ويدفعون أكثر من اللازم.. كانت هذه خبرة ٢٥ سنة من العمل..

نظر السائق لهما وهو يضيق عينيه في محاولةٍ منه أن يتبن ملامحهما قبل أن يسأل:

- على فين..؟

أخبره (جمال) بالمكان مع وعدٍ بمضاعفة الأجرة..

وافق السائق العجوز على مضض وهو ينظر بإشفاقٍ إلى (خديجة) التي ترتجف من البرد..

ركب (جمال) بجوار السائق في المقعد الأمامي بينما ارتمت (خديجة) في المقعد الخلفي..

ساد الوجوم لمدة لا يقطعها غير صوت أنفاسهم التي كانت تخرج

عالية بينما السيارة تنهب الطريق كوحشٍ جائع..

بين الحين والآخر كان السائق يخرج يده من النافذة ويمسح الزجاج باستخدام مساحة صغيرة ذات يدٍ طويلة.. قال:

- الميكانيكي بوظ المساحات.

لم يعلق (جمال) أو (خديجة) على كلامه.. كلاهما اكتفى بالصمت والتحديق بالطريق الذي بدا أنه لا ينتهي..

الساعة قاربت على الثانية صباحًا واشتد المطر لكن لا شيء من ذلك كان مهمًّا الآن.. مد السائق يده وضغط زر الراديو.. لا شيء.. مجرد ضجيج.. راح يحرك المؤشر يمينًا ويسارًا، وحين يئس من العثور على إشارة استقبالٍ قام بإغلاقه ثم زفر بضيق:

- أنا مبروحش المنطقة اللي انتم رايحنها بس شكلكم ولاد حلال وطيبين.

قالت (خديجة) باقتضاب:

- تعيش.

(جمال) طلب من السائق التوقف:

- معاك هنا.

- لسه موصلناش للمكان اللي أنت قلت عليه و...

قاطعه (جمال) بحده:

- هنا.

توقف السائق العجوز وقد زاد الشك لديه كثيرًا:

- براحتك يا زعيم.

ألقى له (جمال) بالنقود دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة ثم ترجل من السيارة مع (خديجة)..

شعر السائق بقشعريرة غريبة تدب في أوصاله.. ظل يراقبهما وهما يخترقان الطريق المظلم.. لا شيء موجود ذو أهمية غير شيءٍ واحدٍ فقط..

تلك المقابر ذات الأسوار الشاهقة..!

***

(جمال) و(خديجة) يسيران كمن عبرا هذا المكان بضع مرات قبل ذلك.. بالرغم من الظلام وعدم وضوح الطريق لكن كل شيءٍ يبدو جيدًا بالنسبة لهما..

كانت (خديجة) تتحرك بصعوبة وتحاول أن تتجنب الانزلاق على الأرض التي تحولت إلى حفر كثيرة تمتلئ بالوحل، كاد توازنها أن يختل لولا أن تشبثت بـ (جمال) الذي قبض على ذراعها وعاونها على النهوض.. قال:

- خلي بالك.

هزت رأسها:

- يا رب.

وصلا إلى نهاية المقابر حيث يوجد بيت صغير مبني من الطوب الأبيض الضخم الذي يشبه الحجارة وحوله أشجار عالية تعانق السقف من أعلى.

- يا (توفيق).

قالها (جمال) ثم طرق الباب ست طرقات متواصلة وتوقف، بدا أن البيت خالٍ أو أن من به يغط في نومٍ عميق..

في داخل البيت تحركت يد معروقة تحمل (لمبة جاز) قديمة ذات نور شاحب على وشك الموت..

فتح لهما الباب رجل قصير القامة له كرش ضخم مثل البالون، وأنف معقوف يشبه منقار الطيور، قال بصوتٍ غليظ وبدون تمهيد:

- من طرف مين..؟

رد (جمال) بصوتٍ متقطع:

- عبد من عبيد ربنا.

تفحصه (توفيق) بنظرةٍ سريعة، ثم تفحص (خديجة) من أخمص قدميها حتى قمة رأسها..

تنحى جانبًا وأشار لهما بالدخول..

قبضت (خديجة) على يد زوجها كمن تستعين به في مواجهة خوفها..

أشار لهما (توفيق) بالجلوس على أريكةٍ قديمة تآكلت أخشابها بفعل الزمن و(السوس)..

كان سقف البيت يمتلئ بالثقوب التي تم سدها بمزيجٍ من الطين وروث البهائم..

الأرض كـانت ترابيـة بـلا شـيء يغطيـها وبها أكـوام من الحطـب بجوار موقدٍ صغير..

سأل (توفيق):

- مراتك..؟

- أيوه.. اسمها (خديجة) وأنا (جمال).

- طيب يا (جمال) ويا (خديجة) مفيش مكان إلا لشخص واحد.. أنت أو هي.

قالت (خديجة) والدموع تحتشد في عينيها:

- أنا معاه.. رجلي على رجله.

قال (توفيق) بخشونة:

- قلت مش هينفع.. شوفوا نفسكم.

هتف (جمال):

- هاروح أنا.

صاحت (خديجة) بلوعة:

- وأنا..؟

قال (توفيق):

- هتقعدي هنا لغاية لما يرجع.. اتفقنا.

قال (جمال):

- اتفقنا.. اتفقنا.. يلا مش عاوزين الوقت يسرقنا.

تنهد (توفيق) في شبه ارتياح ومد له يده.. ناوله (جمال) رزمة نقود من فئة المائة جنيه..

لعق (توفيق) طرف إصبعه وبدأ في عد النقود، قال (جمال) بتوتر:

- مضبوطين..؟

انتهى (توفيق) من عدهم ثم ابتسم من تحت ضرسه وقال:

- مضبوطين.

ثم تحرك وطلب من (جمال) أن يتبعه.. خرج الاثنان من البيت.. سأل (جمال):

- رايحين فين دلوقتي..؟

- العضامة.

بعد خمس دقائق من المشي السريع، وصلا إلى (العضامة) التي هي في الأصل عبارة عن بقايا فناء قديم يتم فيه جمع عظام الموتى..

وسط (العضامة) كانت توجد بغلة ضخمة مربوطة في جذع شجرة ارتفاعه أقل من متر، ومعلق حول عنقها جرس نحاسي أصفر يرن كلما هزت رأسها..

وضع (توفيق) سرجًا أحمر اللون ممتلئًا بالنقوش الزرقاء، فوق البغلة وربطه بإحكامٍ باستخدام أشرطة من الجلد الأسود ثم طلب من (جمال) أن يركب:

- اركب باسم ربنا وصفي نيتك للي خلقك.

قال (جمال) بعدما جلس فوق السرج:

- هاروح فين..؟

- أنت مش هتروح.. هي اللي هتروح.. هي عارفة الطريق كويس قوي.. وبعد لما تخلص اركبها وهي هترجعك تاني.

ثم أخرج قطعة قماش سوداء وربطها على عين (جمال) الذي سأل:

- لازم..؟

- طبعًا لازم.. لو فتحت عينك مش هتوصل.. واحتمال يخسفوا بيك الأرض.

- هما مين..؟

ضحك (توفيق) فاهتز كرشه كقربة ماء:

- اللي أنت رايح لهم.

ثم لكز البغلة لكزة خفيفة، فتحركت إلى الأمام ببطء..

ظل (توفيق) لدقائق في مكانه يتابعه وهو يبتعد حتى اختفى تمامًا قبل أن يقول:

- ربنا معاك.

على الناحية الأخرى كان (جمال) يقبض على لجام البغلة بقوة.. الهواء يضرب صدره بلا هوادة.. رغم ذلك لم يكن يشعر بالبرد..

العجيب أن البغلة اجتازت طرقًا ملتوية كثيرة وغير ممهدة بالرغم من الظلام القاتم..

بين الحين والآخر كان يسمع صوت عويل وبكاء أطفال..

بعد مدة توقفت البغلة عن الحركة.. كان هذا إيذانًا بأنه قد وصل..

انتظر لبرهة دون أن يتحرك قبل أن يمد يده وينزع العصابة التي على عينيه..

استقبله فراغ هائل لا ينتهي..

تلفت حول نفسه..

شعر أنه الكائن الوحيد الباقي على قيد الحياة في هذا المكان الميت..

نظر في ساعته..

إنها فقط نصف ساعة منذ أن غادر، ورغم ذلك لا يوجد أدنى أثر للطريق أو لأنوار البلد..

كيف انتقل إلى هنا..؟

تنفس بعمقٍ ثم نظر إلى البغلة التي تجمدت في مكانها، وقال:

- استر يا رب.

لم يكد يقولها حتى ركلته البغلة بغتة في بطنه بحوافرها الخلفية، فطار في الهواء..

سقط على وجهه واصطدم بالأرض..

كاد أن يفقد الوعي لكنه تمالك نفسه وعاد ينظر إلى البغلة التي تجمدت من جديد مثل حجر صوان..!

بعد قليلٍ شاهد كيانًا أسود اللون يبرز من وراء بعض الكثبان الرملية.. لم يستطع أن يحدد ماهيته لكنه كان متأكدًا أنه يسير على أربع..!

رنت كلمة في رأسه:

- أنت في أمان.

اقترب منه الكيان الأسود.. مخلوق يشبه الجدي عظيم القرون ينفث بخار ماءٍ رمادي من أنفه.. اقترب من (جمال) ثم توقف..

دقائق أخرى ثم ظهر رجل طويل القامة يرتدي جلبابًا قصيرًا يظهر ساقيه النحيلتين.. كان يجر ساقيه بصعوبةٍ ودماء كثيرة تسيل من وجهه..

حين دقق (جمال) النظر، اكتشف أن الرجل يغمد أظافر يده في

وجهه، فيمزق الجلد واللحم ويصنع شوارع وتعاريج من الجروح البشعة..

حاول أن يتناسى وجود هذا الرجل الذي اتخذ مكانه على مقربةٍ منه..

لم ينتهِ طابور الحاضرين.. من بعيد ظهرت امرأة تبدو كشبحٍ ضائع بالإسدال الأسود الذي ترتديه..

عندما اقتربت، اقشعر بدن (جمال).. لم تكن امرأة.. كان رجلًا في زي النساء له ذقن متعفنة بمزيجٍ غريب من العطن والقاذورات..!

صارت الآن تركيبة عجيبة من البشر والمخلوقات تقف في هذا المكان المجهول..

لكل من الواقفين مراد وغرض.. لا أحد يعلم عن الآخر شيء.. لكن في هذا المكان أنت في أمان.. لا يؤذيك مخلوق أو شيطان.. أنت في رحابهم.. وفي سعتهم.. وفي كنفهم.

مضت الدقائق ثم بدأت الأرض في الاهتزاز.. اهتزاز دون صوت.. ذرات الرمال راحت تتباعد عن بعضها البعض وتتساقط داخل تلك الفجوة التي راحت تتسع تدريجيًّا..

من وسط تلك الفجوة ظهر منزل مبني من الحجارة السوداء..

شخصت عيون جميع الواقفين تجاه المنزل الذي راح يخرج من تحت الأرض..

منزل عظيم مهيب..

تجمد الهواء ورذاذ المطر في تلك اللحظة.. لحظة أن صار المنزل واضحًا للعيان..

تحرك الكائن الذي يشبه الجدي ثم دخل إلى المنزل وتلاشى داخله.. سار على دربه الرجل الذي يمزق وجهه والرجل الذي في ثوب النساء.. تبقى فقط (جمال) الذي تقتله الأفكار والمخاوف.. بصعوبة تحرك نحو باب المنزل.. وضع يده على حافة الباب وهو يحدق بالداخل.. حاول اقتحام الظلام بنظراته لكنه لم يشاهد غير العدم.. مد نصفه العلوي فاستقبلته رائحة خانقة وهواء ثقيل.. شعر بأن كل عظامه تئن وأن قلبه يتقافز داخل صدره بإيقاعٍ مذعور غير منتظم..

ثم دخل..

عاد المكان يهتز والرمال ترجف من جديد قبل أن يغوص المنزل تحت الأرض..!

***

داخل منزل (توفيق)..

(خديجة) تذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا بلا توقف.. القلق ينهشها كوحشٍ ضارٍ لا يتوقف عن التمزيق والتعذيب، كلما مر الوقت ازدادت ضراوته وقسوته.

نظر لها (توفيق) وهو يتكئ على سريره قائلًا بلا اكتراث:

- استريحي.. مفيش في إيدك حاجة تعمليها.

مسحت دموعها بإبهامها ثم قالت:

- عارفة.. بس دماغي مش قادرة تبطل تفكير.

نظر إليها من خلال زجاج (لمبة الجاز) فبدت أمامه متوهجة مشتعلة، ثم قال:

- كان لازم تفكروا كويس قبل ما تخاطروا.

- فكرنا مليون مرة.. بس اللي ضاع أغلى حاجة ف حياتنا.

تنهد:

- عارف كل اللي هتقوليه.. انتم مش أول ناس تيجوا هنا.

سألته بلهفة:

- طيب والكلام اللي سمعته صحيح..؟

- لو مكنش صحيح مكنتش الناس جت من آخر الدنيا.

غمغمت:

- أنا مش عارفة هعيش ازاي لو (جمال) مرجعش.. هو أكيد راجع، صح..؟

كان من المفترض أن يطمئنها لكنه قال وهو يقطب جبينه:

- ناس راحت ومرجعتش.. وناس رجعت.. وكله بإرادته وبحوله وقوته.

هنا انطفأت (لمبة الجاز) وغرقت الحجرة في ظلامٍ دامس بارد..

سمعته (خديجة) يقول بهدوءٍ وبلا اكتراث:

- نامي والصباح رباح.

كانت متعبة من لفحات الهواء البارد والطريق لكنها قالت:

- ومين يجي له نوم في الليلة دي!

عاد صوته يقول:

- على العموم أنا هنام.. أول لما تسمعي صوت جرس البغلة افتحي الباب.

ران بعد ذلك صمت ثقيل..

مكثت (خديجة) في الظلام لا تتحرك.. بعد قليل كانت عيناها تومضان في الظلام..

حين أتى الصباح وانكسرت موجة البرد، سمعت صوت جرسٍ نحاسي أمام باب الحجرة.. بسرعة فتحت الباب وهي تنادي بلهفة:

- جمال.

تجمدت في مكانها..

انسحبت كل الدماء من جسدها وضربت قمة رأسها حتى كادت أن تخترق جمجمتها، ثم أطلقت شهقة مكتومة وفقدت الوعي..

بعد مدة خرج (توفيق) من البيت وهو يتثاءب إلى أن وقعت عيناه على (خديجة).. نظر إليها في شيءٍ من الشفقة، ثم نظر

إلى البغلة التي كانت تقف والرياح تهز أطراف لجامها، فوقها يقبع (جمال) وقد اقتلعت كلتا عينيه وتمزق نصف وجهه..!

لم يشعر (توفيق) بالدهشة أو الخوف.. بدا عليه أنه قد اختبر هذا الموقف من قبل.. اقترب من البغلة وتحسس جيدها بطريقة من يقول لها: «عودًا حميدًا.»

حمل (خديجة) ووضعها فوق سريره ثم أغلق عليها الباب بعدما دثرها بغطاءٍ من الصوف الخشن الممتلئ بالثقوب الواسعة..

أعاد البغلة إلى مكانها عند (العضامة) وبعد نصف ساعة من ذلك كان يسير بين المقابر وهو يترنح حاملًا جثة (جمال) فوق ظهره، حتى وصل إلى قبرٍ له شاهد ضخم يشبه وجه الغراب..

وضع الجثة على الأرض، ثم غرس عتلة بين أحجار باب القبر وحركها يمينًا ويسارًا حتى سمع طقطقة وتحركت الأحجار من مكانها..

فاحت من الداخل رائحة كريهة لكنه لم يشمها بسبب إصابته بالزكام وتراكم الكثير من الجراثيم داخل فتحتي أنفه..

راح ينتزع أحجار الباب من مكانها ويضعها جانبًا بترتيبٍ دقيق ثم نزل القبر..

كانت العتلة لا تزال في يده، استخدمها في إزاحة بعض العظام البالية جانبًا، وإعداد مكان لجثة (جمال)..

شاهد ثعبانًا بني اللون يخرج من أحد الشقوق فسحق رأسه بالعتلة الحديدية، وهو يقول في حنقٍ بالغ:

- موت بقى يا ابن الهرمة.. دي سادس مرة أموتك فيها.

بعدما انتهى من مسح العرق الذي أغرق وجهه بطرف جلبابه، عاد إلى الخارج، ثم حمل جثة (جمال) مرة أخرى ووضعها داخل القبر بينما ظهره العجوز يئن من الألم وصدره يتمزق من التعب..

قبض قبضة من تراب القبر وتأكد أنها خالية من قطع الحجارة الصغيرة، ثم راح ينثرها فوق وجه جثة (جمال) وهو يردد كلماتٍ بصوتٍ خافت..

خافت جدًّا لدرجة أنني لم أستطع سماعها..!

٢

فبراير

سنة ١٩٩٩

على الرغم من الضجيج الهائل والأصوات الصاخبة التي تتصارع سويًّا في شوارع المدينة العامرة، كان هناك صمت وسكون في تلك المنطقة الخالية من العمران والمنسية على أطراف المدينة..

وسط هذا السكون وحين أصبح الجو باهتًا وصار يقع في المنطقة الرمادية بين النهار والليل، تحرك فأر صغير، ثم عبر الطوب والحجارة المتناثرة هنا وهناك تجاه منزلٍ مهجور..

كان هذا المنزل ما زال يحتفظ بأحد غرفه وأجزاء من سقفه وبعض قطع الأثاث البالية..

فجأة وقبل أن يدخل الفأر إلى المنزل، تجمد في مكانه حين اهتزت كومة من التراب بالقرب منه وقد شعر بوجود خطر.. حاول أن يختبئ لكن انقضت عليه أفعى خرجت من تحت التراب وأغمدت أنيابها في عنقه..

تقافز الفأر في الهواء وحوله التفت الأفعى تبث سمومها حتى قتلته..

تريثت الأفعى حتى تأكدت من أنها ظفرت بفريستها ثم تلوت قليلًا حول جثة الفأر وراح فمها يتسع ويتسع..!

في المنزل المهجور كانت هناك فتاة فوق سريرٍ معدنيٍّ يشبه

أسرة المستشفيات القديمة وعيناها شاخصتان تجاه السقف الذي اكتسى بالسواد وخيوط العنكبوت..

حاولت الفتاة أن تتقلب أو تنهض من مكانها لكن الحبال التي تعتصر يديها وقدميها تمنعاها من ذلك.. أغمضت عينيها وهي تستجمع قواها لكن بلا جدوى، فصرخت صرخة مرتاعة عالية..

فوق رأسها مباشرةً كان يقف رجل عظيم الجسد ذو عينين ضيقتين وله ذقن طويلة مجدولة على هيئة ضفيرةٍ غليظة.. كان ينظر لها نظرة خاصة..!

الدماء وآثار الجروح التي تتناثر على الفتاة تدل على حدوث أمرٍ ما.. أمر قد لا يعجب أحدًا..

في آخر الغرفة يقف شاب يبدو متوترًا بعض الشيء ويمسك كاميرا حديثة ويحاول أن يخفي ارتعاشة يده..

بجوار الشاب على الأرض امرأة تلتحف بالسواد، تجلس القرفصاء وتهتز يمينًا ويسارًا مثل حركة بندول الساعة وهي تردد بلا كلل:

- يا رب.. يا رب.. يا رب.

الفتاة فوق السرير تحمر عيناها ثم تطلق صرخة أخرى رهيبة..

ينتفض الشاب وكذلك العجوز في حين يدور الرجل حول السرير ليصير في مواجهة الفتاة ويقول:

- ملعون ابن نجس.

العجوز تناديه:

- هتقدر عليه يا (يعقوب)..؟

- اللي عليها جن وله سلطان كبير.

قالت بحسرة:

- أنا قلت من زمان انه عمل أسود.

رد بخشونة:

- مش عمل أسود يا مرة.. ده جن عاشق.. ملعون وعشقها وغواها من كتر ما كانت بتقف قدام المراية كتير.

ثم وضع يده على بطن الفتاة التي تلوت في صمتٍ واستطرد:

- حط نطفته جواها من زمان.

تلطم العجوز وجهها بضع لطمات ثم تشق جيبها بحركةٍ واحدة، فيظهر جزء من صدرها الأسمر الذي جف ثدياه، وتحولا إلى مجرد كيسين فارغين من الجلد..

أخرج (يعقوب) سوطًا سودانيًّا له سبع عقد غليظة وقال:

- هتخرج منها.

عاد وجه الفتاة إلى طبيعته البرئية، وقالت بتوسل:

- أنا كويسة.. أنا كويسة.. خرجيني يا أمي.

العجوز:

- اصبري يا بنتي، الله يرضي عليكي.

(يعقوب):

- متصدقيهاش.. مش هي اللي بتتكلم.. ده الملعون.

الفتاة:

- لا.. أنا.. أنا.. حتى بالأمارة حكيت لك على حلم.. حلم اني فجأة ماشية في مكان ضلمة ومفيش غير نور ضعيف جدًّا جاي من بعيد والجو كان برد بطريقة رهيبة.. لما بصيت حواليا اكتشفت اني ماشية وسط مقابر.. بس مش مقابر عادية.. كل قبر كان فوقه تمثال صغير لمخلوق زي القرود لكن دماغه صغيرة وعيونه واسعة.. مستحيل تكون دي مقابر بني آدمين.. شوية وسمعت صوت حد بيقرب مني.. صوت رجلين بتضرب في الأرض كأنها بتحفر مش بتمشي.. بصيت شفت شاب عريان.. أصلع.. مكنش في جسمه شعر خالص.. جلده كان بيلمع كأنه داهنه بزيت.. أنا خفت.. جيت أتكلم أو حتى أستعيذ بالله.. معرفتش.. حسيت بشيء بارد خفي بيمسك حنجرتي عشان يمنعني.. جريت بسرعة وانا مش عارفة رايحة فين.. كل اللي كان يهمني اني اهرب منه.. المقابر مكنتش بتخلص من حواليا.. أنا جريت كتير.. كتير جدًّا لدرجة حسيت ان قلبي هيقف.. فجأة لقيته قدامي واعترض طريقي.. حبيت ارجع لورا وأغير اتجاهي.. لكن كان مستحيل.. رجلي غرزت في الأرض.. كان بيقرب مني وأنا عاجزة.. كنت سمعاه بيتكلم مع انه مكنش بيفتح فمه.. وشه كان بيتغير ويتبدل.. ظهرت له قرون قصيرة.. عيونه اتدورت وأسنانه طلع منها جزء لبره.. لمسني.. لمس جسمي كله.. كنت بتألم.. كنت

بصرخ.. لكن محدش ساعدني.

تنهد (يعقوب) ووضع يده على جبينها ليمسح بعض العرق الذي غزاه وقال:

- أنا هساعدك يا بنتي.

- بس.. بس هو خلاص خرج.. أقسم لك خرج.. أنا كويسة.

قال (يعقوب) وهو يلتفت إلى المرأة العجوز:

- كلها ملاعيب من الملعون.

ثم رفع السوط عاليًا بعدما بسطه وصرخ:

- اخرج منها.

ضغطت الفتاة على أسنانها حتى كادت أن تحطمها بينما برزت العروق في عنقها مثل جذور الشجرة، وقالت بصوت عدة رجالٍ في وقتٍ واحد:

- لا.

بكل قوته هوى (يعقوب) عليها بالسوط في عدة لسعات موجعة وفي أماكن معينة وذات طابعٍ خاص في جسد الأنثى..

لم تصرخ من الألم.. لكن على العكس.. أطلقت ضحكة عالية وسال الزبد من شدقيها..

رائحة شياط تغزو المكان في حين يستمر (يعقوب) في الضرب.. تتناثر بعض الدماء وتلتصق بالسوط وقد مزق بعض اللحم..

فجأة صوت طرق كثير على الجدران وبدأت تهتز.. مئات من الأيدي التي تضرب بلا توقف.. تساقطت الأتربة من السقف وبعض الأحجار الصغيرة.. ربما لو استمر هذا لانهار المكان عليهم.. قال (يعقوب) بشجاعةٍ يحسد عليها:

- ماتخافوش.. مش هيقدر يموتها.

ثم واصل الضرب من جديد..

تتشنج الفتاة وتتصاعد منها آهات وضحكات وصرخات.. مزيج غريب يحدث في آنٍ واحد..

تموجت الغرفة للحظات بشيءٍ يشبه الطيف يتجسد ثم يختفي..

كل ذلك يحدث والشاب الذي يمسك الكاميرا مستمر في التصوير دون أن يتوقف عن قراءة القرآن..

كانت هناك عاصفة من الأصوات في رأس الشاب تطلب منه أن يغادر حالًا.. هذه الأصوات لا تنتمي إليه..

تراجع إلى الوراء حتى ألصق ظهره بالحائط.. يتابع كل ما يحدث في مزيجٍ من الخوف والرغبة في المعرفة.. الهاتف في جيب قميصه يهتز بلا توقف.. كان يضعه فوق قلبه مباشرةً، لهذا كانت الهزات تزيد من ارتجافته.. مد يده وأخرجه.. أغشى ضوء الشاشة عينيه ثم أغلق المكالمة على (نهلة).. صديقته التي تجلس الآن في سيارتها في انتظار خروجه.. لن تصدقه حين يخبرها بما يحدث..

اسمه (محفوظ) طالب جامعي في إحدى الكليات النظرية التي يتخرج فيها كل عام آلاف من الطلبة المؤهلين جيدًا للجلوس على المقاهي والكافيهات..

كان مشهورًا بين أقرانه لدرجة هائلة.. بخلاف ذكائه والكاريزما التي يتمتع بها، كان يهوى الصحافة ويهتم بالغرائب وعالم ما وراء الطبيعة.. له ركن شبه ثابت في إحدى المجلات الشهرية متوسطة الانتشار.. مقالاته التي يكتبها تجتذب قطاعًا لا بأس به من القراء ناهيك عن مئات من الرسائل التي تأتي له، أحيانًا إعجابًا بما يكتب، وأحيانًا أخرى تهكمًا واتهامًا بالجنون..

لم يكن يحصل على أموال جراء كتاباته لكنه كان يشعر بالسعادة حين يتذيل اسمه المقالة لدرجة أنه كان يشتري من كل عددٍ أكثر من نسخة ويقوم بتوزيعها على أصدقائه وأقاربه.

أعاد النظر إلى الفتاة التي انهارت وارتخى جسدها كخرقةٍ باليه ثم تدفقت بعض الدماء اللزجة من بين ساقيها..

تنفس (يعقوب) بقوةٍ ومد طرف إصبعه وأغمده في الدم ثم رفع قطرة متجمدة منه حتى طرف أنفه.. اشتم الدم باهتمامٍ كأنه يقوم بفحصه.. كانت رائحته عطنة ممتزجة برائحة كبريتٍ محترق..

ظهرت على وجه (يعقوب) بضع إشارات من الارتياح انتقلت سريعًا إلى العجوز التي سألته:

- طمنا..؟

- خير يا مرة.

ثم بدأ في فك القيود من حول الفتاة، وقد توقف الدم عن التدفق بينما أردف:

- ولاد المنجوس نازلين مع الدم الفاسد.. نحمد ربنا على كل حال.

انتهز (محفوظ) ما يحدث والتقط طرف الحديث:

- الجن بيجيب ولاد من بنات البشر..؟

- كتير.. لو قلت لك ان كل يوم بيتولد آلاف منهم مش هتصدق.. نسوان البني آدمين حلوين.. وكل واحدة من دول واقفة ليل نهار قدام المراية.. الجن في الناحية التانية بيبص لها وبيعشقها.. عارف أكتر وقت بيعشق فيه الجن النسوان امتى.. وقت الدورة الشهيرة.. الدم بتاع الدورة بيجذبهم.

بدأت الفتاة تستفيق والعرق البارد يسيل من منابت شعرها البني الطويل وحتى وجهها الذي عادت له جزء من آدميته وحيويته، عيناها لم تعد حمراوين بل صارتا عسليتي اللون وصافيتين جدًّا مثل صباح يومٍ دافئ.

عاد (محفوظ) يسأل (يعقوب):

- هو اتحرق..؟

- لا.. هرب مع نزول الدم.

- وافرض رجع لها تاني..؟

لم يجب (يعقوب) مباشرةً بل التفت إلى العجوز وقال لها:

- تعالي خدي بنتك يا مرة.

ثم أدار وجهه إلى (محفوظ) ليجيب عن سؤاله:

- هديها حجاب تعلقه على صدرها.. ليل نهار متخلعهوش.

- مكتوب فيه إيه الحجاب..؟

- سبع عهود أخدهم سيدنا سليمان على الجن.

واستمر في قول السبع عهود واحدًا تلو الآخر، في الوقت نفسه الذي راح (محفوظ) يدونهم بدقةٍ بالغة قبل أن يعود الهاتف يرتعش في جيب بنطاله.. هذه المرة كانت رسالة مقتضبة من (نهلة):

- خمس دقايق يا شبح، لو مجتش همشي واسيبك.

كان يعلم أن الكيل قد فاض بها.. صافح (يعقوب) بسرعة ثم انصرف.. في طريق عودته شاهد الأفعى تتلوى على الأرض وبطنها منتفخ بعدما ابتلعت الفأر..

تناول حجرًا صغيرًا ثم سحق به رأس الأفعى وابتعد..

وصل إلى (نهلة) القابعة في سيارتها وهي تستمع إلى كوكتيل أغاني (مصطفى قمر) في محاولةٍ منها لتمضية الوقت لحين عودته.. كانت تغلق عليها أبواب السيارة والنوافذ بإحكامٍ خوفًا من اقتحام أحد.. بين الحين والآخر كانت تلصق وجهها بزجاج النافذة حيث تتجمع قطرات المطر أمام عينيها بينما تغزو

القشعريرة عمودها الفقري وهي تتخيل مئات المفترسين الذين قد يحيطون بها..

للحظة تتوهج السماء بالبرق مثل صراخ رجلٍ غاضب يبحث عن مخرج لتنفيس غضبه..

طرق عليها (محفوظ) الزجاج المجاور لمقعدها دون تمهيد وهو يصيح بها فجأة:

- افتحي.

انتفضت في مقعدها ونظرت له بغضب.. فتحت الباب قائلة:

- اتأخرت.

ارتمى على المقعد الذي بجوارها وهو يهتف:

- آسف.

ضغطت (دواسة البنزين) قبل أن يغلق الباب وانطلقت بسرعةٍ هائلة تاركةً وراءها عاصفة من الأتربة والغبار، قال وهو يغلق الباب قبل أن يسقط إلى الخارج:

- الموضوع طلع كبير قوي.. كويس انك مجتيش.

انحرفت بالسيارة إلى الطريق السريع:

- طيب احكي.

حاول أن يناورها:

- بلاش.. هتخافي.

قالت بجديةٍ بالغة:

- هرميك من العربية.

- براحتك.. بس أنا حذرتك.

قام بخفض صوت الأغاني ثم حكى لها تفاصيل كل ما حدث بإسهابٍ شديد، وحين انتهى أطلقت ضحكة متقطعة:

- علي النعمة مش هتستريح غير لما نتلبس.

- وحياتك الموضوع ده أنا هرفق معاه الصور والأدلة.

- الأدلة..!

أخرج من جيبه قنينة زجاجية صغيرة تحوي بداخلها سائلًا أحمر اللون ووضعها أمامها على (تابلوه) السيارة قائلًا:

- ده.

سألته وهي تنظر إلى القنينة بفضول:

- إيه ده يا شبح..؟

- دم البنت الممسوسة.

جحظت عيناها كأن السماء قد انطبقت فوق رأسها، ثم أدارت محطة الراديو على إذاعة القرآن الكريم، وأكملت قيادة السيارة بتجهمٍ شديد.. جدًّا.

***

أبريل ١٩٩٩

- أخيرًا وصلنا.

قالها (خالد) بضيقٍ بالغ جعل كل الرفاق ينفجرون في ضحكٍ هستيري.. سمع صوت صديقة (حسام):

- أيوه بقى.

ثم صوت الضلع الثالث من مثلث الصداقة (فوزي):

- حان وقت الانطلاق.

صاح (خالد) باستهجان:

- أصلًا فيه حد عاقل يطلع رحلة في شهر ٤؟!

سمع (حسام) يقول:

- عاوزين نغير جو يا صاحبي.. مش مهم الوقت.

بعدها سمع صوت تحرك (فوزي) في الغرفة قائلًا:

- هروح اعمل شاي وساندوتشات.. تعال ساعدني يا (حسام).

ثم سمع (حسام) وهو ينهض من مقعده ويسير.. أصدر المقعد (تكة) معدنية ممتزجة بفرقعة خشب.. أدرك أنه كان يجلس على مقعد له قواعد من الحديد وظهر من الخشب.. لم يحتج إلا لجزءٍ من الثانية ليدرك هذا.. فعله بتلقائيةٍ شديدة..

توقفت كل الأصوات بعد ذلك ليخيم صمت ثقيل على المكان.. استبد به خوف طفولي زرعته بداخله الحياة منذ الصغر حين جاء إليها أعمى..

في البدء لم يكن يعلم شيئًا.. كان جاهلًا.. اعتقد أن هذا الظلام مجرد قيودٍ وسيتحرر منها يومًا.. ثم اكتشف أنه كان مخطئًا.. وأنه كان يملك أملًا زائفًا..

تعود على استخدام بقية حواسه.. كان يسمع الأصوات جيدًا ويستطيع أن يميزها من على مسافات.. لم يكن يحتاج ليسأل عن القادم.. كان يستطيع أن يميز خطوة كل شخص.. الموضوع أشبه ببصمة بالنسبة له..

أيضًا كان يمتلك ذاكرةً قويةً جدًّا..

نصف ساعة منذ دخولهم السكن واستطاع أن يرسم صورة تخيلية للمكان داخل عقله حتى يستطيع التحرك بحرية.. لم يجد أدنى صعوبة في ذلك..

السكن عبارة عن غرفتين؛ إحداهما أكبر مساحة من الأخرى، يفصل بينهما بهو واسع في منتصفة منضده تحمل تلفازًا صغيرًا ورسيفر..

البهو ينتهي بحمام ومطبخ ونافذة قديمة تطل على الشارع.. الأثاث كان بسيطًا متواضعًا.. سرير في كل غرفة و(دولاب).. لا يوجد سجادة على الأرضية السيراميك..

بخلاف اعتياده على رسم صورةٍ تخيلية لكل مكانٍ يدخله، أيضًا

كان يتخيل ملامح الأشخاص.. الملامح بالنسبة له هي مجرد مرتفعات ومنخفضات وانحناءات معينة..

(فوزي).. كان صديقه الوفي.. يمتلك جسدًا مفتول العضلات وله قبضة تشبه قبضة ملاكم محترف.. صحيح أنه ليس قوي الشكيمة لكن منظره كان خط دفاعٍ جيد، وقليل جدًّا من كان يجرؤ على اجتيازه أو محاولة اختباره.. كان أيضًا شبه منبوذ من الفتيات.. يمتلك رائحة كريهة سببها أنه يعرق باستمرار حتى وإن كان الجو باردًا.. نظرة سريعة على إبطيه وستكتشف صحة ذلك.. في المعتاد يبدو غير مبالٍ.. لكن كمية الدهانات والبرفانات التي يستخدمها لدرء ذلك كانت تشهد على أن رائحة العرق تسبب له مشكلة وعقدة كبيرة.. أيضًا كان ذو تفكيرٍ ضحل وسطحي إلى حدٍّ ما.. ربما لهذا أحب (خالد) الذي كان على النقيض منه.. ذكي وله أفكاره الخاصة المستقلة وبعض الآراء المثيرة للجدل..

(فوزي) اعتقد في البداية أن (خالد) شخص ملحد.. أو على الأقل هو ملحد ويخفي ذلك.. إنه يتحدث دائمًا عن تطور الإنسان وتلك النظرية الخاصة بداروين وأن الإنسان أصله قرد..

خاضا بعض المغامرات سويًّا.. تسللا ذات يومٍ ليلًا وذهبا إلى منزل (غادة).. ومثل أفلام الأبيض والأسود القديمة، وقف (خالد) متواريًا خلف شجرة بينما وقف (فوزي) أسفل نافذة غرفة (غادة).

- بص يا (فوزي).. أنت هتحدف طوبة على شباك أوضتها.. هي هتخرج تشوف إيه السبب.. هتلاقيك واقف قدامها.. أهم حاجة في اللحظة دي النظرات.. خلي عينك في عينيها دايمًا واوعى

تفقد نقطة الاتصال بينكم.. أنا هتكلم بصوت واطي واللي أقوله أنت هتقوله لها.

تصبب العرق الغزير على وجه (فوزي) وهو يقول:

- أنا خايف.

- الحب للشجعان يا صديقي.. وبكرة لما خطتي تنجح وتحبوا بعض وتتجوزوا هتشكرني، وولادكم هينادوني عمو (خالد).

- عمو مين..؟

- أنا يا ابني.. يلا بقى شد حيلك واحدف طوبة صغيرة.

تناول (فوزي) حجرًا صغيرًا وهو يقول:

- يا رب تخرج بقميص النوم.

ثم ألقى الحجر تجاه غرفتها فارتطم بزجاج النافذة وأصدر صوتًا واضحًا جدًّا جعل قلب (فوزي) ينتفض بين ضلوعه..

لحظات ثم سطع ضوء من الغرفة، وظهر ظل لفتاة تقترب من النافذة قبل أن تطل (غادة) برأسها إلى الخارج وتتلفت يمينًا ويسارًا في مزيجٍ من الفضول والحذر..

كانت جميلة وتبدو رقيقة هشة..

وقعت عيناها على (فوزي) الذي حاول أن يرسم على وجهه أفضل ابتسامة ممكنة..

وضع (فوزي) يده اليمنى على قلبه وأسبل جفونه قائلًا:

- بحبك.. بحبك.. بحبك.

نظرت له (غادة) في دهشة، ثم هرعت إلى الداخل وهي تصرخ مثل السلعوة:

- الحق يا بابا.. في عيل ابن كلب واقف تحت البيت بيعاكس.

كانت الخطة فاشلة منذ البداية لكن (فوزي) جعلها كارثية وجعل والد (غادة) يخرج من المنزل يطاردهما في منتصف الليل وهو يرتدي (تي شيرت وشورت أبيض).

رغم كم المرح والأوقات الجميلة التي كان يقضيانها سويًا لكن كان هناك ركن حزن مظلم داخل (خالد).. صحيح أنه كان يحاول أن يبدو بخير أمام الآخرين لكن الحقيقة غير ذلك.. كان يتستر خلف حجب زائفة لا تكشف مقدار روحه الممزقة..

لم يكن مقدر له أن يذهب إلى تلك الرحلة في هذا الوقت من العام.. كان يحتفظ لنفسه ببعض المشاريع الأخرى وخصوصًا أنه يدرس في المنزل..

(حسام) هو صاحب الفضل في قدومه وصاحب اقتراح الرحلة في الأصل.. (حسام) كان لبقًا ومتحدثًا جيدًا قادرًا على الإقناع.. لم يستغرق الأمر منه سوى ١٠ دقائق من الحديث حتى جعله ينسى أحلامه الشتوية المؤجلة ويوافق على القدوم..

(خالد) وبسبب ظروفه الصحية، أوقات يعتقد أنهم يشفقون عليه، وأوقات يعتقد أنهم يحبونه..

كان الثلاثة قد وصلوا إلى السكن منذ قليل.. استراحوا ثم تناولوا طعامًا خفيفًا..

في المساء وبعدما استعادوا بعض نشاطهم خرجوا من السكن ثم ركبوا أول (سرفيس) يتجه إلى السوق العمومي..

حين وصلوا تجولوا في السوق الذي يضج بالكثير من السياح والشباب والبنات الخارجين للتنزه أو المرح..

لفت نظر (فوزي) مرور فتاةٍ أجنبية ترتدي شيئًا ما أشبه بالفيزون لكن أكثر إحكامًا وتفصيلًا.. فخذان ممتلئان و(تاتو) أحمر جميل فوق كتفها على هيئة فراشة ملونة..

حدق (فوزي) بها جيدًا ورسم لها صورة عارية داخل عقله بينما الفراشة تتراقص أمامه مثل صورة متحركة في فيلم (أنيمشن)..

انتبـهت الفتــاة بالصـدفة إلـى نظراتـه الوقحـة التـي تقتحـم تضـاريسها القاسـية لكن ظهر عليها أنها لا تمانع وأولته ظهرها ليشاهد استدارة مؤخرتها..

تنهد ثم اقترب برأسه من أذن (خالد):

- أنت عارف أنا عاوز اعمل دلوقتي إيه..؟

- طبعًا مش عارف ولو أن ممكن أخمن انها حاجة +١٨ مع بنت حلوة بتبص عليها دلوقتي.

أطلـق (فـوزي) ضـحكة تشبه انفجـار ماسورة عـادم سيارات ثم وضع يده على كتف (خالد):

- أحلى حاجة فيك انك فاهمني كويس.

تحرك الثلاثة تجاه كافية يكاد ينفجر من الزبائن.. بصعوبة استطاعوا الحصول على ثلاثة مقاعد ومائدة بلاستيك على الرصيف..

(خالد) يشعر بتشتت رهيب وسط تلك الضوضاء.. الآن هو أعمى فعلًا.. طوال الوقت كان يحاول أن يتماسك ويبادل (فوزي) النكات والكلام.

على نهاية الليلة وبعدما قضوا سهرتهم، كان الثلاثة يسيرون على الشاطئ وقد خيم من حولهم الظلام وساد السكون إلا من صوت الرياح وهدير الأمواج التي جعلت المكان يبدو مثل الجنة..

قال (حسام) مأخوذًا بفعل اللحظة:

- البحر جميل.

مرت نسمة هواء مشبعة برائحة اليود على (فوزي) وهو يقول:

- صحيح جدًّا.

قال (حسام) وهو يفتح كلتا ذراعيه:

- وأطير وارفرف في الفضاء..

فتح (فوزي) ذراعيه أيضًا ورفع إحدى ساقيه ثم قفز على الأخرى:

- واهرب من الدنيا الفضاء.

كان (خالد) يبتسم وهو يسمعهما بينما يعبرون من طريق مختصر وراء أحد الشواطئ الخاصة..

فجأة شعر أن (فوزي) يتجمد بجواره ويضغط على ذراعه ليمنعه من الحركة..

ما فعله (فوزي) كان بسبب ذلك الرجل الضخم الذي يقف على امتداد البصر في منطقة شبه مظلمة ويحفر حفرة كبيرة تشبه القبر وبجواره على الأرض يوجد شيء راقد مثل جثة إنسان..!

بدا (حسام) مذهولًا وهو يقول:

- الراجل ده بيدفن قتيل.

دار (فوزي) ببصره في الأرجاء.. مكان مثالي للقتل.. مجرد رمال وأشجار نخيل متناثرة ذات ارتفاعٍ مهيب وبعض القوارب القديمة المهشمة أو المقلوبة.. لو كان هذا المكان أحد خيارات دفن الجثث لكان الأنسب بلا شك..

تحولت الدهشة على وجه (حسام) إلى ذعر، تقدم الرجل نحوهم بخطواتٍ واسعة وهو يحمل معولًا في يده.. إنه معول ضخم كفيل بتهشيم جمجمة أحدهم بضربةٍ واحدة..

حدق (فوزي) بالرجل وفكر أن يهرب لكن قلبه لم يطاوعه على ترك (خالد) و(حسام)..

اقترب منهم الرجل، فظهرت ملامحه للعيان.. رجل في منتصف الأربعينات ذو ملامح مزعجة، له عينان ضيقتان، ويرتدي عباءة واسعة ذات ذيلٍ طويل، قال بصوتٍ يشبه الرعد:

- البهوات من هنا..؟

سأله (فوزي):

- أنت بتحفر حفرة..؟

- وإيه المشكلة..؟

بلع (فوزي) ريقه بصعوبة:

- لا.. أبدًا مفيش مشاكل ولا حاجة.

لمعت عينا الرجل وابتسم ابتسامة عريضة جعلت (حسام) يشعر بقشعريرة باردة في أوصاله..

كان هناك شيء مريب في ابتسامة الرجل حين مد يده يصافحهم قائلًا:

- أنا عمكم (إسحاق).. غفير المنطقة.

قال (خالد) وقد شعر بخبثٍ في لهجته واشتم رائحة عرقه الكريهة:

- أهلًا وسهلًا يا عم (إسحاق).

- واضح انكم تايهين.

رد (فوزي):

- كنا بنحاول نختصر الطريق.

- انتم ساكنين في أي منطقة..؟

أجاب (خالد):

- ١٠١.

- امممم.. منطقة هادية وجميلة.

اقتحم (حسام) الحديث:

- إيه اللي على الأرض هناك جنب الحفرة..؟

رمقه (فوزي) بنظرةٍ حانقة وهو يضغط على أسنانه كي يصمت لكنه لم يلاحظه..

ضيق (إسحاق) عينيه تجاه (حسام) بطريقةٍ مخيفة نوعًا ما قبل أن يجيب:

- كلب.

ثم بصق على الأرض وأردف:

- كلب مسعور طول الوقت كان عمال ينبح على اللي رايح واللي جاي والحمد لله ربنا خلصنا منه.

سأله (حسام) باهتمام:

- أنت قتلته..؟

جلجلت ضحكته في صدره:

- أنا أقتل..! أنا معرفش اقتل فرخة يا ابني.. ده قضاء وقدر.. وأنا

قلت ادفنه عشان جثته متعفنش والشط ينضف.

عاد (حسام) ينظر مجددًا إلى الشيء الموضوع بجوار الحفرة.. يبدو فعلًا مثل الكلب..

قطب (إسحاق) جبينه:

- بلاش تعدوا بعد كدا من الأماكن المقطوعة دي بالليل.

هتف (فوزي):

- كلامك صح يا عم (إسحاق).

عاد (إسحاق) يقول وهو يشير لهم في اتجاهٍ معاكس:

- امشوا من الناحية دي.. أقرب لكم.

قال (فوزي) وهو يجذب ذراع (خالد) ويبتعد مع (حسام):

- تمام.. شكرًا.

حسام:

- الراجل ده أنا مش مستريح له.

فوزي:

- وأنا كمان.

خالد:

- مش فاهم انتم بتقولوا إيه..؟

شرح له (حسام) ما لم يره، عندئذ بدأ يدرك مقدار خطورة ما حدث، رغم ذلك قال:

- ما يمكن فعلًا بيدفن كلب.

قال (حسام):

- كان المفروض نروح نتأكد.

صاح (فوزي):

- أنت مجنون.. بفرض انها طلعت جثة بني آدم، تفتكر إيه اللي هيحصل وقتها؟

قال (خالد):

- هيدفنا معاه طبعًا.

هتف (حسام):

- يبقى نبلغ الشرطة.

قال (فوزي):

- أنا فكرت فعلًا في كدا.. على العموم الصباح رباح وبكره نشوف هنعمل إيه.

حين وصلوا إلى السكن، اكتشفوا أنهم نسوا المفاتيح في الداخل.. قال (فوزي) وهو يضرب كفًّا بكف:

- هي ليلة سودا.. طيب والعمل دلوقتي..؟

أجابه (خالد) على الفور:

- نتصل على أصحاب السكن يبعتوا لنا النسخة الاحتياطي.

ارتمى (حسام) على الرمل، وقال بصوتٍ منهك:

- أنا تعبان.

كانت الفطائر التي أكلها (فوزي) قد بدأت تزعج معدته، فقال:

- وانا محتاج ادخل الحمام حالًا.

لمح (فوزي) نافذة إحدى الغرف مفتوحة.. قال:

- استنوا كدا.. أنا هحاول ادخل من الشباك المفتوح اللي هناك ده.

هتف (حسام):

- بلاش حركات مجنونة.

تمتم (خالد):

- على العموم أنا مش شايف.. بس لو المكان عالي بلاش لأنك ممكن تقع وتكسر رقبتك وتموت وتبوظ لنا الرحلة.

- مش وقت هزار يا عم (خالد).

قالها (فوزي) ثم وبشيءٍ من الصعوبة تسلق الجدار واستعان بجزءٍ ممدود من ماسورة صرف حتى وصل إلى النافذة..

من مكانه المرتفع ألقى نظرة على صديقيه اللذين يقفان في الأسفل.. كان (خالد) يصغي السمع وحواسه لحين سماع صوته

ويبدو منتبهًا قلقًا، بينما (حسام) على الأرض في وضعٍ شبه نائم لا يعنيه شيء..

لوهلة اهتزت الماسورة في يد (فوزي) وتعرق وجهه وقد شعر أنه قد يسقط..

بسرعةٍ دفع النافذة بيده ثم تدلى إلى الداخل قبل أن يحدث الأسوأ..

توقف قليلًا يحاول التقاط أنفاسه التي خرجت منه سريعة عاليه، فلم ينتبه إلى أن هناك رمالًا على الأرض أو إلى أن هناك رائحة كريهة تغزو المكان..!

خطا خطوة إلى الإمام فارتطمت قدمه ببعض الرمل، وقبل أن يسأل نفسه؛ من أين أتت؟ شعر بيدٍ قوية تعتصر ذراعه..

رمشت عيناه من الصدمة كأنه تلقى صفعة على وجهه حين ظهر له من وسط ركنٍ مظلم رجل ذو ملامح مزعجة وصوته يشبه صوت الرعد.

- (إسحاق)..؟!

***

وضع (محفوظ) القنينة التي تحوي دم الفتاة الممسوسة داخل درج مكتبة بعدما تأملها لدقائق.. الدم بداخلها غريب اللون.. صحيح أنه أحمر قاتم لكنه يبدو أكثر لزوجة من الدم الطبيعي.. جزيئاته تتحرك وكأنها تغلي وتوشك على الفوران دون سببٍ علمي.

- محفوظ.

كان هذا نداء والده (أيوب).. نداء مرتفع ذو صبغة تهديدية حادة بمعنى (تعال إلى هنا بسرعة أيها الوغد وإلا اقتحمت عليك غرفتك وهشمتها فوق رأسك.)

- حاضر.. لحظة واحدة.

قالها (محفوظ) وهو يغلق الدرج بسرعة وبحركةٍ عنيفة، ثم يقفز من مكانه يفتح الباب ويخرج مسرعًا دون لحظة تفكيرٍ أو انتظار..

دون أن يدري وبسبب طريقة إغلاقه للدرج، ارتطمت الزجاجة بأحد الحواف الخشبية المدببة..

حدث شرخ بسيط جدًّا في زجاج القنينة.. الشرخ تشعب ببطءٍ مثل شباك العنكبوت وهو يصدر صوت أزيز زجاجي متقطع، ثم خرج الدم من القنينة وسال من بين شقوق الخشب وبدأ يتساقط على سجادة الغرفة قطرة قطرة..!

كان (محفوظ) قد ترك (نهلة) منذ عشر دقائق بالضبط بعدما أوصلته على ناصية الحارة التي يقطن بها..

يوجد في مدخل الحارة ماسورة إطفاء حريق مبنية منذ أيام الملك فاروق.. كانت لا تعمل بالطبع لكنها كانت مكانًا جيدًا لوقوف شباب المنطقة الذين يحبون الجلوس حولها برفقة كاسيت ذي سماعات أستريو ضخمة..

أثار وقوف سيارة (نهلة) ونزول (محفوظ) انتباه الشباب، رغم ذلك لم يتحرك أحدهم أو ينطق بتعليق خارج، واكتفوا بالمشاهدة وبعض الغمز واللمز..

كان (محفوظ) يقول لها:

- ارجعي بقى أنت ونتقابل بكره.

- بص حاول تخلص المقالة النهارده بالليل.. عاوزين نلحق ننزلها في العدد الجديد من المجلة.

- طيب أخلصها بكره.. أنا لسه هفرغ مسودة الكتابة ومحتاج وقت.

- قدامك الليل بطوله يا شبح.

تنهد قائلًا:

- أنا تعبان يا (نهلة).. احتمال ادخل وأنام.

- لا.. المقالة تبقى جاهزة بكره.. أنت معندكش رفاهية الاختيار.

- على العموم هحاول.

هزت رأسها:

- تمام كدا.

ثم تحركت عجلة بالسيارة إلى الأمام قبل أن تتوقف..

(محفوظ) ذهب إليها:

- وقفتي ليه..؟

أشارت إلى الشباب الذين يقفون على الناصية قائلة:

- كوكتيل الأغاني اللي مشغلينه حلو قوي.. عاوزه واحد زيه.

- إيدك على عشرة جنيه الأول.

أخرجت خمسة جنيهات من حقيبتها الجلدية ثم قالت:

- بيتعمل بخمسة بس يا شبح.

- لا.. ده كوكتيل ساعة ونص.. مش أقل من عشرة جند وغلاوتك.

ألقت الخمسة في حقيبتها مرة أخرى وقالت:

- على العموم اعمله ونتحاسب.

صاح:

- بطلي بخل بقى.. عماله تكنزي في الفلوس.

- ده اسمه حسن تدبير وإنفاق يا شبح.

ثم ابتعدت بسيارتها وهي تستطرد:

- سلام.

راقبها لحظات حتى توارت عن الأنظار بعدما تركت وراءها زوبعة من الغبار الناتج عن انطلاقتها الأمريكاني ذات الصوت المزعج..

أسرع في العودة إلى البيت..

يعيش في منزلٍ ورثه والده عن جده.. عبارة عن ثلاثة طوابق في نهايتهم سطح متسع يوجد به برج حمام كبير تستطيع مشاهدته من على مسافة بعيدة.. كان البرج مرتفعًا عن مئذنة المسجد الملاصق لظهر البيت.. منذ سنوات كان الحمام يعشعش أيضًا داخل المئذنة.. كان ذلك يثير حفيظة إمام المسجد.. إحدى المرات قام الإمام بالنداء في الميكرفون وطالب بحبس الحمام لأنه يقوم بإخراج فضلاته فوق رأس المصلين.. أو إذا شئنا الدقة فقد كانت دائمًا تسقط فوق رأس الإمام فقط حين يكون في المحراب..

الآن أصبح برج الحمام خاويًا على عروشه بعد موت الجد.. مجرد أطلال قديمة وخشب أخضر اللون وبعض القش الأسود المحترق بفعل أشعة وحرارة شمس النهار..

حاول (محفوظ) الاعتناء به في بداية الأمر لكن الموضوع كان شاقًّا ويحتاج إلى خبرةٍ وصبر..

تم بيع الحمام والإبقاء على البرج ليظل شاهدًا على أحد معالم الحارة التي لطالما أثارت إعجاب الجميع.

سار (محفوظ) قليلًا في ردهة المنزل حتى وصل إلى والده الذي يشاهد برنامج العلم والإيمان وهو يجلس فوق أريكة مستطيلة قديمة كانت في الأصل وردية اللون ثم استحالت بمرور الزمن إلى بنية مطعمة ببقع الشاي الأسود المسكوب.

قال:

- نعم يا حاج.

التفت له والده وهو يعيد وضع نظارته إلى عينيه بعدما قام بمسحها:

- تعال اقعد.

جلس (محفوظ) على الجزء الأخير من الأريكة وتناول حبة فاكهه من طبق موجود فوق مائدة الطعام ثم شرع في التهامها لتمضية الوقت.. كانت لذيذة وباردة، عاد والده يقول وهو يشير إلى شاشة التلفاز ال ١٤ بوصة:

- متابع البرامج الدينية..؟

- مش قوي.

- من مدة كانوا جايبين شيخ وبيتكلم عن أحداث نهاية العالم من ناحية ظهور المسيخ الدجال ويأجوج ومأجوج، والشمس تطلع من مغربها، بيقولك بقى ان المسيخ الدجال شخص ضخم، أعور العين، وعينه ممسوحة، وانه عايش من مئات السنين مستني اللحظة المناسبة عشان يظهر.

- بحس البرامج دي تقيلة شوية على قلبي.

ضحك والده:

- طيب اتفرجت قبل كدا على حلقات العلم والإيمان..؟

- طبعًا يا حاج.. هو فيه زي (مصطفى محمود).. ويا سلام على الموسيقى.. حاجة كدا إبداع.

- الإيمان جزء من حياتنا.. معنى الإيمان انك بتصدق في وجود شيء حتى لو كان مستحيل تصديقه.

- من مدة قريت له كتاب اسمه (حوار مع صديقي الملحد).

- سمعت عن الكتاب ده.. أنا متابع حلقاته اللي بتنزل في جرنال الأهرام.. اسمها (زيارة للجنة والنار).

قال والده بصوتٍ هادئ:

- اللي شدني في الكتاب ده يا (محفوظ) إن الكفر ممكن يجي من الإيمان الشديد.. زي بالضبط الكراهية بتيجي بعد الحب الشديد.. أنت لما تحب حد ممكن تكرهه بعد كداء، ويكون كرهك له أشد من كراهية الأعداء.

ابتسم (محفوظ) قائلًا:

- ممكن العكس، بيقولوا: «ما محبة إلا بعد عدواة».

- ممكن طبعًا.. على العموم أنا عارف انك مهتم بموضوع الجن والعفاريت واللبس والكلام ده.

- الموضوع فضول مش أكتر.

- بس في حاجات الأفضل انك متدورش وراها.

- قصدك إن الحقيقة مرة.

- لا طبعًا.. في مثل شهير بيقول: «الشيطان يكمن في التفاصيل».. قصدي إن جوه كل حاجة تفاصيل صغيرة ممكن تضرك.. زي ما

بدأت كلامي معاك.. الإيمان الشديد ممكن يوصل الإنسان للكفر.. كمان جريك وراء الحقيقة وعالم الماورائيات ممكن يؤذيك.

بدأ (محفوظ) يفهم طبيعة الحوار الآن:

- أنت عارف يا حاج اني بحب اكتب مقالات.. دي صحافة مش أكتر.. ومهمة الصحفي انه يدخل أماكن محدش يقدر يدخلها.

- ومالها الأماكن اللي الناس بتدخلها؟.. مش نضيفة مثلًا؟.. اكتب يا أخي عن الفن.. عن الأفلام.. أقولك اكتب عن الرياضة.. الناس بتحب الكورة.. شوف الفريق اللي أنت بتشجعه واكتب عنه واطلع بيه السماء واخسف الأرض بالفريق المنافس.

لم يعقب (محفوظ) على كلامه، سأله والده:

- اتعشيت..؟

- آه.. أنا تمام.

تنهد والده قائلًا:

- أنا عارف ان الدنيا مش متضبطة بعد موت والدتك.. بس هنعمل إيه.. الحياة لازم تستمر.

نهض (محفوظ) من مكانه على ذكر سيرة والدته وقال بحزن:

- هدخل أنام دلوقتي.

لم يسترسل معه والده في الكلام أكثر من ذلك وقال:

- تصبح على خير.

عـاد (محفـوظ) إلى غرفته وبدأ في تفريغ ما قام بكتابته عند (يعقوب) ثم حاول كتابة المقالة التي طلبتها (نهلة)..

كان يشعر بأن الحروف والكلمات تهرب منه على نحوٍ عجيب.. يطاردها كأنه يطارد أرنبًا سريعًا ذكيًا قوي الشكيمة..

بعد ساعةٍ كاملة أدرك وأيقن أنه لن يستطيع إنهاء المقالة هذه الليلة..

كور الورق الذي قام بكتابته ثم طوحه تجاه سلة الورق الموجودة في نهاية الحجرة..

جاءت رميته غير موفقة، فسقطت كرة الورق بجوار السلة لكنه لم يهتم بشأنها..

ألقى نفسه على الفراش وهو يشعر أن كل عظمة في جسده تئن مـن التعـب والإرهاق والإحبـاط.. ظل فـوق فراشه يفكر إلى أن دارت رأسه واختلطت أفكاره ببعضها البعض وذابت في بوتقة أن هذا العالم سيئ بما يكفي للحياة فيه..

بعد قليل أرخى نفسه تحت (البطانية) وبدأ ينام.. رغم ذلك تقلب أكثر من مرة شاعرًا بشعور أن هناك شيئًا ما خطأ..!

لم يدر أن الشيء الخطأ هو تلك البقعة من الدم الموجودة في غرفته والتي أتت من القنينة المشروخة داخل درج مكتبه.. كانت حول بقعة الدم أطياف غير مرئية لكن لها حضور قوي..

شعر بهذا الحضور لكن لم يتمكن من إدراكه أو تفسيره.. كانت

هي مصدر المشاعر السلبية التي انتابته منذ قليل.. بقعة الدم جذبت إليها شيئًا ما يقبع وسط الظلام.. شيء شرير وخبيث جدًّا..

بعد مدة شعر أن (البطانية) التي يتدثر بها تتحرك قليلًا ثم ترتفع من عند ساقية..

ظن في بادئ الأمر أن هذا مجرد تيار هواءٍ شارد تسلل من بين فرجات النافذة الشبه مفتوحة، لكنه كان مخطئًا..

حرك ساقه حركة متوترة فاصطدمت بأصابع يد باردة.. كاد أن يقفز من مكانه لكنه تخشب كأن هناك قضبانًا حديدية قد غرزت في مفاصله وقيدته في الفراش..

شعر بذعرٍ وفزعٍ هائلين..

تصبب العرق البارد على وجهه حين شاهد (البطانية) وهي ترتفع أكثر وأكثر حتى أصبحت فوق جسده تمامًا.. كانت تطير فوقه مثل البساط السحري وأطرافها تتمايل يمينًا ويسارًا..

حاول أن يرسل بصره إليها لعله يأتي منها بخبر..

تحتها مباشرةً شاهد الظلام.. من بين هذا الظلام تجسدت عين حمراء.. عين تستمد قوتها من اللمعان الرهيب الذي يخرج منها..

شهق (محفوظ)..

كانت شهقته مكتومة لكنها كادت أن تزهق روحه من فرط قوتها..

اقتربت منه العينان أكثر ثم سقطت (البطانية) على الأرض وظهر

الشيء الجاثم فوق صدره..

مخلوق مطموس الوجه، عظيم الحجم..

جاثوم..(*)

يجلس القرفصاء فوق صدر (محفوظ) بينما ذيله الشبيه بحربة قصيرة يتأرجح وراء ظهره..

حرك الجاثوم وجهه حتى لامس وجه (محفوظ) وهو يزفر زفيرًا ساخنًا وتتصاعد منه أبخرة خضراء لا تختفي في الهواء لكن تتجمع فوق رأسه مثل سحابة صغيرة..

الجاثوم ضرب (محفوظ) على صدره، فشعر بقوة الضربة الهائلة وأن أضلعه على وشك أن تنسحق وتختلط ببعضها البعض.. شهق من الألم وجحظت عيناه بشدة.. رغم ذلك لا يزال لسانه معقودًا وعاجزًا عن الصراخ.. حاول أن يقرأ القرآن.. الغريب أن كل ما يحفظه من قرآن قد تلاشى من ذهنه في تلك اللحظة..

آية الكرسي..

إنها تبدأ ب.. ب..

لا يتذكر.. لا يتذكر..

ثم سمع صوت من يحاول تحريك مقبض الباب والدخول.. الأقرب أنه والده جاء ليطمئن عليه قبل أن ينام..

لم تمر سوى نصف دقيقة حتى دخل والده.. وبمجرد دخوله اختفى الجاثوم..

انحلت عقدة لسان (محفوظ) وعادت له السيطرة على جسده وأطلق صرخة عالية..

اندفع والده تجاهه ملتاعًا من تلك الصرخة:

- مالك يا ابني..؟

راح (محفوظ) يتنفس بسرعة والعرق الغزير يغمر وجهه دون أن يرد، تناول والده زجاجة ماء وصب له كوبًا ثم قال:

- اشرب بسرعة.

اجترع (محفوظ) كل الماء مرة واحدة:

- يا ستار يا رب.. كابوس.. كابوس رهيب.

- اهدا طيب.. اهدا.

مسح والده على صدره وراح يقرأ عليه آية الكرسي. قال (محفوظ) بعد قليل:

- أنا بقيت كويس.

- خير.

- أنت لسه صاحي لغاية دلوقتي..؟

- يدوب أنا نمت حوالي نص ساعة.. ومش عارف إيه اللي حصل، لقيت نفسي صحيت فجأة، وحسيت بنكزة في قلبي، وصورتك جت في بالي.

ابتسم (محفوظ):

- حنان الأب.

- المهم أنت دلوقتي كويس.

- لا.. أنا بقيت تمام.

- تحب أنام معاك.

- في إيه يا حاج.. أنا مش طفل!

لاحظ والده بالصدفة بقعة الدم الموجودة في أرضية الغرفة.. سأله:

- ده دمك.. أنت مجروح..؟

انتبه (محفوظ) إلى الدم وببعض الخيال خمن أنه الدم الذي جاء به، وأنه سبب ما حدث.. قال:

- لا مش دم ولا حاجة.. ده حبر القلم الأحمر اللي باكتب بيه.

نظر له والده بكثيرٍ من الشك وعدم التصديق لكنه فضل عدم الخوض في جدالٍ ونقاشٍ غير مهم:

- ماشي.

ثم عاد يقول:

- بص خالتك (وطنية) أكتر من مرة بتسأل عنك، ما تروح تزورها وتقعد هناك كام يوم.

- بس...

قاطعه:

- يا ابني اسمع الكلام.. دي بتحبك وكل شوية تسأل عنك ونفسها تشوفك وبالمرة تقعد تذاكر هناك.. أنت بتسقط بقالك سنتين.

- قول كدا.. عاوزني أروح هناك عشان أذاكر.

- أيوه بقى.. هو كدا.. اعمل حسابك هنسافر بكره الصبح بدري.

ظل (محفوظ) في مكانه بعد مغادرة والده يفكر في خالته (وطنية) التي تعيش بمفردها داخل منزل العائلة داخل بلدة صغيره، تقع على الجانب الشرقي من النيل وكان يسكن بها دجال شهير يدعى (قريش)..

كان منزل (قريش) بجوار منزل خالته التي طالما حذرته من الاقتراب منه كلما ذهب لزيارتها، كانت تعلم مقدار فضوله ولسوء الحظ كانت زيارته دائمًا ما تكون قصيرة جدًّا عبارة عن يومٍ أو يومين، لكن ها هو الآن ومنذ تلك اللحظة يضع الخطة المناسبة لدخول هذا المنزل.. سيكون تحقيقًا صحفيًّا ممتازًا بلا شك وسيدهش الجميع ولتذهب الكلية والمذاكرة إلى الدرك الأسفل من الجحيم.

قال (محفوظ) وهو يتكئ على ذراعيه محدثًا نفسه:

- أنا اتخلقت عشان أكون صحفي.

ثم أغمض عينيه وهو يبتسم دون أن يدري أن هناك اثنين في

انتظاره.. الشر وأنا..!

***

حاول (حسام) أن يرشف رشفة أخيرة من زجاجة المياه الغازية التي يحملها لكنها كانت قد نفدت..

تمتم بعبارةٍ غير مفهومه، ثم طوح الزجاجة في الهواء بكل قوته فارتطمت برصيف السكن وتحطمت بصوتٍ مزعج..

قال (خالد) وهو يحرك ساقية دون أن يخطو:

- ليه كدا..؟ ولما حد يتعور بسببها.

ضحك (حسام) وهو يبسط كامل جسده على الرمل:

- هي جت عليا.. الناس كلها بتعمل كدا.. ريح دماغك يا حبي.

كاد (خالد) أن يدخل معه في نقاش لكنه لم يجد في صدره الطاقة اللازمة فظل صامتًا..

قال (حسام) وهو يمسك كومة رمل في يده ويطوحها أيضًا تجاه الرصيف:

- (فوزي) اتأخر!

ثم بصوتٍ عالٍ جدًّا نادى:

- (فوزي).

قال (خالد):

- تلاقيه دخل الحمام.

عاد (حسام) ينادي:

- (فوزي).

كان القمر قد تحول إلى شبحٍ رمادي يبرز وراء إحدى السحب الشاردة والجو أصبح باردًا إلى حدٍّ ما..

من أعلى سمعا صوت (فوزي):

- اطلعوا.. فتحت الباب.

نهض (حسام) من على الأرض وأمسك بيد (خالد) بعدما مسح الرمال التي علقت بظهره..

قال (خالد):

- (فوزي) ده قرد.

ضحك (حسام):

- المهم إننا ندخل وننام.

وصلا إلى باب السكن الذي كان مفتوحًا نصف فتحة ومن خلفه الأنوار مغلقة..

تحرك الاثنان إلى الأمام وبمجرد أن أصبحا في الداخل، أغلق الباب خلفهما ببطءٍ..

شعر (خالد) أن شيئًا ما خطأ، خاصةً أن يد (حسام) التي تمسك

يده قد تجمدت.. أراد أن يستدير لكنه لم يستطع.. شعر بأنفاسٍ ساخنة ترتطم بمؤخرة عنقه.. شخص يقف وراءه مباشرةً وربما يبتسم الآن في خبث..

سمع صوت (حسام) المذعور يقول:

- أنت..!

خرجت الكلمات بطيئة من فم (إسحاق):

- أيوه.. أنا.

كان (إسحاق) يقف في مواجهتهم ممسكًا مسدسًا ضخمًا ذا فوهةٍ واسعة تشبه المدفع بينما (فوزي) يقف في أحد الأركان وقد اصفر وجهه وزاغت عيناه من الخوف.

قال (حسام):

- أنت عاوز مننا إيه..؟

ابتسم (إسحاق):

- هاقولك.

ثم تحولت لهجته إلى العدائية:

- مش عاوز صوت ولا حركة.

فجأة سمعوا صوت أزيز منخفض.. صوت (لمبات النيون) وهي تنذر بضعف التيار الكهربائي وأن المكان في سبيله للظلام.. لحظة ثم أظلمت الغرفة عليهم..

الجميع فكر أن يفعل شيئًا ما..

(فوزي) فكر أن ينقض على (إسحاق).. (حسام) نظر إلى النافذة وفكر أن يلقي نفسه منها.. (إسحاق) توتر وسمعوا جميعًا صوت زر أمان مسدسه وهو يتحرر من مكانه..

عاد الضوء مرة أخرى.. قال (إسحاق) ضاحكًا:

- كهرباء قليلة الأدب.

ثم استدار بغتة..

وجد (فوزي) منحنيًا تجاه باب الخروج وإحدى يديه على المقبض ووجهه شاحب من الخوف والتوتر..

- ارجع.

قالها بصرامة وتحذير وهو يهز مسدسه، ابتعد (فوزي) عن الباب ببطء دجاجةٍ مريضة..

- كنت ناوي تعمل إيه..؟

سأله (إسحاق) وهو يقف حائلًا بينه وبين الباب..

لم يكن (فوزي) يملك رفاهية الإنكار.. قال بعدما اشتم رائحة الهواء البارد القادم من تحت عقب الباب:

- عاوز أخرج.

ضحك (إسحاق):

- أنت زهقت مني.. أنا ضيف عندكم يا راجل.. وبعدين أنا اللي همشي.

لم يعقب أحد على كلامه، فقال:

- أنتم مفكرين اني جاي أأذيكم.. جرا إيه في الدنيا يا خوانا.. يخربيت الأفلام الأمريكاني اللي بوظت دماغ الشباب.

(خالد):

- عاوز إيه بالضبط..؟

حك (إسحاق) جلد وجهه بظفره:

- عاوز اتأكد انكم مش هتجيبوا سيرتي لحد.

رد (حسام) بسرعة:

- أقسم لك ولا هنجيب سيرتك لمخلوق.

ابتسم (إسحاق):

- طيب اتأكد ازاي..؟

هتف (حسام):

- نحلف لك على المصحف.

أطلق (إسحاق) ضحكة اهتز لها صدره حتى كاد أن يتمزق:

- مصحف إيه يا راجل.

ثم جال ببصره بين ثلاثتهم وكشر عن أسنانه:

- عاوزين حاجة تانية.

سأله (خالد):

- شوف أنت عاوز إيه وإحنا نعمله..؟

غمغم (إسحاق) وهو يتحرك:

- بيني وبينكم أنا مبحبش القتل.

وصمت لبرهة قبل أن يستطرد:

- بس الدنيا كدا.. يا قاتل يا مقتول.

توتر (فوزي) وهو يسأله:

- قتلت حد قبل كدا..؟

اتسعت ابتسامة (إسحاق):

- مش كتير.. بس أنا هاقول لك عن أول حد قتلته.. كانت واحدة ست.. اسمها (صباح).. كانت ساكنة في البيت اللي وراء بيتنا علطول.. كانت حلوة ومنطلقة وأنا كنت وقتها...

وبينما هو يتحدث لم يكن أحد من الثلاثة يسمعه..

(حسام) فكر أن (إسحاق) سيتركهم وشأنهم.. لقد جاء من أجل تهديدهم وسينصرف بعد قليل.

تفكير (فوزي) كان مختلفًا.. كان ينظر في عيني (إسحاق)..

ملامحه واضحة جدًّا.. لقد اتخذ القرار منذ أن دخل وسيقتلهم.

فجأة اندلع ضوء بالخارج، ثم سمعوا أصوات أشخاصٍ يتحركون ويتحدثون بصوتٍ مرتفع بالقرب منهم..

إصبع (إسحاق) يلامس فمه بمعنى (اصمتوا ولا تتحركوا)..

في الخارج صوت الأقدام لا تزال تتحرك وصوت ضحكات متقطعة يتخللها بكاء أطفال.. قال (إسحاق) بصوتٍ خافت:

- بلاش حد يتهور.

ازداد الموقف تعقيدًا..

مسح (حسام) العرق الذي غمر وجهه.. التفت إلى (فوزي) الذي ارتعشت شفتاه ثم انتقلت الارتعاشة إلى عينيه.. قال:

- اهدا يا (فوزي).

التفت له (فوزي) والدم يسري في عروقه ساخنًا كالبركان:

- هيقتلنا.

غمغم (إسحاق) وهو يضع المسدس في جيبه:

- مين قال كدا.. صدقوني أنا هاخرج دلوقتي.

(خالد):

- اخرج.. مستني إيه..؟

- الناس بس تمشي.

مضت دقيقة بعد ذلك في صمتٍ شديد ثقيل..

(خالد) في مكانه سمع صوت اقتراب خطوات (إسحاق) منه ثم سمعه يقول له:

- متقلقش.. قريب مش هتشوفوني تاني.

لم يلاحظ أن يد (خالد) تتحرك وراء ظهره وتحديدًا وهي تمسك بسكين سويسري أحمر اللون متعدد الأغراض مثل الذي تستخدمه الكشافة.. أهداه له (فوزي) منذ عامٍ واحد.. في المعتاد يخرج به.. كان يمنحه بعض الشعور بالأمان..

قبض على السكين بإحكامٍ شديد.. شعر بكهرباء تسري في جسده وتجمعت قطرة عرق هائلة فوق جبينه ثم سالت على وجهه..

سيتحرك بسرعة ويغمد السكين في عنق (إسحاق).. ربما إذا ساءت الأمور قد يتمكن رفيقاه من الهروب.. الفرق بين الفشل والنجاح الآن هو تحديد عنق (إسحاق) جيدًا.. قال:

- يا رب.

خرجت منه تلك الكلمة بصوتٍ عالٍ، فعقد (إسحاق) حاجبيه وهتف:

- بتقول إيه..؟

من موقعه أدرك (فوزي) أن (خالد) ينتوي أمرًا ما.. خمن أنه يمسك السكين السويسري في يده.. كان يعلم أنه يحتفظ به في جيبه الخلفي..

لكن هل تنجح الخطة..؟

صفق (فوزي) بيديه ليجذب انتباه (إسحاق) الذي عبس ثم التفت له صائحًا:

- أنت بتعمل إيه أنت كمان..؟

طبق (خالد) على السكين جيدًا وقد أدرك أن (فوزي) يحاول تشتيت انتباه (إسحاق)..

راجع كل شيءٍ وراجع المسافة داخل عقله، وحدد أين يكمن عنق (إسحاق) ثم طوح السكين بيده بضربةٍ قاتلة..

مرت السكين على بعد سنتيمترات من عنق (إسحاق) الذي شعر بالهواء الخارج منها يخدش عنقه..

أخطأ الضربة..

في الوقت نفسه تناول (حسام) تمثالًا برونزيًّا من جواره وكاد أن يطوحه، لكن (إسحاق) كان أسرع منه وصوب مسدسه تجاهه.

- مكانك.

رفع (حسام) كلتا يديه في الهواء وأسقط التمثال من يديه.

قال (إسحاق):

- شاطر.

ثم ضغط الزناد..

اخترقت الرصاصة رأس (حسام) وعبرت للناحية الأخرى وألقته في الهواء..

قفز (فوزي) من مكانه صارخًا نحو (إسحاق) لكن هذا الأخير كان خفيف الحركة وأطلق عليه رصاصة ثانية أصابت منتصف قلبه تمامًا..

أمسك (فوزي) قلبه في جزع، بينما تدفقت الدماء من فمه على هيئة فقاعات صغيرة..

دفعه (إسحاق) بقدمه في صدره، فسقط أرضًا..

تراجع (خالد) إلى الخلف في هلعٍ وقد أدرك أن أسوأ مخاوفه قد حدثت..

لمس بظهره الباب..

استدار بسرعة ومد يده يحاول فتحه..

شاهده (إسحاق).. كشر عن أنيابه قائلًا باستمتاع:

- أنا الموت.

ثم تناول حبلًا صغيرًا من على الأرض ووضعه حول عنق (خالد) الذي حاول أن يصرخ لكن صرخته انحبست داخل حلقه.. لم يعد يستطيع التنفس.

- استريح.. كل شيء هينتهي دلوقتي.

قالها (إسحاق) وهو يحكم قبضته على الحبل ويضغط بكامل

قوته..

شعر (خالد) أن صوت (إسحاق) يأتي من غياهب بئرٍ عميقة.

- عارف انك بتتعذب.. بلاش تقاوم.

كانت تلك آخر جملة يسمعها (خالد) قبل أن يسافر وعيه إلى مكانٍ آخر..

حيث كنت أجلس في انتظاره..!

(*) الجاثوم في الكتب القديمة هو عبارة عن شيطان يهاجم الإنسان أثناء النوم.. يطلق عليه أبو لبيد، أو أبو غطاط أو الرابوص.

٣

كانت الساعة تقترب من السادسة مساءً حين دخلت الخالة (وطنية) غرفة (محفوظ).. كان نائمًا على السرير ولا يتزحزح من مكانه مثل الأموات.. قالت:

- يا ابني قوم.

قال دون أن يلتفت لها:

- أقوم اعمل إيه..؟

- تعال اقعد معايا.

نظر لها قائلًا:

- ما أنا زهقت.

ألقت في وجهه أحد الكتب ثم قالت:

- طيب ذاكر.

التقط الكتاب بيده قبل أن يرتطم بوجهه ثم قال:

- ذاكرت وخلصت مذاكرة.

- هي المذاكرة بتخلص..؟!

حاول التغلب على تثاؤبٍ قهري ثم قال:

- آه.. بتخلص وبتموت كمان.

حتى الآن مر أسبوع على مكوثه عند خالته.. خلال تلك الفترة انقطع عن كل شيءٍ من متع الدنيا، ولم يتبق له غير كتب الدراسة وبضع روايات للجيب استطاع أن يمررها من وراء والده الذي سحب منه هاتفه المحمول..

رغم كل مساوئ المكان لكنه كان جيدًا ومناسبًا للمذاكرة خاصةً مع الاهتمام المبالغ به من قبل خالته التي جلست بجواره قائلة:

- لو زهقان تعال اقعد معايا شوية في الدكان.

كانت تمتلك محلًّا للملابس الجاهزة في منطقةٍ شعبية معروفة هناك، محل له شهرة معقولة وزبون جيد..

(محفوظ) ذهب معها مرة واحدة من قبل وأصابه الكثير من الملل والضجر والحشرات آكلة لحوم البشر.. فتح فمه ليرفض لكنها أسرعت بالقول:

- هخليك أنت اللي تبيع النهارده.

- ماشي.

- روح اغسل وشك الأول.

نهض متكاسلًا واتجه إلى الحمام بخطواتٍ بطئية وهو يعبث بإصبعه في فتحة أذنه اليسرى..

الحمام من الداخل كان متسعًا بحجم غرفة، أرضيته مغطاة بالسيراميك، وتنبعث منه رائحة مسحوق الغسيل القادم من الغسالة الموجودة في الركن..

وضع رأسه أسفل الماء البارد لعدة دقائق حتى تحركت خلايا مخه النائمة من مرقدها..

أغلق الماء وهو يرفع وجهه فاصطدمت عيناه بزوج من العيون الجوفاء التي تتوسط وجهًا ظلاميًّا تجسد فجأة على سطح المرآة التي أمامه..

تجمد (محفوظ) وانتصبت شعيرات جسده وهو يحدق بهذا الشيء البشع.. جاهد حتى لا يصرخ.. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يظهر له هذا الشيء.. كانت المرة الخامسة منذ حادث الفتاة الممسوسة..

اهتز الوجه لثوانٍ قبل أن يتلاشى مبتسمًا بلا صوت..!

- (محفوظ)..

جاءه صوت خالته تحثه على الإسراع والقدوم لتناول الطعام قبل النزول..

خرج من الحمام وهو يضع منشفة مبللة على رأسه، ثم جلس على الأرض حتى جاءت خالته تحمل صحفة طعام فوقها أطباق من الطعمية والجبن والخضرة والعسل الأسود..

لم يكن يشعر بالجوع لكنه أكل في صمت حتى لا يدخل معها في جدالٍ لا طائل منه..

حين انتهى ذهب وارتدى ملابسه في عجالة وعلا صوت خالته (وطنية) التي كانت تستحثه كل ٣ ثوانٍ..

الطريق من المنزل إلى المحل كان يستغرق ثلاثين دقيقة.. لم يكن بعيدًا لكنه كان مرهقًا ومتعبًا.. يكفي أن تمر وسط الشوارع الترابية والنساء اللاتي يفترشن الأرض أمام منازلهن لتدرك تلك المعلومة..

وصلا إلى المحل حين كان شيخ المسجد الكبير يرفع الأذان بصوته الرخيم الذي يبعث على الراحة والاطمئنان..

تناول مفتاح المحل من خالته التي كانت تربطه في (دوبارة) طويلة تلفها حول عنقها القصير الذي يناسب طولها..

فتح باب المحل المصنوع من الخشب على مصراعيه، فأصدر صوتًا خشنًا نتيجة احتكاكه بالأرض.. بالرغم من ضخامة هذا الباب لكنه كان قديمًا وضعيفًا لدرجة أن ضربة قوية كفيلة بتهشيمه، لكن بالطبع لن يجرؤ أحد على اقتحامه وخصوصًا أن في مواجهته مقهى يظل مفتوحًا ليل نهار بعدما قام صاحبه بشراء جهاز فيديو يعرض عليه الأفلام الهندي وأفلام الكونغو فو..

افترشت (وطنية) كرسيًا خشبيًا أمام المحل وتركت (محفوظ) يخرج بعض مشاجب الملابس ويقوم بتعليقها على المسامير الضخمة التي تتوسط الباب..

كانت (وطنية) بدينة وضخمة.. تحمل أوزانًا هائلة من اللحم والشحم في ذراعيها وساقيها.. اعتاد أن يراها تضحك بسبب وبدون سبب.. لا ترتدي غير العباءات الواسعة ذات الألوان الزاهية والتي تجعلها أكثر بدانة.. اقترح عليها ارتداء ألوان

أحادية مثل الأسود لكنها تبرمت في وجهه وكشرت عن بعض أنيابها.. كيف لفتى من المدينة أن يلقي ملاحظة حول ما ترتديه؟!.. كانت هذه أول وآخر مرة يقترح عليها (محفوظ) شيئًا، خاصةً أنها تعمدت الجلوس فوقه ذات مرة، فكاد أن يموت مختنقًا..!

مضت نصف ساعة ثم جاءت (سعدية)..

(سعدية) هي الخل الوفي بالنسبة للخالة (وطنية) تقترب من عمرها وحجمها، وتسكن في المنطقة نفسها التي يوجد بها المحل.. تعيش وحيدة منذ وفاة والدتها بعدما أمضت دهرًا في خدمتها..

كان أبوها قد غادرها هي ووالدتها وذهب في أعقاب راقصة غجرية، جاءت البلد ذات مرة ورقصت في المولد، فسحرت عقله مثل جنيات البحر وظل يطوف خلفها في البلاد والموالد ردحًا من الزمن عله يصيب منها شيئًا..

يقال أن الغجرية اتخذته عبدًا وخادمًا لها.. ثم ذات يومٍ سئمت منه بعدما أصابه الحب بالهزل والضعف والخنوع.. استحال إلى كومة من العظم واللحم الخفيف وفقد كل مقوماته كرجل.. كان بمقدور أي طفلٍ صغير هزيمته في مشاجرةٍ بسيطة.. رغم ذلك كان قادرًا على أن يحمل قطعة صفيح صدئه، ويتسلل ليلًا إلى مرقدها وهي تغط في نومٍ عميق وقد أنهكتها أحضان شابٍّ أسمر مليح الوجه، ثم ينحر عنقها كالخراف بقطعة الصفيح فلم تجد الوقت للصراخ، بينما راح يمزق وجهها وجسدها وهو يصرخ..

يقـال أن الشـرطة أطلقـت عليـه الرصـاص فقتلتـه علـى قارعـة الطريق ذات ليلةٍ مظلمة، وتم تسليم جثته إلى أسرته التي دفنته في صمتٍ وبلا عزاء لتنتهي حكايته..

وجه آخر للحكاية.. يقال أن لا شيء من هذا قد حدث، الأب كان مـوظفًا شـريفًا في الحكومة، وقف في وجـه أحـد رجـال القريـة الظالمة، فسلط عليه بعض السفلة أولاد الليل فقاموا بقتله، بعدها قام هذا الرجل الظالم بترويج تلك الشائعات عنه ليمحو سيرته الطيبة..

على أي حال لقد مرت سنون ولم يعد أحد يتذكر شيئًا.. الآن هناك فقط (سعدية)..!

(محفـوظ) كـان يشعر بشيءٍ من السعادة حين يراها.. كانت لا تكف عن الثرثرة.. تحب الحديث عن كل شيءٍ وأي شيء.. رغم أنها لا تجيد القراءة أو الكتابة لكن كانت تستقي معلوماتها من الجلوس أمام الراديو عشر ساعات كل يوم.. كانت تنتظر نهاية حلقة مسلسل (الصبر في الملاحات) ثم ترتدي عباءتها المزركشة وتأتي لتجلس مع (وطنية) حتى نهاية اليوم.

- إزيك يا (محفوظ).

بادلها السلام ثم أسرع وأحضر لها مقعدها الخاص.. مقعد كبير من خشـب الزان قـادر علـى حمـل فيـلٍ صغير دون أن يتهشم.. كان مناسبًا جدًّا لحجمها الضخم.. رغم ذلك كانت تمتلك وجهًا جميلًا جدًّا وصغيرًا.. لا يتناسب مع حجمها الهائل..

قالت له ذات يومٍ وهي تستعيد بعض ذكريات شبابها:

- عارف يا (محفوظ) أنا كل شباب المنطقة كانوا بيقفوا على النواصي عشان بصة من عيني.. مكنش فيه غير (عمر) هو بس اللي كان في القلب.. اتجوزنا شهر واحد...

ثم تهدج صوتها وامتلأت عيناها بالدموع قبل أن تكمل:

- راح مع اللي راحوا في ٧٣.. ربنا يرحمه هو وكل الأبطال اللي ماتوا عشان ولاد الهرمة اللي زيك يعيشوا.

سألها:

- كنتي بتحبيه..؟

- ده كان روحي اللي ماشيه على الأرض.. اتقدم لي بعد منه زينة شباب البلد لكن حلفت إن لا يلمسني راجل بعده.

قالت (وطنية):

- ربنا يرحمه.. خلينا في النهارده يا قمر.

أشارت (سعدية) إلى (محفوظ) وقالت:

- الواد ده هيفضل عندك كتير.. معرفش ليه لما بشوفه قلبي بينقبض.

ضحكت (وطنية) ثم قالت:

- لغاية الامتحانات.

صاح (محفوظ):

- بقولك إيه.. أنا قاعد هنا أصلًا بالعافية.. والمصحف أولع لكم في المحل.

تناولت (سعدية) حجرًا صغيرًا من على الأرض ثم طوحته تجاهه لكنه انحنى قبل أن يصيب رأسه وقال:

- بلاش طوب.

التفتت (سعدية) إلى الخالة (وطنية) وهي تضحك ضحكة جعلت بطنها تتراقص ثم قالت:

- اسمعي كلامي.. الواد ده محتاج الشدة.

- بفكر احبسه في أوضة الفئران.

ضحك (محفوظ):

- أوضة فئران إيه أنت وهي.. انتم مفكرين اني عيل صغير.. انتم لو تعرفوا الحاجات الغريبة اللي أنا شوفتها مش هتقولوا كدا.

جذبته (سعدية) من ياقة قميصه، فكادت أن تمزقها وقالت بجدية:

- شفت إيه يا واد.

انتفخت أوداج (محفوظ) وقال بجدية وهو يضيق عينيه:

- مقدرش أقول.. صدقوني مش هتعرفوا تناموا بعد كدا.

دفعته (سعدية) وقالت:

- طيب روح شوف الزبونة اللي هناك دي.

كانت هناك امرأة ريفية بسيطة دخلت المحل على استحياء بصحبة ابنتها الصغيرة.. سألت (محفوظ):

- عندكم قمصان بنات بيضاء..؟

أجاب (محفوظ) بسرعة:

- لا.. كله خلص.. مفيش.

كادت المرأة أن تغادر لولا أن أسرعت (وطنية) تقول وهي تنهض من مقعدها:

- موجود عندنا ألوان تانية جميلة.

قالت المرأة:

- عاوزة الأبيض بصراحة عشان المدرسة.

ابتسمت لها (وطنية):

- أنا لسه جاي لي شوية قمصان ألوان من بورسعيد جديدة منزلتش البلد قبل كدا.. هي متنفعش للمدرسة بس تنفع في الخروجات والفسح وممكن تخليها عندك عشان العيد واهو قرب خلاص.

ترددت المرأة بعض الشيء ثم نظرت إلى طفلتها التي لمعت عيناها، فقالت:

- طيب.. أشوف.

عرضت القميص للمرأة وراحت تبرز لها جمال الألوان الحديثة خاصةً مع ضوء الشمس ثم قالت:

- بيقولوا عليها ألوان شبح.

سألتها المرأة:

- يعني إيه..؟

- في الضوء العادي أخضر فاتح.

ثم وضعت القميص نحو ضوء الشمس الذي يأتي من النافذة وأردفت:

- في ضوء النهار بيبقى أحمر.

ظهر الإعجاب على وجه المرأة، وتهللت أسارير الطفلة التي قالت:

- عاوزه منه.

انحنت (وطنية) ثم قالت وهي تضع القميص فوق صدر الطفلة:

- هينطق عليكي.

قالت المرأة:

- ماشي.. هشتريه.

تناولت (وطنية) فستان نومٍ حريري أحمر اللون وقربته من المرأة قائلة:

- ده جميل برضه عشانك.. خدي واحد وهعمل لك خصم عشان الأمورة الصغيرة.

نظر لها (محفوظ) بتعجب وهو يضع القميص في كيسٍ أبيض مكتوب عليه اسم المحل.. وطنيتنا.

صاحت (سعدية) من بعيد وهي تشير إلى (محفوظ):

- هينطق عليك الفستان وحياة ابني ده.

غمغم (محفوظ) بصوتٍ خافت:

- ابنك..!

قالت المرأة بعدما أبدت إعجابها بالفستان:

- ماشي.. حطيه في الكيس.

ضحكت (وطنية) قائلة:

- يلا.. اصرفي ولا يهمك.. الفلوس بتروح وتيجي.

قهقهت (سعدية):

- أصل النهارده الخميس.. والخميس ليلة إبليس.

ثم انتظرت حتى انصرفت المرأة بعدما اشترت قميصًا لابنتها وفستان نومٍ لها وبعض الجوارب لزوجها، والتفتت إلى (محفوظ) قائلة:

- يا واد بطل غباوة.. اتعلم تجيب رجل الزبون.

قال (محفوظ):

- أنا غلطان في إيه طيب..؟

قالت (وطنية):

- يا حبيبي الرزق يحب الخفية، وكل لما يكون لسان البياع حلو، كل لما الرزق يزيد، وخليك مبتسم دايمًا وأنت بتتكلم مع الزبون.

قال (محفوظ) بمزيجٍ من الحنق والملل:

- بصراحة أنا الشغلانة دي مبفهمش فيها.

قالت (سعدية):

- عشان أنت حمار.

خرج (محفوظ) وتوقف على باب المحل يتابع المارة في الطرقات حين قال:

- ماشي.. أنا الأراجوز بتاعكم النهارده.. والمصحف أولع لكم في الم...

لم يكمل عبارته بسبب طوبة صغيرة أصابت رأسه من (سعدية) التي حاولت كتم ضحكتها، فتضخم وجهها حتى كاد أن ينفجر.

- حمار برضه.

تحسس رأسه ولم يهتم بما قالت هذه المرة.. لفت نظره كيان أسود يدخل الشارع.. كيان يمشي على أربع ويصدر زمجرة متقطعة.. كلب بالغ الضخامة يشم الأرض بين الحين والآخر..

اقترب الكلب من (محفوظ) الذي شعر بتوترٍ وخوفٍ ثم انحنى على الأرض وتناول من جواره عصا غليظة تنتهي بقطعة حديد استعدادًا للضرب والدفاع عن النفس..

أوقفته (وطنية) بأن وضعت يده على كتفه قائلة:

- بلاش.

الكلب ينظر لهم كأنه يصغي إلى كلامهم وهو ثابت في مكانه.. عيناه تحدقان بوجه (محفوظ) الذي ارتعشت يداه وهو يصارع أفكاره بين أن يضرب أو يقف..

لحظات ثم تراجع الكلب للخلف ببطءٍ حتى اختفى داخل أحد الأركان المظلمة..!

تنفس (محفوظ) الصعداء والتفت إلى خالته قائلًا:

- الكلب ده بتاع مين..؟

قالت وهي تأخذ منه العصا وتلقيها جانبًا:

- مين قالك ان ده بتاع حد..

اندهش:

- مش فاهم.

هتفت:

- ده عفريت.

نظر لها بتعجبٍ بينما عادت تقول بسرعة:

- أيوه.. العفاريت عندنا في البلد بتمشي وسط الناس.. أنت ملاحظتش إن مفيهوش ولا نقطة بيضاء.

- يا ستار.. بتتكلمي جد..؟

- طبعًا.. أنت فاكر اني بضحك عليك أو عاوزه أبهرك..!

في الوقت نفسه ظهر رجل متشح بالسواد ذو عرج خفيف، وله ذقن خفيفة، راح يقترب منهم بهوادة..

شعر (محفوظ) بتوتر خالته كلما تناقصت المسافة التي تفصلهم عن هذا الرجل الذي يشبه اللحظات الكارثية..

- السلام عليكم.

كان صوته عكس ملامحه.. صوته رخيم يشبه صوت مغني يشعر بالحب والاشتياق.. ردت (وطنية) السلام باقتضاب:

- وعليكم.

- ابقي هاتي شوية ميه وملح وامسحي بيهم أرضية الدكان يا (وطنية).

ثم نثر بعض البخور خبيث الرائحة أمام باب المحل وانصرف من أمامهم دون كلمةٍ أخرى..

التفت (محفوظ) إلى خالته وسألها:

- مين ده..؟

أجابته:

- (جابر).

واكتفت بقول ذلك.

***

- العالم مكان قاسي عشان تعيش فيه.

ترددت تلك الجملة داخل عقل (خالد) وهو يستعيد وعيه تدريجيًّا.. ألم فظيع في مؤخرة رأسه يتردد صداه داخل كل خلية من خلايا جسده..

كان يشعر بالتنميل في أطرافه مثل دبيب قرية من النمل تنهش تحت الجلد..

عطش رهيب يغزو حلقه وأطنان من الملح تتجمع فوق لسانه وتمزق شفتيه..

الظلام يحاصره من كل اتجاه والرطوبة تستشري في ظهره كخنجرٍ حاد يفصل اللحم عن العظم..

- أنا فين..؟

قالها لنفسه..

حاول النهوض من فوق الأرض الباردة الملقى فوقها فلم يستطع.. شعر أن هناك أكوامًا من الحديد تجثم فوق صدره وتثبته في مكانه بإحكامٍ شديد كأنها حارس سجن يحرص على أن يبقى

السجين في محبسه..

استغرق الأمر منه بضع دقائق حتى استوعب المكان الموجود فيه.. انتابته رعشة هائلة حين شعر بحشرات تتحرك فوق وجهه، فانتفض وضربها بذراعه التي تحررت أخيرًا.. نهض من مكانه وهو يلهث بينما العرق يغمر وجهه..

عاش طوال عمره في الظلام.. لكن هذا الظلام الذي يحيط به يبدو مختلفًا.. يبدو ذو لون.. شيء متجسد في الحقيقة.. تحسس الأرض والجدران.. غرفة خالية من الأثاث بلا منافذ تهوية.. يوجد باب وحيد.. ضرب الباب بقدمه عده ضربات وهو ينادي.. صرخ حتى ضاع صوته.. ثم تهاوى على الأرض وقد دب اليأس في أوصاله.

- (خالد)...

رن هذا الصوت الناعم في أذنه.

- مين..؟

تجسدت أمامه امرأة شعرها طويل بعضه يلامس الأرض والآخر يتطاير من حولها في مشهدٍ مهيب.. صاح:

- أنا فين..؟

صوته مختلف كأنه يتردد داخل أنبوبٍ معدني.. إنه يحلم.. بالتأكيد هذا مجرد حلم أو كابوس.. أين ذهب أصدقاؤه.. ماذا حدث لهم..؟

نادته المرأة بصوتٍ يأتي من بعيد:

- فوق بقى يا (خالد).

- انتي مين..؟

لكنها غاصت تحت الأرض كأنها تغوص في الماء واختفت..!

لحظة والتقطت أذنه وقع خطوات تقترب.. خطوات تمشي بانتظامٍ وبشيءٍ من العجلة..

صرخ:

- الحقوني.

- (خالد).

كان هذا صوت والده الأستاذ (رجب).. هرع (خالد) تجاه الباب وهو يطرقه قائلًا:

- أنا فين..؟

- متقلقش أنت في أمان دلوقتي.

قال (خالد) بصوتٍ ممتلئ بالدموع:

- عاوز اكلم أمي.

تحشرج صوت والده:

- هي هتيجي تكلمك.. بس مش النهارده.

استشعر (خالد) الكذب في كلامه.. قال:

- هي فين..؟

- موجودة.

- موجودة فين.. أنت فيه حاجة مش عاوز تقولها..؟

- صدقني يا ابني مفيش حاجة.. عاوزك بس تصبر كام يوم وهتخرج من هنا.

صاح وهو يركل الباب بقدمه:

- خرجني من هنا.

- حاضر.

ثم سمع صوت المفتاح وهو يدخل في ثقب القفل.. لحظات ثم انبثق شعاع ضوءٍ من وسط الباب.. في مركز الضوء كان يقف والده وقد غمرت الظلال وجهه وهو يفتح كلتا ذراعيه استعدادًا لاحتضانه.. أما هو فقد سقط على ركبتيه وهو يشهق مذهولًا.. كان يستطيع أن يرى..!

***

رنين الهاتف ذو القرص الدوار راح يرن بلا هوادة، وانتزع (محفوظ) من نومٍ عميقٍ جدًّا خالٍ من الأحلام.

- رد على التليفون.

كان هذا صوت خالته (وطنية) يأتيه من داخل غرفتها..

نهض من فراشه بعين نصف مفتوحة، ودون أن يستفيق بشكلٍ كامل وهو يتثاءب بملء فمه...

كان لديه هاجس أن المتصل هو والده، ولقد كان محقًّا بنسبة مائة في المائة..

- (محفوظ) أخبارك..؟

- تمام جدًّا.

لم يكن يشعر برغبة في الاستطراد في الحديث.. كان يشعر أن عقله فارغ.. الساعة الآن الثامنة صباحًا.. منذ متى وهو يستيقظ مبكرًا؟!

- والمذاكرة أهم حاجة المذاكرة.

- لا كله تمام يا حاج.. متقلقش خالص.

- أنت لسه صاحي من النوم.

- آه..

قال الأب وقد تغيرت نبرة صوته:

- أنت كويس..؟

حمل (محفوظ) الهاتف، وجلس على قرب مقعد وأجاب:

- زي الفل.

- خالتك موجودة..؟

- نايمة.. تحب اصحيها..؟

- لا بلاش.. أنا هتصل بيها مرة تانية.

دار بينهما حوار بائس كالمعتاد، ثم عاد (محفوظ) إلى الفراش، لكن قبل أن يغوص من جديد في النوم، رن جرس الباب..

- افتح.

كان هذا صوت خالته من جديد.. سأل نفسه عما إذا كانت مستيقظة، فلماذا لا تتحرك بنفسها أم أنها تتعمد تعذيبه؟.. تبًّا للخالات اللاتي يبعن الملابس الجاهزة!

نهض من جديد ببطء.. كان كل ما يجول بخاطره أن يعرف من القادم ويلقي نفسه من جديد على الفراش.

وراء الباب المغلق ظهرت (سعدية) وهي تلوك علكة بين أسنانها، وتخرج زقزقة تشبه زقزقة العصافير التي تقف أعلى الشجرة الموجودة بالقرب من المنزل.. كانت تحمل ملفًّا كبيرًا يحتوي على كومة من أوراق التحاليل والأشعات الطبية والروشتات العلاجية.

- اتفضلي.

قالها وهو يفسح لها المجال للدخول.. لكزت كتفه حين قالت ببعض المرح:

- كل ده نوم..!

تثاءب:

- لسه بدري.

- روح صحي خالتك.

جاءت (وطنية) وهي تضع منشفة مبللة فوق شعرها وقالت:

- أنا صاحية من بدري.. جهز نفسك يا (محفوظ) عشان أنت اللي هتقعد النهارده في المحل، لأن أنا مسافرة مصر مع (سعدية) للدكتور.

- هي مالها.. تحبي اجي معاكم..؟

- لا خليك.. دي مش أول مرة نروح.. عاوزاك بس تفتح المحل ويبقى لسانك حلو مع الزبون.

- حاضر.

ثم تركهما وعاد إلى غرفته ثم فتح النافذة ليدخلها بعض أشعة الشمس..

بعد مضي أسبوعين من بقائه، صار يعرف الجيران.. كانت المفاجأة أن منزل (جابر) هو المنزل الواقع في مواجهة منزل خالته مباشرةً.. لا يفصل بينهما غير عرض الشارع..

جوار منزل (جابر) من على اليمين منزل (الحاج صابر) الموظف بمصلحة الضرائب، وهو رجل عتيق الطراز على وشك الانقراض..

على اليسار منزل مكون من ثلاثة طوابق لا يسكنه أحد.. في الأصل هو ملك لمدرس لغة عربية يعمل في الخليج.. لا يأتي غير مرة كل عدة سنوات..

لاحظ (محفوظ) أن هناك ستائر عملاقة جديدة تم وضعها فوق نوافذ منزل (جابر) لم تكن موجودة من قبل.. كانت الستائر من النوع الفخم غامق اللون، وتفتح على الجانبين مع وجود كرات تدار يدويًّا حتى تتحرك...

غمغم:

- غريبة..!

بعد قليل شاهد عربة فارهة تقف أمام منزل (جابر) الذي يقبع في مواجهة منزل خالته.. كانت العربة من الضخامة حيث أنها كفيلة باحتلال نصف فراغ الشارع.. رغم ذلك لم يتوقف أحد أمامها، يكفي أنها تنتمي إلى (جابر).. لا أحد يجرؤ على النظر إليها.. في معظم الحالات يكون صاحبها شخص ميسور الحال لديه مشكلة في المال أو الولد، أو سؤال عن الكهانة ومعرفة المستقبل.

خرج من السيارة رجل مهيب الطلعة يرتدي بذلة سوداء ونظارة لامعه تشبه نظارات (البودي جارد) أو القتلة الخارقين في أفلام ماتريكس.. كان حليق الوجه لكنه يبدو متوترًا، كثير النظر حول نفسه..

لم تمضِ بضع دقائق حتى ظهر (جابر) وهو يرتدي عباءة حريرية واسعة، ثم صافح الرجل ورحب به بصوتٍ مرتفع:

- أهلًا وسهلًا.

تبادل الاثنان حديثًا سريعًا ثم فتح الرجل الباب، فخرج منه طفل، ربما يبلغ الثامنة من العمر.. حسن المظهر.. نحيف جدًّا، بدت

أن ملابسه معلقة عليه.. أبيض البشرة مثل اللبن الحليب.. عيناه عسليتا اللون.. يبدو هادئًا وغير مشاكس كعادة الأطفال الذين في مثل عمره.. تحرك الطفل في هدوء.. لم يبد عليه الاستغراب.. فقط الفضول والاهتمام بما حوله..

ربت (جابر) على رأس الطفل وهو يحاول أن يرسم على وجهه أفضل ابتسامة ممكنة..

الرجل أعطى (جابر) حقيبة جلدية تبدو خفيفة الوزن لكنها تبدو أيضًا ذات قيمة كبيرة..

شعر (محفوظ) بفضولٍ شديد.. حاول أن يصل إلى تفسير لما يحدث الآن، لكن ضربه صداع مفاجئ حين رفع (جابر) وجهه نحوه.. نظرة (جابر) كانت تشبه رصاصة فجرت كل الألم داخل لحاء مخه، بينما ضحك الطفل وبدا في قمة السعادة.

لم تمض بعد ذلك سوى دقيقة واحدة حتى ركب الرجل سيارته وترك الطفل مع (جابر) الذي استمر في التلويح له مودعًا إياه..

بعدما غابت السيارة، دخل (جابر) المنزل وحذا حذوه الطفل بتلقائيةٍ شديدة..

(محفوظ) ظل يراقبهما حتى وصل بهما الحال إلى الطابق الأخير.. طابق مغلق.. الطابق نفسه الذي علقت فوقه الستائر الجديدة والتي راحت تتطاير أطرافها مثل أجنحة تنين ينفث النار.

***

سار (خالد) داخل ردهات مستشفى الأمراض العقلية كأنه يسير في موكبٍ جنائزي وراء نعش أحد الأموات.. مر خلال طريقه بالكثير من الأشخاص المصابين بالذهان الذين استرعوا انتباهه..

والده أخبره بكل ما حدث بالتفصيل.. قال له أن البداية كانت حين جاءهم خبر نقله إلى العناية المركزة وهو في حالة ما بين الحياة والموت، بعدما هاجمهم سفاح.. للأسف مات (حسام) و(فوزي) وهم في طريقهم إلى المستشفى..

ست ساعات كاملة قضاها (خالد) تحت مشرط الأطباء إلى أن خرج الطبيب والعرق والإرهاق يغمران وجهه ليخبرهم أن (خالد) قد سقط في غيبوبة..

استمر (خالد) في الغيبوبة لعدة أيام، بعدها كان لا بد من اتخاذ قرار فصل أجهزة التنفس والتغذية عنه..

كان هذا القرار بمثابة إعلان موته الحتمي..

لم تتحمل الأم الموقف وفقدت عقلها.. ربما لو تماسكت بعض الوقت لشاهدت مكافأة السماء على صبرها.. (خالد) استفاق من الغيبوبة بطريقةٍ إعجازية أدهشت كل الأطباء.. بخلاف ذلك لقد عاد إليه بصره لكنه دفع الثمن.. جزء هائل من ذاكرته أصبح مفقودًا داخل ثنايا عقله المنهكة..

بعد أيام من الاستشفاء عاد به والده إلى المنزل مع أمل كبير أعطاه له الطبيب المسؤول.. الحالة ليست دائمة وعلى الأرجح أيام أو أسابيع وسوف تعود له الذاكرة.. بنسبة تسعين في المائة سوف يتذكر كل شيء، لكن الأمر يحتاج إلى مناخٍ مناسب وحياةٍ

هادئة وكثير من الالتزام بالعلاج..

أشار عليه بعض الأصدقاء الاستعانة بأحد الأطباء النفسيين لكن تلك الفكرة لم يكن لها مكان داخل عقله..

بالنسبة لرجلٍ مثل الأستاذ (رجب) ليس له سوى ابن وحيد يعتبر كل حياته، فقد قرر تكريس وقته ومجهوده من أجله، لكن هذا لم يستمر طويلًا.. فوجئ بزوجته تمزق ثيابها ذات يومٍ ثم تهرول عارية في الشوارع تطارد المارة بالحجارة.. كانت فضيحة هائلة لم يتحملها..

بعد تفكيرٍ عميق قرر أن يغادر البلد إلى مكانٍ آخر لا يعرفه فيه أحد.. حياة جديدة وبداية جديدة..

سهلة لكن تنفيذها صعب..

باع كل أملاكه وسحب كل أمواله التي يدخرها في البنك، ثم ابتاع منزلًا في مدينةٍ بعيدة ذات مناخٍ جيد وانتقل إليها برفقة أسرته دون أن يخبر أحدًا بعنوانه الجديد..

خلال كل ذلك كان يعد نفسه لليوم الذي تعود فيه الذاكرة إلى (خالد) ويكتشف ما حدث لوالدته.. مئات السيناريوهات والاحتمالات درسها داخل عقله..

في نهاية كل ليلة كان يبكي على فراشه وهو يشاهد ابنه يحدق بالسقف شارد الذهن والعقل..

تذكر حين قام بإيداع زوجته في مستشفى الأمراض العقلية.. صراخها المذعور لا يغادر عقله.. لم يكن يتمنى اللجوء لتلك

الخطوة لكن ما فعلته أجبره على ذلك.. كان قد أعد لها غرفة بجوار غرفة (خالد) وقام بتجهيزها حتى يمنعها من إيذاء نفسها.. كل شيءٍ في الغرفة كان مثبتًا في الأرض باستخدام مسامير حديدية.. الجدران مبطنة بقطع أسفنجية كلفته مبلغًا باهظًا.. لديه أمل أن يعود لها رشدها ذات يوم.. لكن هذا الأمل تبخر ومات حين تسللت ذات مساءٍ إلى غرفة (خالد) وهو نائم وحاولت خنقه.. لحسن الحظ أن صراخ (خالد) انتزعه من نومه بعدما مزق سكون الليل، فهب من فراشه وهو لا يكاد يرى أمامه من فرط الذعر..

المشهد كان مأساة حقيقية.. أم مصابة بالجنون تحاول قتل ابنها الفاقد الذاكرة..

ما رآه الأستاذ (رجب) يومها كان كفيلًا بسقوطه في حالة صدمة لكنه تمالك نفسه واستطاع إنقاذ (خالد)..

في هذا اليوم واليوم التالي كان اليأس قد بلغ منه مبلغه لدرجة أنه فكر في الانتحار.. ثم حدثت المعجزة وعادت الذاكرة إلى (خالد) في اليوم الثالث..

يومها كان عائدًا من العمل حين سمع (خالد) يناديه باسمه للمرة الأولى منذ أسابيع.. وقتها تأكد أن ذاكرته قد عادت.. كان اللقاء بينهما مؤثرًا.. مزيج من البكاء والكلام الغارق في الدموع والأسف والندم والفرحة..

استغرق الأمر ساعة كاملة حتى بدأ الأستاذ (رجب) يحكي كل ما سبق.. (خالد) لا يتذكر أي شيءٍ من كل هذا لأنه وقت أن عادت

إليه ذاكرته القديمة، قام عقله بمحو الحديثة من حياته..

وكما كان متوقعًا سقط (خالد) في نوبة حزنٍ واكتئابٍ وخوف، فشلت معها كل محاولات علاجها..

ذات يومٍ طلب أن يزور والدته في المستشفى ويتحدث معها، وبعد مجهودٍ بالغ وافق الأستاذ (رجب) أن يصطحبه معه وهو يحذره من قسوة الموقف..

طوال الليلة التي تسبق الزيارة كان الذعر يأكل (خالد) وهو يفكر.. يفكر في حال والدته وكيف سيبدأ معها الكلام وكيف سيكون رد فعلها..

أخبره الأستاذ (رجب) أنها أصبحت عنيفة.. عيناها زائغتان تصرخ باستمرار وتتشاجر مع أشخاص غير موجودين.

ها هو ذا يقترب من الحجرة التي تم حجز والدته فيها، بعدما أخبرهما الطبيب المعالج أنها قد تناولت جرعة دواءٍ منذ قليل وصارت في حالةٍ جيدة تجعلها قادرة على التجاوب والانتباه إلى الكلام..

حين جلس (خالد) في مواجهة والدته، راحت تتحدث بكلامٍ غير مفهوم عن أمورٍ عجيبة وأشخاص غامضين تحدثوا معها واتفقوا معها على أنهم سوف يزورونها كل يوم.. ثم وعلى حين بغتة خفت بريق الجنون من عينيها وانتهت نوبة الهذيان وقالت:

- (خالد)..

ارتمى عليها يحتضنها في تأثر بينما راحت تمرر يدها على شعر

رأسه وتغمغم:

- أنت رجعت..

- أنا كويس.. متتقلقيش عليا.. المهم انتي.

- عاوزه ارجع البيت.

- حاضر.. أنا...

بتر كلامه حين زاغت عيناها مرة أخرى وقبضت على شعره بقسوةٍ وصاحت:

- أنت مين..؟

أجابها محاولًا التغلب على الألم الذي سببته له:

- أنا (خالد).. ابنك.

فجأة أطلقت صرخة هائلة تردد صداها داخل جدران المستشفى..

اندفع طاقم التمريض إلى الداخل في تحفز..

نظرت لهم كأنها حيوان مفترس والزبد يتساقط من بين شفتيها بينما ابتعد (خالد)..

حاولت أن تقضم ذراع أقرب ممرض إليها، لكن الباقون تحركوا بسرعة اكتسبوها بفعل الخبرة والتعود، وقاموا بالسيطرة عليها..

صاح (خالد) بارتياع:

- بالراحة عليها..

أجابه إحداهم:

- متتقلقش.. إحنا عارفين بنعمل إيه كويس.

دقائق حتى جاء الطبيب المعالج وقام بحقنها بحقنة مهدئة، ثم وضعوها فوق فراشها مفتوحة العينين شاحبة الوجه وكأنها على وشك الموت..

أجهش (خالد) في البكاء بينما ربت والده على كتفه في شفقة قائلًا:

- متتزعلش يا ابني.

رفع (خالد) عينيه اللتين تسبحان في الدموع وهو يغمغم في حزن:

- أنا مش مصدق اللي هي فيه.

قال الأستاذ (رجب) وهما يخرجان من الحجرة سويًّا:

- الصدمة اللي حصلت لها لما قالوا انهم هيشيلوا عنك أجهزة دعم الحياة كانت أشد من احتمالها.

وصلا إلى البوابة الخارجية للمستشفى دون كلمةٍ زائدة، فما جرى منذ قليل كان مخيفًا..

مخيفًا إلى حدٍّ كبير.

***

- (محفوظ)..

أغلق النافذة ودلف إلى الداخل على إثر نداء خالته التي أعدت الطعام وجلست تنتظره برفقة (سعدية)..

لمدة ثلاثة أيام متتالية كان مستمرًّا في مراقبة منزل (جابر) بلا كلل أو ملل.. كان يغلق على نفسه الغرفة لساعاتٍ طوال بينما خالته تتركه وتنزل إلى المحل بمفردها ظنًّا منها أنه مندمج في المذاكرة.. استطاع معرفة اسم الطفل.. (ضياء).. اسم جميل.

- ده شكل واحد جاي يأكل..!

قالتها (سعدية) وهي تقهقه وتنظر إلى شعر رأسه النافر، وذقنه التي استطالت، فبدا كشخصٍ خارج لتوه من معتقل جونتانامو..

نظر (محفوظ) إلى هرم من (الساندويتشات) الموضوعة في منتصف المائدة.. سأل بلا اكتراث:

- نأكل إيه..؟

(سعدية):

- فول وطعمية.. بس صنعة إيدي.. عملاهم في البيت.

اتخذ مقعدًا بعيدًا عن (سعدية) ليتجنب يدها الثقيلة، وبدأ الأكل بحذر لكن بعد قليل كان ينافسهما في التهام الشطائر حتى شعر ببطنه يدفع حزام سرواله بقوة.. قال:

- من زمان مكلتش كدا.

(سعدية):

- ليه.. أنت لسه صغير.. كل وخد راحتك.

- بحاول انزل وزني.

سألته (وطنية):

- ليه كدا..؟

- الموضوع طويل.. حكاية قديمة حصلت و...

ضحكت (سعدية):

- قول.. خلينا نضحك.

- من حوالي سنة كنت واقف في الطابور في حوش المدرسة، وقتها أنا كنت تخين.. وكان واقف جنب مني زميل لي بس رفيع جدًّا.. المهم في الإذاعة المدرسية كان فيه أستاذ بيحكي عن البيت اللي مبيذكروش فيه اسم ربنا، الشياطين بتاكل مع أهل البيت.. وشياطين البيت ده بيكونوا مليانين جدًّا والعكس صحيح..

طبعًا الكل بص لي وهات يا ضحك، ومن يومها قررت أحاول أخس عشان مديش لحد فرصة يضحك عليا مرة تانية.

(سعدية):

- عاوز تبقى شيطان رفيع..!

ربتت (وطنية) على صدره حين قالت:

- متحطش في بالك.

غمغم:

- بحاول.

ثم تردد ونظر إلى كلتاهما بالتتابع وسألهما:

- (جابر) له قرايب..؟

(سعدية):

- لا.. اللي نعرفه انه نبت شيطاني، مالوش حد.. بتسأل ليه..؟

- من كام يوم لمحت عربية ونزل منها راجل وطفل.. الطفل طلع مع (جابر) ومشي الراجل.. كنت باعتقد انهم قرايب.

(سعدية):

- اسمعني يا (محفوظ).. مالكش دعوة بالراجل ده.

(وطنية):

- بقولكم إيه، نغير الموضوع أحسن، ناوي تعمل إيه بعد ما تخلص جامعة..؟

- صحافة.

غمزت (وطنية) إلى (سعدية) قائلة:

- ناوي تطلع صحفي يا واد.

قال مبتسمًا:

- رئيس تحرير لو سمحتي.

ثم عاد وقال:

- بس جابر..

قاطعته (سعدية):

- يا ابني مش بقولك مالكش دعوة بيه.

قالت (وطنية):

- طيب بص.. من حوالي سنتين سكن في الشارع بتاعنا ناس من الصعيد ولهم ابن اسمه (كامل).. كامل عنده ١٦ سنة وكان زي حالاتك.. فضولي قوي.. ساب الناس كلها وبقى مركز مع (جابر).. مر كام أسبوع وبعدين اختفى.. كانت أمه بتنشر الهدوم فوق السطح، وبعدين سمعته عمال يصرخ في أوضته.. جريت بسرعة وطول ما هي رايحة ناحية أوضته كانت سمعاه عمال يصرخ، وصوت خشن عمال يرد عليه.. قالت ان الصوت مستحيل يكون صوت إنسان.. ولما فتحت ملقتش حاجة.. ملقتش كمان ابنها.. الأهالي دوروا عليه، وبالليل لقوه في المقابر ميت، راسه متكسرة، عينيه منزوعة، والدم مغرق كل جسمه.. الأم جالها انهيار عصبي، وراحت المستشفى ولسه مخرجتش منها لغاية دلوقت.. الكل بيقول إن (جابر) هو اللي عمل كدا وسلط عليه حد من خدامه أو عفاريته.

سأل (محفوظ):

- طيب والشرطة قالت إيه بعيد عن جو العفاريت ده..؟

أجابت (وطنية):

- قالت إن (كامل) كان في المقابر وبعدين هجم عليه ديب، الديابة في بلدنا منتشرة، بس مفيش ديب هيعمل في إنسان كدا، دا غير إن الأم فضلت لآخر لحظة سامعة صوت ابنها في الأوضة، طيب ازاي خرج.. كأنه اتبخر أو حاجة سحبته معها المقابر.

أخرجت (سعدية) بخاخة ثم ضغطت الزناد الخاص بها داخل حلقها.. ارتفع صدرها عاليًا، وهي تشهق ثم استراحت في مكانها..

سألتها (وطنية):

- انتي كويسة.. العلاج الجديد مش جايب نتيجة ولا إيه..؟

- لا العلاج كويس.. متقلقيش.. الظاهر سيرة (جابر) هي السبب، يا جماعة احكولنا في حاجة كويسة.

قال (محفوظ) فجأة:

- حد دخل بيت (جابر) قبل كدا..؟

أمعنت (وطنية) في التفكير قبل أن تقول:

- أنا دخلت مرة مع (سعدية).

- هه وبعدين.

- بصراحة مش فاكره، أنا دخلت وخرجت وكل حاجة طارت من

دماغي.

- كنت داخلة ليه..؟

- يعني.. موضوع كدا.. (سعدية) كانت معايا.

قالت (سعدية):

- أول لما خالتك فتحت المحل مكنش فيه زباين بيجوا خالص، مر شهر واتنين وثلاثة لدرجة إنها كانت هتقفل، أنا اقترحت عليها تروح لجابر يعمل لها حاجة تحرك رزقها والسوق بتاعها.

- وعمل إيه..؟

- برضه أنا زيها مش فاكره، كل اللي فاكراه اننا داخلنا وخرجنا.. إيه اللي حصل في الوقت ده اتمسح من دماغي ودماغها، المهم إن بعدها بيوم كانت الزباين رايحة جاية للمحل، والحال اتقلب لأحسن حال.

عقد (محفوظ) حاجبيه في غموض.. كان يفكر في طريقة لدخول منزل (جابر) واكتشاف أسراره مهما كان الثمن..

أتمنى لو كنت حاضرًا وقتها كي أخبره أن يتراجع.

***

اتجه (خالد) إلى الحمام وأغلق الباب خلفه.. ظل يرمق الجدران المتآكلة لبضع دقائق...

كل شيءٍ يبدو غريبًا وغير مألوف..

التفت إلى المرآة التي تتوسط الحمام والتي تعلو حوض الماء.. فوقها علامات خمسة أصابع متجسدة تبدو مثل يد شبحٍ حبيس داخلها..

تسلل إلى حوض الاستحمام بعدما انتهى من خلع ملابسه.. ارتعش جسده بشدة حين لامس الماء البارد..

بيدٍ مضطربة فتح الماء الساخن في محاولةٍ منه لموازنة درجة الحرارة..

بمرور الوقت تصاعد بخار الماء من الحوض، وصنع سحابة صغيرة، والتصقت بعض الأبخرة بزجاج المرآة فغطتها بطبقةٍ بيضاء لزجة..

نصف ساعة قضاها ثم سمع بعدها صوت والده يأتي من صالة المنزل:

- أنت تمام يا ابني..؟

أجاب:

- أيوه.. تمام.

خرجت منه مهزوزة..

شعر والده أن هناك أمرًا ما.. عاد يسأله بصوتٍ مرتفع:

- متأكد..؟

- متقلقش.

ثم نهض واتجه نحو المرآة ومسح البخار الملتصق فوقها يتأمل جسده ربما للمرة الأولى.. ضخم وتبرز عروقه وصدره وذراعيه على نحوٍ كبير..

شعر للحظة بصعوبةٍ في التقاط أنفاسه..

تنفس ببطءٍ وأمسك قلبه وقد ازداد تكاثر بخار الماء من حوله حتى كاد أن يبتلعه..

أسند يده على المرآة، فارتسمت أصابعه فوقها..

تهاوى على الأرض وسقط مثل كتلة حجرية خالية من الروح.

٤

كان القمر قد صار شاحبًا حين توقف (خالد) عن المشي بين سيارات الأجرة.. المشهد يبدو عليه غريبًا مزدحمًا.. مضى شهر كامل منذ استعادته ذاكرته وبصره.. بدأ يعتاد استخدام عينيه والتفاعل مع الناس.. أحيانًا كان يصاب بنوبات إغماءٍ مفاجئة بدون سببٍ لكنه تعافى منها.

بالرغم من أن والده كان شديد الخوف عليه لكنه أيضًا كان شديد الحرص على الالتزام بكلام وتعليمات الأطباء الذين نصحوه بإتاحة بعض الحرية والحركة إلى (خالد) حتى يكتسب الثقة في عينيه ويعتاد استخدامها.

ارتبك بعض الشيء بسبب أصوات المنادين التي تعلو في الأفق، وكأنهم يشنون حربًا على بعضهم البعض.. أحدهم زعق في وجهه والرذاذ يتطاير من فمه:

- دوران.. دوران.

سأله (خالد) وهو يمسح الرذاذ من على وجهه:

- شارع ٤١٤..؟

أشار المنادي إلى طابور سيارات غير منتظم قائلًا:

- آخر الحارة اللي هناك.

وبالتالي تحرك حيث أشار..

دلف إلى أول سيارة، وجلس في الأريكة الأمامية بجوار السائق..

لم تمضِ سوى دقيقة حتى جاء السائق وهو يلتهم ما يبدو بقايا شطيرة (فول وطعمية)..

- المكان محجوز يا أستاذ.

قالها السائق بصوتٍ حاد بالرغم من أن السيارة كانت شبه فارغة..

انتقل (خالد) إلى المقعد الأوسط بينما بدأ الركاب في الدخول وأخذوا يحتلون أماكنهم بسلاسة..

هتف السائق بصوتٍ جهوري تجاه حفنة قادمة من البشر:

- شارع ٤١٤.

كان آخر الراكبين رجل جلس أمام (خالد) يرتدي بذلة غامقة اللون ويضع فوق رأسه (طاقية) بيضاء، قال السائق ضاحكًا وهو يلمس فخذ الفتاة التي جلست بجواره بحركةٍ بدت عفوية لكنها متعمدة:

- حد يقفل الباب.

بهدوءٍ مد الرجل ذو البذلة الغامقة يده ودفع الباب ثم أغلقه..

حاول (خالد) أن يسترخي في مقعده ويتابع الطريق.. من ورائه سمع طفلًا يتقافز فوق المقعد، ثم يخرج يده من النافذة، ويصنع بسبابته وإبهامه مسدسًا خياليًا، ويطلق النار على السيارات المجاورة.

- بيو.. بيو.

صاح السائق:

- دخلي الواد يا ست الكل عشان ميتعورش.

حاولت أم الطفل سحبه للداخل وهي تنهره برفقٍ وتغلق النافذة..

عاد السائق يصيح بصوتٍ مزعج:

- الأجرة يا اخوانا.

بروتينيةٍ شديدة اندفع كل شخصٍ يناول الآخر أجرته.. الكل يعرف ما يجب عمله.. الوحيد الذي سأل كان (خالد):

- كام..؟

أجابته المرأة التي تجلس خلفه:

- تلاتة جنيه.

أخرج خمسة جنيهات وأعطاها للسائق ثم انتظر الباقي..

بعد مدة صاحت المرأة التي وراء (خالد):

- لي اتنين جنيه.

قال (خالد) وقد شجعته:

- أنا كمان لي اتنين جنيه.

السائق:

- حاضر.

ثم ناول أربعة جنيهات للرجل ذي البذلة الغامقة والذي بدوره ناولهم إلى (خالد) وهو يستدير بجسده ناحيته قائلًا:

- اتفضل.. اتنين لك.. واتنين للست اللي وراك.

ضرب الصوت أذن (خالد) وشحب وجهه، ثم دفع بظهره إلى الوراء حتى كاد أن يحطم ظهر المقعد واختفى العالم من حوله.. كان هذا صوت.. (إسحاق).

***

في الطابق الأعلى من منزل (جابر) وتحديدًا غرفة (ضياء) انبعث ضوء أحمر مرتعش مصدره أربعة مشاجب ذات أحجامٍ مختلفة موزعة في أركان المكان..

على أرضية الغرفة العارية والخالية من أي قطعة أثاث، كانت توجد قطرات دم قانية علي هيئة دائرة يجلس في منتصفها (ضياء).. كان يرتعش وجسده شبه العاري يبدو أزرق اللون.. عيناه مغلقتان وفي مواجهته (جابر) يردد كلمات مبتورة الحروف:

- ذكر.. ابن.. فرج.. بنت.. روجان.. قرموش.

عند بعض الكلمات كان جسد (ضياء) يتصلب ثم يعود إلى ارتجافته..

على الناحية المقابلة ودون أن يدري (جابر) كان (محفوظ) يقف

على سطح منزل (وطنية) وهو يمسك منظارًا مكبرًا بين يديه يراقب ما يحدث وقلبه يخفق بشدة في صدره.. حاول بسرعة أن يقيم الوضع.. أي سحرٍ شيطاني يمارسه (جابر) على هذا الطفل المسكين؟!

حرك (محفوظ) المنظار في اتجاهٍ آخر..

تحت قدمي (جابر) كانت توجد قطط سوداء منزوعة الرأس.. مجرد أجسام تخرج الدماء من عنقها مثل نافورة صغيرة، يستخدمها (جابر) في تلطيخ أركان الغرفة..

(ضياء) يفتح كلتا ذراعيه فجأة، حدقتاه واسعتان، أطراف أصابع يده ذات سوادٍ مرعب..

(جابر) يخط أرقام وحروف متشابكة على جبهة (ضياء) باستخدام ريشة طويلة بعدما قام بغمسها داخل محبرة زجاجية غير شفافة..

٢٩٩ ح ٩٩٤٢٧٣١ ع ١٤٨ هه ١١٩ لا

حينئذ سارع (محفوظ) بتدوين الأرقام والحروف على هاتفه حتى لا ينساها وقد بلغ منه الفضول مبلغه..

وضع (جابر) سلسلة تشبه المسبحة حول عنق (ضياء) الذي تغير جسده بشكلٍ مدهش.. استطال شعر رأسه قليلًا.. اختفت الزرقة التي كانت تصبغه.. وفي لحظات صار يمتلئ حياةً وحيوية.

الابتسامة تعلو وجه (جابر) وهو يعيد الريشة إلى المحبرة ويتمتم بالكلمات المبهمة نفسها..

بعد ذلك غرقت الغرفة في دخانٍ أسود ابتلع كل شيء..!

***

استمر (خالد) يحدق بظهر (إسحاق) وهناك ذكرى واحدة تسيطر عليه... ذكرى يوم قتل أصدقائه.. (حسام) و(فوزي).. صوت صراخهما يتضخم عشرات المرات داخل رأسه مثل دوي أصوات المدافع وقت الحرب..

تدريجيًّا شعر بأنه يتهاوى وأن هناك يدًا ثقيلة تجذبه إلى أسفل نحو الظلام..

فجأة التفت له (إسحاق) وسأله بصوتٍ أجش:

- إحنا نعرف بعض قبل كدا..؟

ساد بينهما صمت ثقيل ثم قال:

- لا مظنش.

كانت لحظة حرجة جدًّا.. رغم ذلك حاول (خالد) المحافظة على هدوئه.. قال (إسحاق) مبتسمًا بخبث:

- يخلق من الشبه أربعين.

وعاد ينظر إلى الأمام دون أن يلحظ شهقة الارتياح التي ندت عن (خالد).

- على جنب يا ريس.

قالها (إسحاق) ونزل من (الميكروباص) حين توقف على جانب الطريق..

انتظر (خالد) حتى سار (الميكروباص) قليلًا ثم قال:

- معاك هنا لو سمحت.

صاح السائق بغضبٍ وهو يبطئ السرعة:

- ما أنا كنت واقف، هو تعب وخلاص.

- آسف.. أصل كنت سرحان.

ثم قفز من (الميكروباص) وهو حريص على أن يظل (إسحاق) داخل نطاق نظره..

سار خلفه..

كان مندهشًا وخائفًا ومرتبكًا في الوقت نفسه.. وصل إلى منطقةٍ عشوائية تبدو كأنها فصل منسي داخل رواية.. البشر هناك أيضًا منسيون.. الشرطة نادرًا ما تدخل مكانًا كهذا..

(إسحاق) تجاوز تلك المنطقة من خلال زقاق ضيق، ثم عبر إلى الناحية الأخرى.. عالم ثانٍ شامخ ينبض بالحياة والثراء والأبراج العالية والإعلانات البراقة..

تعجب (خالد) حين لاحظ أن الفقر المدقع والثراء الفاحش لا يفصل بينهما غير زقاقٍ قذر..

توقف (إسحاق) عند شابٍّ أشقر الشعر مهندم الثياب يحمل

حقيبة جلدية سوداء.. كان يبدو واضحًا أن هناك ميعادًا مسبقًا بينهما..

الشاب يتحدث مع (إسحاق) الذي كان يستمع فحسب دون أن يتكلم..

بعدما انتهى الشاب، فتح حقيبته وناول (إسحاق) ظرفًا ورقيًّا منتفخًا ثم ذهب كلٌّ منهما إلى حال سبيله..

وضع (إسحاق) الظرف بين طيات ثيابه واتجه إلى ناصية الشارع حيث توجد (كافتريا) ذات ألوانٍ زاهية، ومقاعد فاخرة، وعمال يبدون على درجةٍ عالية من النظافة والسرعة..

اختار مكانًا قريبًا من باب الخروج وفي الوقت نفسه بعيدًا عن عيون الناس ثم جلس.. دخل (خالد) الكافتريا وهو يضع يده على وجهه بحركةٍ بدت عفوية لكنه تعمد فعلها حتى يخفي ملامحه عن (إسحاق).. اتخذ مكانًا غير بعيد عن (إسحاق) يتيح له مراقبته والتصنت عليه إذا لزم الأمر.. شعر بعد مدة أنه يرغب في الذهاب إليه ومواجهته لكنه آثر السلامة مؤقتًا.. استمر المشهد هكذا بلا أي تغيير في الأحداث حتى جاءه أحد عمال (الكافتريا) يحمل منشفة صغيرة.. مسح العامل المائدة التي أمام (خالد) وقال بأدبٍ جم:

- أهلًا وسهلًا.. تشرب إيه..؟

- شاي بالنعناع بعد إذنك.

انصرف العامل ثم عاد بعد قليل وهو يحمل صحفة براقة نظيفة

للغاية، ذات نقوشٍ ملونة، فوقها كوب زجاجي امتلأ شايًا حتى ثلاث أرباعه.. وضع الشاي أمامه بعدما أرفق معه زجاجة مياهٍ معدنية صغيرة..

- اتفضل.. حاجة تانية..؟

- لا.. شكرًا.

انتظر حتى انصرف العامل ثم رشف رشفة من كوب الشاي فتصاعدت رائحة النعناع العطرة إلى أنفه وبعثت بعض الهدوء والراحة.. استمر في مراقبة (إسحاق) الذي أخذ ينفث دخان (الشيشة) في تلذذٍ واستمتاع.. بدا أن الجلسة سوف تطول وأنه لن يغادر الآن.

***

رن جرس هاتف منزل الخالة (وطنية) وكسر الهدوء الذي يصبغ المكان.. لم تقم بمناداة (محفوظ) هذه المرة كي يجيب.. ظنت أنه مشغول في المذاكرة بينما الحقيقة أنه مستمر في مراقبة منزل (جابر)..

ذهبت إلى الهاتف مباشرةً، ثم رفعت السماعة ليأتيها صوت (سعدية) من الطرف الآخر:

- مساء الفل.

- مساء الورد.. أنا كنت لسه هتصل عليكي وأشوف مجتيش ليه النهارده.

- (رضوى) بنت أختي جت زيارة النهارده ومعرفتش أخرج خالص.

- طيب جميل.. تصدقي أنا عمري ما شفتها.

- هي بنت شقية وحمارة زي الواد (محفوظ) بس عسل.. هتقعد معايا كام يوم.

- يبقى تجيبيها وتيجي بكره المحل.. هستناكوا.

- هشوف كدا.. أنا بس بدور لها على ناموسية عشان تعرف تنام.. البت جلدها رقيق وعماله تصوت طول الوقت من لسع الناموس.

- هو إحنا أصلًا عندنا ناموس؟

- عندنا كتير يا حبيبتي بس جتتنا نحست.

تحدثا قليلًا في دردشة نسائية قصيرة استغرقت فقط نصف ساعة.. مدة قليلة جدًّا بالنسبة لهاتين السيدتين بلا شك..

بعد انتهاء المكالمة اتجهت (وطنية) إلى المطبخ، وأعدت لنفسها خليطًا ساخنًا من الكاكاو واللبن، رغم أنها تعلم أن هذه الخلطة قد تؤثر على نسبة السكر في دمها.. تذكرت مقطع أغنية (مصطفى قمر).

- قمرين..

هزت خصرها في حركةٍ لولبية سريعة مثل الراقصات اللاتي يزرن البلد في (الموالد) ثم ضحكت ضحكة مائعة..

في طريق عودتها من المطبخ وهي تحمل المشروب الساخن كان يوجد مرآة قديمة تم وضعها على الحائط.. رأت انعكاس صورتها فتوقفت في مكانها فورًا.. نظرت إلى وجهها في المرآة.. من تلك المرأة الموجودة هناك..؟

كانت تمتلك وجهها نفسه لكن كانت العينان مختلفتين، وهناك قطع بطول الخد تنزف منه الدماء.. بصوتٍ باهتٍ صاحت:

- يا ستار استر.

تراجعت بقدمها للخلف، وهي تثبت عينيها على الصورة ثم استدارت وركضت إلى نهاية الصالة..

دخلت إلى غرفتها وحاولت إغلاق الباب خلفها لكنها فوجئت برأس المرأة تندفع بينهما وهي تزمجر.. أسنانها الأمامية مهشمة تمامًا، من أين جاءت..؟

سقطت (وطنية) على الأرض من فرط الخوف وحاولت الزحف إلى الوراء لكن المرأة أمسكت بثوبها ثم جذبتها بمنتهى العنف فتمزق جزء من الثوب بصوتٍ مزعج..

بكل قوتها طوحت (وطنية) يدها في الهواء وضربت وجهها ضربة هائلة جعلت الدماء تنفجر من الجرح الموجود.. صرخت المرأة وراحت الدماء تخرج من بين فتحات أنفها وعينيها.. شعرت (وطنية) بذعرٍ هائل وهي تتابع ما يحدث.. ما يحدث شيء خارق للطبيعة..

(جابر) أرسل أحد زبائنه بلا شك..

وفجأة اختفى كل شيءٍ حين اندفع (محفوظ) من خلال الباب والهلع يغزو ملامحه.. انحنى نحوها قائلًا:

- خير.. أنا سمعت صوت خبط جامد.

نظرت له بكثيرٍ من الغضب.. اعتصرت ذراعه وهزته بقوة.. شعر أن أصابعها تخترق لحم ذراعه.. صرخ:

- حصل إيه..؟

صاحت:

- أنا مش حذرتك تبعد عنه.

- مين..؟

- جابر.

أفلتت ذراعه بينما قال:

- أنا مجتش ناحيته.

انهارت باكية:

- لا.. أكيد أنت عملت حاجة.. متكذبش.

عندما نظر خلفها شاهد بقع دماءٍ فوق الأرض، لم تكن (وطنية) مصابة، لمن هذه الدماء إذًا؟

قال:

- أنا آسف جدًّا.

- عملت إيه..؟

حاول رفعها من على الأرض قائلًا:

- استريحي بس دلوقتي.

نهضت معه وسارت تجاه سريرها بينما يردد:

- نامي وبكرة نتكلم.

التقطت مصحفًا موضوعًا بجوار السرير ثم رفعته في وجهه قائلة:

- احلف على ده انك هتبعد عن (جابر).

- أنا..

هزت المصحف في وجهه وصرخت بقوة:

- احلف عليه.

- اسمعيني بس، أنا بعيد عنه، الموضوع مش زي ما أنت مفكرة، الراجل ده نصاب.

تمنت وقتها لو لم يأتِ إليها، قالت:

- هتصل بابوك يجي ياخدك بكرة.

- أنا هتصل ابلغ عنه الشرطة.

- لو اتصلت بالشرطة مش هتجيب معاه حق ولا باطل.

وجد نفسه يهز رأسه قائلًا:

- طيب اهدي لو سمحتي.

- المرة الجاية الراجل ده هيأذينا، هو دلوقتي بيهدد، بيبعت لنا شياطينه، افهم يا بني آدم.

قبل جبينها وظل بجوارها حتى انتظم صوت أنفاسها وتأكد أنها نامت..

خرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه ثم عاد إلى غرفته بخطواتٍ ثقيلة ورأسٍ محنٍ.

***

للمرة الثالثة يتصل الأستاذ (رجب) بـ (خالد).. ثمة قلق في صوته وهو يتحدث معه:

- يا ابني أنت اتأخرت كدا.

حاول أن يبدو هادئًا فأجاب:

- مش عاوزك تقلق.. أنا بخير.

- لسه قاعد على الكافتريا..؟

- آه.. هروح فين يعني؟!

- أنت قاعد عليها بقالك ساعتين.

- بتابع ماتش في بطولة أوربا.. خلاص قرب يخلص.

- أنا عارف انك بتكذب.. على العموم مش عاوزك تتأخر، وخد بالك من نفسك.

- متتقلقش، القعدة جميلة والناس حلوة.

- طيب هستناك، نتعشى سوا.

- بلاش تربط نفسك بيا، أنا يمكن اتأخر.

- هستناك حتى لو هتجي نص الليل.

حاول أن يبدو مرحًا فقال:

- أنا فعلًا ناوي ارجع نص الليل.

- يا حبيبي الأيام لسه جاية كتير، مش لازم تشوف كل حاجة في يوم واحد.

قال:

- حاضر..أنا..

فجأة لم يعد يرى غير الظلام الذي غشي عينيه، فقطع عبارته وكأنه أصيب بالعمى من جديد.. سمع صوت والده يصيح في قلق:

- (خالد).. مالك..؟

عاد الظلام ينشق من على عينيه وتعود الحياة والألوان والأشكال تنساب في حدقتيه، قال بتلعثم:

- أبدًا.. مفيش.. أصل أنا..

قال والده قلقًا:

- لو حسيت بأي تعب ارجع علطول، اسمع كلامي.

- حاضر.

- ولا تحب اجي اخدك.. أنت فين بالضبط..؟

هتف:

- أقسم لك أنا كويس، صدقني أنا لو تعبان هرجع علطول، اطمن بس.

- هستناك مش هنام غير لما ترجع.

- ماشي.

ثم أغلق الهاتف، وحاول أن يكمل قدح الشاي رقم أربعة على مضض..

رغم أنه يتذكر ما حدث ليلة قتل أصدقائه، لكن يوجد ثقب واسع في ذاكرته سقطت داخله أحداث كثيرة يصعب العثور عليها..

عاد ينظر إلى (إسحاق) الذي لم يستطع أن يخفي قسوته خلف ذقنه الطويلة التي أكلت نصف وجهه.. كان مستمرًا في تدخين (الشيشة)..

بعد مدة مد يده إلى قبعته البيضاء، وضغطها على رأسه ثم نادى العامل الذي جاء سريعًا..

ناوله الحساب وإكرامية صغيرة ثم غادر الكافتريا وهو يبتسم ابتسامة صفراء..

نهض (خالد) خلفه مسرعًا، وهو يسمع صوت طبل يدق تحت ضلوعه حتى كاد أن يسمعه كل الموجودين..

كان متوترًا جدًّا أكثر من اللازم في مثل تلك المواقف، لدرجة أن أسنانه راحت تصطك ببعضها البعض بقوةٍ وبلا توقف، وأوشكت على أن تسحق بعضها البعض..

جاهد بكل عزمه وهو يحاول إيقاف هذا الاصطكاك حتى لا يلفت انتباه أحد أو يحدث الأسوأ ويكون لسانه بين الفكين وينشطر إلى نصفين..

فجأة سمع صوتًا يهمس في ذهنه:

- ارجع.

لكنه لم يستجب في حين عاد صوت رأسه يصرخ:

- ارجع بقولك.

ضغط على نواجذه بقوة في تحدٍّ للخوف الذي يحاربه الآن..

من جديد عاد صوت رأسه:

- هيموتك المرة دي، أصحابك ماتوا، اتعظ يا أخي..

توقفت أسنانه عن الاصطكاك أخيرًا.. حاول نبذ تلك الأصوات.. صاح بصوتٍ لم يتجاوز حلقه:

- لا.

ثم أكمل طريقه خلف (إسحاق) الذي كان يمشي بثقةٍ زائدة كأنه ملك العالم.. كان يخترق الطرق والشوارع وينتقل من مكانٍ إلى آخر مثل أفعى سامة تبحث عن جحرها..

وصل إلى منطقة المنازل فيها تشبه أشباحًا ضخمة ذات عيونٍ صارخة..

توقف (خالد) خلف شجرةٍ منكسرة الفروع يتابع خط سير (إسحاق) الذي تجاوز تلك المنازل ثم انحرف إلى طريقٍ منعزلٍ مكشوف..

في نهاية الطريق اندلعت أصوات نباح كلابٍ تحيط ببيتٍ وحيد يبدو كأطلالٍ ميتة..

عبر (إسحاق) باب هذا البيت بعدما أزال الأقفال والسلاسل التي عليه ثم دخل إلى غرفةٍ ضيقة تشبه القبر..

على أرضية الغرفة كانت توجد امرأة شابة عارية تمامًا فوق سريرٍ قديم.. كانت مقيدة اليدين والقدمين في عوارض السرير المستطيلة.. تئن من الألم والعذاب.. رغم ذلك كان جسدها رائعًا ووجهها جميلًا..

حين رأته رفعت رأسها وصاحت بوهن:

- ارحمني.

خرج صوت (إسحاق) قاسيًا منتشيًا:

- ربنا اللي بيرحم.

ثم خلع بنطاله وانتزع قبعته، فظهر شعر رأسه أبيض اللون نافرًا مثل أشواك القنفذ..

دس وجهه في عنقها، واشتم رائحتها في تلذذٍ مرضي.. حاولت أن تميل جانبًا لكنه وضع يده حول خصرها وتمكن منها جيدًا.. أنفاسه تخدش صدرها وأطراف ثديها، وهو يقبلها بنهمٍ وجوع.. استسلمت له، وهي تعلم إلى ما سينتهي هذا الموقف.. حاولت أن تسافر بوعيها إلى مكانٍ آخر، مكان بعيد، لا صخب فيه ولا عناء.. لم تشعر به إلا حين انتهى منها ثم نهض وبصق على وجهها وركل بطنها.. استلقى بجوارها مسترخيًا، وقد وضع كف يده وراء رأسه.. راقبته بعين نصف مفتوحة واهنة.. لم تعد قادرة على النطق.. مضت ساعة من الوقت ثم غط (إسحاق) في نومٍ عميق وعلا شخيره.. في وسط هذا اجتاز (خالد) بوابة البيت بحذرٍ بالغ، وقلبه يرتجف.. لم يمضِ وقت طويل حتى وصل إلى باب الغرفة الصغيرة.. كان موصدًا لكنه غير محكم.. نظر من خلال فتحةٍ صغيرة.. كانت صدمته هائلة حين شاهد ما في الداخل.. استجمع جم شجاعته ودفع الباب بهدوء.. جحظت عينا المرأة حين رأته، شهقت بصوتٍ مرتفع فتحرك (إسحاق) كأنه على وشك الاستيقاظ.. أشار لها (خالد) بألا تصدر صوتًا.. كتمت صرختها وفرحتها في وقتٍ واحد.. تسلل (خالد) حتى وصل إلى حيث ينام (إسحاق) وهو يقبض على سيخٍ حديديٍّ عثر عليه في الخارج.. كان يقترب من (إسحاق) وهو لا يدري ماذا سيفعل!.. هل يهوي على رأسه بضربةٍ واحدة، أم أكثر من ضربة، أم ينتظر حتى

تنفجر الدماء؟

وماذا لو استيقظ قبل أن يضربه؟ حينها ستدور معركة، الغلبة فيها قطعًا لن تكون له..

كلما اقترب ظن أنه في طريقه لملاقاة الشيطان.. مع كل خطوةٍ يصير كل شيءٍ أكثر فزعًا.. عادت أسنانه تصطك ببعضها البعض.. هذا الصوت كفيل بإيقاظ (إسحاق).. حاول جاهدًا أن يتحكم في حركة فكه.

- يا رب.

قالها داخل صدره، فتدفقت في مجرى دمائه وعروقه.. بعض السكينة غشيته في تلك اللحظة..

نصف متر يفصل بينه وبين رأس (إسحاق)..

وجه المرأة يمتقع كلما اقترب وهي تستشعر ساعة الخلاص..

تلاقت عينا (خالد) معها للمرة الأخيرة.. صرخت:

- اقتله.

فتح (إسحاق) عينيه فجأة.. قبل أن يستوعب ما يحدث، هوى (خالد) بالسيخ فوق رأسه..

تهشمت رأس (إسحاق) وتطايرت الدماء على وجه (خالد)..

صرخت المرأة من جديدٍ في هستيريا:

- اقتله.

استمر في الضرب دون لحظة توقف..

تتناثر الدماء والعظام واللحم حتى التصقت بمرتبة السرير..

حين انتهى، فك وثاق المرأة وهو يتجنب النظر إليها.. سألته:

- أنت مين..؟

لم يجبها..

غادر المكان بعدما تأكد من قدرتها على الحركة..

كنت شاهدًا على كل ما حدث.. رأيت (خالد) وهو يهرول في ضوء القمر الذي يطل من وراء أستار الغيوم.. أردت أن أذهب إليه وأطلب منه أن يتوقف قليلًا ويلتقط أنفاسه لكني لم أملك الجرأة.

فيما بعد سوف تذهب المرأة إلى أقرب قسم شرطة وتخبرهم بكل ما حدث.. قصتها ستكون أقرب للخيال.. سوف تخبرهم أن شابًّا اقتحم المكان وقتل هذا المجرم.. لن تذكر مواصفاته حتى يظل مجهولًا لكنها لن تنسى ملامحه أبدًا.

٥

يناير ٢٠١٩

بعد مرور عشرين عامًا على قتل (إسحاق)..

صوت قطرات الماء لا ينفك يطارد أذن (خالد) وهو يجول بين جدران ممر واسع جدًّا..

لا يعرف متى أو كيف وصل إلى هنا!

كل ما يذكره أنه وجد نفسه في هذا المكان.. شعر بالألم ينبض في منتصف رأسه.. يعتقد أنه يعاني من نوبة هلعٍ مفاجئة.. حين تحدث يصاب بفقدان ذاكرةٍ مؤقت..

بعد قليلٍ سوف يتذكر كل شيءٍ لكن يحتاج فقط إلى أن يهدأ.. الآن هو فقط يشعر بالخوف يشق صدره.. لديه صوت صارخ في عقله يطلب منه الاستمرار في الحركة.. لا مجال للتوقف أو النظر إلى الخلف.. وعلى ذكر الخلف جاءت تلك الصرخة التي جعلته يتجمد للحظة من فرط قوتها..

دون مزيدٍ من التفكير أطلق ساقيه للرياح تجاه الضوء لكن كان هناك المزيد.. الممر كان يتفرع إلى اتجاهين وينقسم إلى ممرين صغيرين؛ يتسع كلٌّ منهما بالكاد لعبور شخصٍ واحد.. أحدهما كان ينبعث منه ضوء والآخر مظلم.. عاد الصراخ الهادر يتردد بلا انقطاع كأنه يحثه على الاختيار سريعًا بينهما..

انطلق نحو الضوء..

لا يعرف كيف سينتهي كل ذلك.. عقله يصرخ من جديد.. إلى أين أنت ذاهب..؟ ما الذي جاء بك إلى هنا..؟ ضوء غامض يجذبك إليه.. توقف.. توقف.

وصل إلى مصدر الضوء.. فخ.. الممر مسدود بصخرةٍ ضخمة، وفوقها إناء واسع به شحم يحترق تنبعث منه شرارة زرقاء تشبه حربة لها ثلاثة رؤوس..

نظر خلفه وهو يلهث..

عقله يخاطبه من جديد: ألم أخبرك؟.. سوف تموت الآن.. سوف تموت.

ثم ظهر هذا الكائن الغريب..

وقبل أن يفكر (خالد) في البحث عن مخرج كان الكائن قد انقض عليه ونهش صدره..

شهق ثم استيقظ مذعورًا..

للحظة اعتقد أن الهواء لم يعد موجودًا في الغرفة..

سقط على الأرض وهو يسعل بشدة لدرجة أن وجهه احتقن وكادت الدماء أن تخرج من عينيه..

تمالك نفسه بصعوبة ثم رفع يده وتناول زجاجة ماءٍ واجترع منها حتى فاضت من حوله..

مسح الماء من فوق ذقنه واعتدل فوق السرير..

كان عاري الجذع ويرتدي بنطالًا رياضيًّا أزرق اللون.. تغيرت ملامحه وصار رجلًا آخر.. لحيته التهمت ثلاثة أرباع وجهه وغارت نظراته بسبب الهالات وقلة النوم والإفراط في السهر..

يعيش الآن بمفرده داخل شقة صغيرة في عمارة بوسط البلد.. تزوج منذ عام بعد فترة حبٍّ قضاها مع زميلةٍ له في العمل، ظن أنه سيمضي بقية حياته معها، رغم ذلك كان طلاقهما سريعًا جدًّا.. ثلاثة شهور وكلٌّ منهما ذهب إلى حال سبيله بعد جولةٍ صغيرة من الجلسات العرفية..

التقيت به عدة مرات خلال السنوات المنصرمة لكنه لم يكن يعرفني أو يلاحظني..

اليوم هو يوم عيد ميلاده..

أغمض عينيه نصف إغماضة محاولًا التغلب على ذلك الصداع الذي اصطحبه معه من الكابوس.. رويدًا رويدًا بدأ الألم يتلاشى.. فجأة رن هاتفه.

- صح النوم يا (خالد) بيه.

كان المتصل هو رئيس المجلة التي يعمل بها.. قال:

- أنا صاحي.

- طيب جميل.. محتاجينك في شغل ضروري.

- دلوقتي.. الفجر قرب يطلع..!

- أكيد.

- أنت ناسي إن أنا مصمم جرافيك.. أنا مش صحفي تحقيقات عندك.

- اسمعني بس كويس.. أنت خريج فنون جميلة، يعني أكيد بتعرف ترسم، مضبوط..؟

- مضبوط ولو إن مش فاهم حاجة.

- الأستاذ (سامح) بقاله مده بيجهز لموضوع حلو قوي.

- (سامح) بتاع باب غرائب..؟

- أيوه هو ده.

- طيب وانا مالي وماله.

- اصبر عليا وهتعرف كل حاجة.. هو مكنش عاوز يكلمك وكان محرج منك.. (سامح) بيكتب سلسلة مقالات جلسات تحضير الأرواح.. الموضوع ده عامل صيت كويس للمجلة.. ومن كام يوم هو قدر انه يتواصل مع معالجة وروحانية جاية من المغرب.. وافقت انه يكون موجود وقت جلسة تحضير هي هتعملها.

- جميل.. أنا بقى مالي ومال كل ده..؟

- هفهمك.. إحنا كنا عاملين حسابنا إن هيكون فيه مصور يصور الجلسة و...

قاطعه (خالد) بنفاد صبر:

- المصور عنده ظروف..

- لا مش كدا.. لو الموضوع مسألة مصور كنت جبت أي حد غيرك.. إحنا عندنا تلاتة شغالين في المجلة.

- جميل.. طيب فين المشكلة..؟

- المشكلة إن المعالجة الروحانية رفضت موضوع التصوير ده.. حاولنا معاها بكل الطرق والإقناع لكنها كانت مصممة.. عشان كدا أنا فكرت إن نخلي رسام يحضر معاهم الجلسة، وملقتش أحسن منك.

- قصدك...

- أيوه.. أنت هترسم الجلسة وترسم الأشخاص وكل حاجة.. زي بالضبط لما بتكون فيه قضية في محكمة وبيكون ممنوع التصوير فبيتم استخدام رسامين.

- ماشي.

- تمام جدًّا.

سأله (خالد):

- امتى ميعاد الجلسة دي..؟

- كمان نص ساعة.

صاح بدهشة:

- بتهزر.

- هو فيه هزار في الشغل.. بص من الشباك هتلاقي (سامح) واقف بالعربية تحت بيتك.. اخلص عشان الدنيا شكلها هتمطر.

أسرع بارتداء ملابسه وقد تملكه مزيج من السخط والغضب..

بعد خمس دقائق كان يسير في الشارع نحو سيارة (سامح) الذي أخرج يده من النافذة وأشار له قائلًا:

- أستاذ (خالد).. أنا هنا.

لم يكن هناك داعٍ للنداء لأنه ببساطة لم يكن في الجوار أحد غيرهما..

اقترب منه (خالد) ثم صافحه وجلس على المقعد الذي بجواره بعدما تبادلا حوارًا سريعًا تقليديًّا.

قال (سامح) وهو يدير السيارة:

- صدقني أنا آسف جدًّا.. أنا فوجئت بيها بتتصل بيا وبترفض موضوع التصوير مع انها كانت موافقة قبل كدا.

مسح وجهه وهو لا يزال يشعر أن وعيه مشوشًا يغمره الضباب ثم قال:

- ولا يهمك.

بعد لحظات كانت السيارة تنساب فوق الطريق لمدة نصف ساعة كاملة.. أخبره (سامح) أنهم ذاهبون إلى منزل مدام (سولافا).. هي في الأصل ابنة لرجلٍ مصري وأم مغربية، ورثت منهما ثروة لا بأس بها، لم تتزوج وقضت معظم سنين عمرها تبحث في العوالم

الغير مادية والروحانية، ليست دجالة، لكنها وسيطة روحانية كما تحب أن تطلق على نفسها.

قال (خالد):

- بيني وبينك باعتبر كل ده كلام فارغ.

- ممكن تكون دي وجهة نظرك بس خليني أقولك اني واحد من الناس اللي بيؤمنوا بالحاجات دي.

- حريتك الشخصية.

- ما دام أنت مش مقتنع، وافقت تيجي ليه..؟

- شغل.. والشغل مفيهوش مقتنع أو مش مقتنع.

- جميل.

توقفت السيارة أمام منزل له باب خشبي ثم هبط (سامح) من السيارة، تبعه (خالد) وهو يحمل أدوات الرسم داخل حقيبة جلدية...

طرق (سامح) الباب وانتظر حتى سمع صوتًا أنثويًا رصينًا يأتي من الداخل:

- ادخل.. الباب مفتوح.

دفع الباب الخشبي بيده فأصدرت مفصلاته الصدئة صليلًا مخيفًا ثم دلف إلى الداخل ومن ورائه (خالد) يسير على مهل.. رغم أنه كان لا يؤمن بذلك الهراء الذي يدعى (تحضير الأرواح) لكنه لم

يستطع منع تلك الرجفة التي سرت في بدنه.

قال له (سامح) بصوتٍ خفيض:

- على أد ما تقدر ما تتكلمش معاها.. ولو سألتك عن حاجة جاوب على أد السؤال بس.

- تمام.

فجأة هبت ريح ودفعت الباب من خلفهما دفعة قوية.. قال (سامح):

- السلام عليكم.

المنزل من الداخل كان قديم الطراز.. تجلس مدام (سولافا) مع ثلاثة آخرين حول منضدة تحيط بها إضاءة خافتة تنبعث من مصباحٍ صغير يتوسط سقف الحجرة المنخفض..

انطبعت ملامحها في عقل (خالد).. كانت امرأة مسنة شعرها مثل القطن، نحيلة جدًّا تمتلئ بالشك والكثير من الأفكار والطاقة الروحانية كما تدعي، قالت بصوتٍ متهدج:

- دلوقتي هتبدأ جلسة التحضير.. وأي حد عنده شك يخرج من هنا... الأرواح زي البشر فيها الطيب والخبيث... ولو معانا حد خبيث، الروح الخبيثة هتتواصل معانا، عاوزة الكل يحضر النية.

غمغم (خالد) داخل نفسه:

- أنا تمام.

همس (سامح) في أذن (خالد):

- متقلقش.. أنا متعود على كدا.. عاوز أقولك ان النصب في الحاجات دي كتير جدًّا.. أنا مهمتي اتأكد ان اللي بيحصل حقيقي مفيهوش خداع، وأنت دورك ترسم كل حاجة.. ركز كويس على ردود أفعال الموجودين.

كانت الجلسة حول السيدة (رقية) ومعها زوجها الذي يجلس صامتًا ويكتفي بوضع يده حول كتفها ليعطيها بعض الأمان والجرأة..

السيدة (رقية) فقدت والدتها منذ شهر، وترغب في أن تتواصل معها.. سألتها مدام (سولافا):

- ماتت ازاي والدتك..؟

- ماتت منتحرة.. أنا السبب.

عقدت مدام (سولافا) حاجبيها حين قالت:

- أرواح المنتحرين بتكون غاضبة معظم الوقت ومشاغبة.

قالت السيدة (رقية):

- أنا حاسة اني السبب في انتحارها.. يومها جت لي البيت.. اتكلمنا والموضوع قلب بخناقة.. معرفش حصل ازاي لكني طردتها.. تاني يوم جه لي خبر موتها.

تحدثت مدام (سولافا) مخاطبةً الجميع كأنها تلقي محاضرة:

- طـرق تحضـير الأرواح كتـيرة.. بـس أشـهرهم طريقـة المنـدل وطريقة الأوفاق والمربعات، وطريقة الوسيط وفيها بنحضر روح الميت على أحد الموجودين، وطريقة لوح الويجا وهو عبارة عن لـوح من الخشب مرسوم عليه الحروف الأبجدية والأرقام من صفر إلى تسعة.. وفوق الحروف والأرقام كلمتين.. كلمة (نعم) وكلمة (لا).. وموجود فيها مؤشر على هيئة قلب بيتحرك في كل الاتجاهات.

سألها (سامح) باهتمام:

- أنت هتستخدمي أي طريقة..؟

قالت:

- الوسيط.. ده الأسلوب الأمثل.

غمغم (خالد) سرًّا:

- الأسلوب الأمثل للخداع.

حدجته مدام (سولافا) بنظرةٍ غاضبة كأنها سمعت ما قال داخل عقله ثم أطفأت النور واكتفت بضوء شمعةٍ كبيرة وضعتها في منتصف الطاولة..

أشعلت عود بخور ورائحة نفاذة وطلبت أن يغلق كل الموجودين أعينهم، ويحاولون التأمل بعدما أمسك كل شخصٍ بيد الشخص الذي بجواره..

كـانوا أربعه وكانت هناك خمسة مقاعد.. المقعد الخامس كان

مختلفًا.. بخلاف أن مدام (سولافا) منعتهم من الجلوس عليه، فقد كان مصنوعًا من خشب يشبه الزان، ومطعم بقطعٍ من الجلد ذات الملمس الغريب..

حاول (خالد) أن يطرد من تفكيره فكرة أن هذا الجلد هو جلد بشري حقيقي..

رغم أنه كان يسخر مما يحدث، لكنه أغمض عينيه، وترك تركيزه يسبح في أجواء الحجرة..

سمع مدام (سولافا) تردد كلمات باللغة السامرية القديمة يتخللها اسم والدة السيدة (رقية).. ثم صمتت فجأة..!

شعور مفاجئ بالبرد تسلل إلى عظام وجه (خالد) فاضطر إلى فتح عينيه..

كان المشهد من حوله متجمدًا تمامًا..

رأى العرق يحتشد فوق جبين مدام (سولافا) وقد انقلبت عيناها إلى الوراء..

على المقعد الخامس كانت تجلس امرأة عجوز تقبض على عنق السيدة (رقية).. بشرتها رمادية وهناك بقعة دم جافة على صدرها..

نهض (خالد) من مكانه.. دار حول الطاولة.. كلهم ثابتين كلقطة تم إيقافها من فيلم سينمائي..

تحركت عينا العجوز تجاه (خالد).. سألها وهو يرتجف:

- انتي مين..؟

أجابت بصوتٍ مبحوح:

- أنا أمها.

فجأة شعر أن هناك من يراقبه.. يوجد شيء آخر موجود..

شاهد جسدًا مظلمًا يقف أمام باب الخروج.

- مين..؟

تحرك صاحب الجسد تجاهه، ورغم أنه داخل دائرة الضوء لكن الظلام ظل يحيط وجهه.. خرج منه صوت خشن:

- مش مهم تعرف أنا مين.. المهم تعرف أنا جاي عشان مين.

- عشان مين..؟

- أنا جاي عشانك انت.

ثم اتسعت ابتسامته الشريرة وابتلعت كل شيء.

***

مارس ١٩٩٩

انقضى نصف الليل وما زال (محفوظ) مستيقظًا..

نافذة غرفته نصف مفتوحة وعلى مقربة منها المنظار المكبر يراوده عن نفسه حتى يتلصص على (جابر)..

كانت تغمره حالة من الأرق الكامل.. جرب كل الطرق الممكنة للاسترخاء ومحاولة النوم لكن دون جدوى.. كان يود لو ينام وينسى أمر (جابر) و(ضياء) كما وعد خالته، لكن ذلك يظل مجرد أمنية وقد تكالبت عليه كل الظروف الآن.. ليل طويل بلا نوم.. فضول هائل.. ونافذة مفتوحة، من ورائها توجد الحقيقة..

قبع (محفوظ) أمام النافذة مصغيًا إلى عقارب ساعته وهي تدق دقات رتيبة تضخمت بفعل سكون الليل وراحت تخدش عظام وجهه..

ظل يتابع الظلام من مكانه وهو يتسع تدريجيًّا ويتبدد حتى بدأ الفجر في البزوغ طفلًا وليدًا جميل المحيا..

بهدوءٍ ومثل شخصٍ مسلوب الإرادة مد يده وتناول المنظار ثم اقترب من النافذة.. إنها مجرد نظرة سريعة لن تستغرق سوى ثوانٍ معدودات..

ألصق المنظار بعينيه وهو يتنفس ببطءٍ وقد شعر بخدرٍ غريب في خلايا عقله..

نافذة غرفة (ضياء) مفتوحة على مصراعيها هذه المرة.. في منتصف الغرفة كان (ضياء) يقف كتمثالٍ من الشمع يحدق بأحد الأركان التي لا يستطيع أن يراها (محفوظ)..

بعد عشر دقائق من المراقبة، ظهر ظل أسود عند قدم (ضياء).. بالكاد استطاع (محفوظ) تميزه بسبب الإضاءة الضعيفة.. الظل يتحرك ولم يعد ضبابيًّا مبهمًا ثم انبعث منه جسد محني الظهر.. حبس (محفوظ) أنفاسه لدرجة أنه شعر أن قلبه سيتوقف عن

العمل..

كان الجسد هو جسد (جابر).. يرتدي جلبابًا أسود اللون وقد خلع عمامته لأول مرة.. شعره رمادي وقصير.. عيناه واسعتان جدًّا بهما حمرة دموية مخيفة.. أما وجهه فلم يكن يحمل أي تعبير.. مجرد وجه مصمت الملامح مثل قناعٍ بلاستيكيٍّ يخلو من المشاعر..

كان يحمل شيئًا أسطواني الشكل في يده.. تمعن (محفوظ) النظر فيه محاولًا تمييز طبيعته.. كان إناءً نحاسيًا يمتلئ بالماء..

وضع (جابر) الإناء النحاسي على الأرض ثم وضع به قطعة قماش وانتظر حتى تشبعت بالماء، ثم عصرها جيدًا ومسح بها ساق (ضياء) وهو يحرك شفتيه بكلماتٍ غامضة..

بعد برهة حمل الإناء وبدأ يسكب الماء على رأس (ضياء).. رغم أن حجم الإناء صغير لكن الماء الذي في داخله كان لا ينتهي..

تعجب (محفوظ) من هذا الأمر.. رغم بعد المسافة بين نافذة غرفته وغرفة (ضياء) لكنه كان يسمع صوت انسكاب الماء يرن في أذنه كأجراسٍ نحاسية..

ركام من الأفكار والاحتمالات تسلل إلى ذهنه حول ما يحدث..

استمر على هذا الحال..

وفي تمام السابعة صباحًا سمع خالته (وطنية) تستيقظ وتتحرك في صالة المنزل..

بسرعة انزلق إلى فراشه وتظاهر بالنوم قبل أن تدخل عليه وقد عقد العزم على الدخول إلى منزل (جابر) مهما كان الثمن.

***

(خالد)..

عاد إلى المنزل مباشرةً بعد انتهاء جلسة التحضير التي لم تنتهِ على خير..

لقد استفاق من الحالة التي كان فيها ليجد أن محتويات شقة (سولافا) مهشمة، والسيدة (رقية) منهارة على الأرض تبكي في ارتياع، بينما زوجها يحتضنها وعلى وجهه آثار لكمة قوية..

على الناحية الأخرى كانت مدام (سولافا) تقف وهي ترتعش، بجوارها (سامح) يمسك هراوة صغيرة.. أما (خالد) فكان يشعر بألمٍ في منتصف رأسه وببقايا خيط دماءٍ جافة فوق جبهته.. حاول أن يستوعب الموقف.

- إيه اللي حصل..؟

قالها في ذعر..

اقترب منه (سامح) وهو ما زال متشبثًا بالهراوة بتحفزٍ ويستعد لضربة.

- (سامح).. اهدا.

صرخ (سامح):

- أهدا إيه يا عم.. أنت ملبوس ولا إيه..؟

أشارت له مدام (سولافا) أن يطمئن وقالت:

- خلاص يا أستاذ (سامح).. الشيء اللي حضر عليه انصرف.

قال (خالد) وهو غير مصدق:

- شيء حضر عليا.. انتي بتقولي إيه.. أنا.. أنا...

لم يجد كلمات تسعفه ليشرح ما مر به.. أخبرته مدام (سولافا) أن هناك روحًا أخرى حضرت وأنها تلبسته لبضع دقائق، بعدها استحال إلى وحشٍ هاجمهم بشراسةٍ وراح يحطم كل شيءٍ لولا أن ضربه (سامح) على رأسه..

غمغم بذهول:

- أنا عملت كل اللي بتقولي عليه ده.. لا طبعًا.

ثم تركهم وانصرف دون أن ينظر خلفه وهو يسب ويلعن اليوم الذي رآهم فيه..

عاد إلى المنزل وانقضى النهار وهو نائم.. لم يتقلب كثيرًا على الفراش كأنه لم يذق طعم النوم منذ سنوات.

حين أتى المساء وصل والده الأستاذ (رجب) وهو يحمل علبة مستطيلة تحمل شعار محل حلويات شهير تبدو مثل كعكة أعياد الميلاد..

ضرب جرس الباب ووقف ينتظر بعض الوقت..

سمع صوت خطواتٍ بطيئة غير متعجلة ثم أطل وجه (خالد) من وراء الباب وقال:

- اتفضل.

نظر له في مزيجٍ من الشفقة والحزن على ما آل إليه حاله..

- بتعمل في نفسك ليه كدا..؟

لم يجبه (خالد) وانسحب للداخل ليفسح له مجالًا للدخول ثم سار مترنحًا..

فتح الأستاذ (رجب) النوافذ لتهوية الشقة التي كانت تفوح منها رائحة عفونة وشيء ميت.. عاد يقول:

- حاول تخرج وترجع لحياتك.

- الموضوع مش زي ما انت مفكر.. أنا كنت في شغل و...

- الشغل يعمل فيك كدا؟!

- موضوع كبير.. بس أنا تمام دلوقتي.

- احكي وأنا هسمعك.

لم يجبه (خالد) وارتمى على أقرب مقعد في كسل.. منذ سنوات ومنذ أن انخرط في عالم الصحافة، صارت علاقتهما سيئة جدًّا.. اعتقد ذات يوم أن زوجته لا تتحدث بجدية حين خيرته بين العمل وبينها..

بعد الانفصال صار يقضي وقته ما بين مكتبه في المجلة وفراشه

في المنزل..

كان الأستاذ (رجب) يستنكر هذا الأسلوب في الحياة.. أسلوب أقرب لجلد الذات وليس للعيش..

سحب (خالد) علبة سجائره ثم أشعل واحدة وهو يسأل بلا اكتراث:

- دي تورتة..؟

- عشان عيد ميلادك.

قالها الأستاذ (رجب) وهو ينظر له نظرة قاسية في محاولةٍ منه أن يجعله ينتبه لوجوده..

نفث (خالد) دفعة من الدخان الهادئ في الهواء حين قال:

- مكنش لها لازمة.

وضع الأستاذ (رجب) التورتة على طاولةٍ خشبية قريبة وحرص أن يجعلها في وجه (خالد) ثم قال:

- أنا جيت اسلم عليك قبل ما امشي.

- رايح فين.. هتتجوز..؟

- آه.

ساد الصمت لبرهة قبل أن يستطرد:

- أنا آسف.. أنا كبرت ومحتاج ونس.

وجد (خالد) صعوبة في إخفاء دهشته قبل أن يقول:

- حقك طبعًا.. بس مكنش فيه داعي تتعب نفسك وتيجي.. كان ممكن تعرفني بالتليفون.. الموضوع مش مهم بالنسبة لي.

قال الأستاذ (رجب) كأنه لم يسمع كلمة واحدة مما قال:

- هي كانت زميلتي في الشغل قبل ما اطلع على المعاش.. متجوزتش على فكرة.. أنا أول راجل هيدخل عليها.

سحب (خالد) نفسًا جديدًا من السيجارة ثم قال:

- مبروك.

هبت عليهما ريح باردة من النافذة المفتوحة كأنها تحفزهما على المزيد من الحوار.. احتاج الأب بضع ثوانٍ حتى يقول:

- هستناك تيجي تزورنا.

حدق (خالد) بوجهه طويلًا.. حاول أن يسبر أغواره.. حاول طيلة أعوام منصرمة أن يعرف فيما يفكر.. كان يشعر بكراهيةٍ نحوه.. ربما لأنه يذكره بوالدته التي ماتت منذ ٣ سنوات داخل المستشفى.. لم يكن يكرهه.. لكنه لم يعد يحبه.

قال الأستاذ (رجب) وهو يستعد للرحيل:

- عاوز مني حاجة قبل ما اسيبك.

هز (خالد) رأسه نافيًا.. كان يريد شيئًا واحدًا.. أن يتركه وشأنه:

- مع السلامة.

قالها ثم شبك أصابعه أمام وجهه وهو يراقب خروجه حتى سمع صوت خطواته فوق سلالم العمارة.. حاول أن ينسى تلك المحادثة السريعة المرهقة التي دارت منذ قليل..

أخرج أوراقه وألوانه وراح يرسم (اسكتشات) سريعة لما دار خلال جلسة التحضير.. قطعًا سوف تكون أول شيءٍ يطلبه منه مديره حين يصل إلى المجلة..

حاول على قدر ما يستطيع رسم معظم التفاصيل..

رغمًا عنه راح يرسم الكيان الذي ظهر له.. رسمه على هيئة وجهٍ مخروطي أسود اللون وله أطراف تشبه أجنحة الغراب.. استمر في تكرار الرسم مرارًا وتكرارًا، ولم ينتبه إلى ذلك إلا حين انتهت أوراقة كلها..

نظر حول نفسه في ارتياع..

عشرات الأوراق للرسم نفسه.. في كل مرةٍ كان يزيد حجم الوجه وحجم الأجنحة.. يشبه رسولًا من ملاك الموت..!

شعر بشيءٍ ثقيل يضغط على رأسه.. جمع الرسومات بسرعة ثم دسها داخل ملف ورقي ووضعه في درج مكتبه..

ذهب إلى الحمام وهو ينتوي إغراق رأسه بالماء.. حين وصل كانت الإضاءة ضعيفة بعدما احترقت معظم المصابيح ولم يعد غير مصباحٍ واحد صغير يتوسط السقف ويلتصق فوقه قبيلة من الناموس والذباب في مشهدٍ بديع على لقاء الحشرات..

وضع رأسه تحت الماء وهو يغمض كلتا عينيه ويستشعر كل قطرة تسيل فوقه.. كان الماء باردًا جدًّا كأنه قادم من داخل حفرةٍ ثلجية في القطب الجنوبي..

بعد خمس دقائق أحس بالانتعاش يضرب جسده ويحرك خلايا مخه ثم تناول منشفة جافة ودفن وجهه فيها.. حين انتهى ألقاها تجاه المشجب، لكنه أخطأ التصويب فسقطت على الأرض وابتلت.. أطلق سبة ثم انحنى وعاد وألقاها مرة أخرى لكن في سلة الغسيل بينما قطرات الماء تنهمر منها.. استشعر فجأة حضور قوي في المكان وانتبه إلى الظلام الموجود في نهاية الردهة التي أمامه.. ظلام غريب يبدو كأنه منفصل عن كل ما يحيط به.. أغمض عينيه وتنفس بعمقٍ وهو يحاول السيطرة على مخاوفه.. بدون سابق إنذار سمع صوت تنقيط قطرات الماء.. فتح عينيه ونظر تجاه مصدر الصوت..

الصوت مستمر لكن لا يوجد ماء..!

ظن أن هذا مجرد خيال.. رغم ذلك اتجه إلى الصنبور ثم مد يده وأحكم إغلاقه.. تعجب.. بالفعل كان مغلقًا بإحكام، ولم يكن يحتاج أن يفعل ذلك..

استرعى انتباهه كمية المياه الصافية التي ملأت الحوض، كانت تصل إلى الحافة الرخامية وتوشك على أن تفيض، انعكاس وجهه كان يبدو مشوهًا على سطح المياه الباهتة.. ثابتًا أكثر مما يفترض أن يكون.. تبدو ملامحه غريبة جدًّا.. حاول تشجيع نفسه قائلًا:

- أنا كويس..أنا كويس.

فجأة تجمد في مكانه.. باب الحمام يتحرك ببطء.. لا يوجد يد تحركه.. مجرد طاقة خفية تعبث به.. صوت مفصلات الباب المعدنية يبدو مزعجًا وحادًّا.. وأيضًا مخيفًا..

دق قلبه بسرعة بالغة.. حاول أن يتحرك لكن قدمه تجمدت في الأرض أو التصقت.. نتيجة ذلك سقط على وجهه بدويٍّ مزعج..

ارتطمت رأسه بالأرض فشعر أن هناك مئات المطارق قد انهالت على جبهته بضربةٍ واحدة مجمعة ثم اجتاحه دوار هائل كالإعصار..

شاهد الدماء تسيل من رأسه وتختلط بالماء الموجود على الأرض فتصير حمراء مرعبة..

أغلق عينيه للحظاتٍ بسبب شدة الألم وتأوه، تحرك جانبًا وارتمى على ظهره قبل أن ينهض وهو يضع يده على جبهته..

كان يحاول أن يوقف النزيف باستماتة..

فتح درج الصيدلية الكبيرة الموجودة بجوار حوض الاستحمام.. كانت زوجته السابقة حريصة على أن تكون هناك واحدة بالمنزل ووقتها اتهمها بالتبذير.. تناول قطعة قطنٍ ثم أغرقها بالمطهر ووضعها فوق الجرح وضغط بقوة.. سمع همسًا خافتًا بجواره.. تلفت حول نفسه وهو يشعر أن المكان قد صار مزدحمًا.. لكن لا يوجد شيء.. مجرد فراغ بارد..!

فجأة ارتفع الماء في الهواء ثم راح يتجمع ويتجسد على هيئةٍ

مادية.. رأس وعنق وجذع وأربعة أطراف..!

أمامه مباشرةً ظهر شكل غير آدمي.. الكيان نفسه الذي ظهر له خلال جلسة التحضير.. تراجع في خوف، وسقطت من يده الضمادة التي كان يضعها على رأسه وهو يشهق بفزع، لكن الكيان كان أسرع منه ولطمه لطمةً أعادته ليعانق الأرض من جديد.. كانت الضربة قوية لدرجة أنه شعر أن وعيه يذهب تجاه الظلام..

مد الكيان يده ثم أمسك قدمه اليسرى وبدأ يسير به ببطءٍ شديد.. حاول (خالد) المقاومة.. ضرب الكيان بقدمه الحرة ضربة هزيلة لا تغني عن شيء.. كان يحتاج إلى أن يصرخ لكنه كان عاجزًا.. شاهد الكيان وهو يتجه إلى الركن المظلم الذي بدا كبوابةٍ تقود إلى عالمٍ آخر..

تلاشى نصف الكيان داخل الظلام.. قال (خالد) بوهن:

- واخدني على فين..؟

- للمكان اللي أنا فيه.

- لا.. أرجوك.

عيناه تغمضان رغمًا عنه، ثم شعر بوخزٍ حاد في كل أطرافه وتهاوى كل شيءٍ من حوله بغتة..!

***

كانت الشمس تغيب حين تسلل (محفوظ) من منزل خالته (وطنية).. لقد شاهد (جابر) وهو يخرج من المنزل كعادته كل يوم

في مثل هذا التوقيت.. إلى أين يذهب؟ سؤال بلا إجابة..

المهم الآن بالنسبة له، هو أن أمامه ساعة كاملة قبل أن يعود (جابر).. ساعة كاملة يستطيع فيها أن يستكشف هذا المنزل الغامض..

سار عابرًا أرضية الطابق الأول الذي بهتت ألوان جدرانه وأرضيته الرخامية ذات المربعات البيضاء والبنية التي تشبه رقعة الشطرنج..

كان الضوء ينبعث من مصباحٍ وحيد تقف فوقه حشرة مجهولة النوع..

حاول الإبقاء على خطواته بطيئة هادئة بلا صوت، لكن الفراغ الواسع كان يضخم كل الأصوات.. لاحظ أن هناك سلمًا حلزونيًا مصنوعًا من الخشب يقود إلى الطابق الثاني.. شعر بالقلق وبأنه لص تحيط الشرطة بمنزله وتصرخ:

- سلم نفسك.. المكان محاصر.

كانت كل غرف هذا الطابق مغلقه بإحكامٍ ما عدا غرفة واحدة كان بابها مفتوحًا على استحياء.. تحرك (محفوظ) تجاهها وهو يأمل أن يصل إلى شيءٍ أو يعرف معلومة ذات فائدة..

إنه الفضول ليس إلا..

الغرفة من الداخل كانت صغيرة تشبه القبر بلا نوافذ وذات سقفٍ منخفض..!

لاحظ أن هناك أطباق طعامٍ كثيرة في تلك الغرفة.. أطباق ممتلئة عن آخرها.. لكنه رأى شيئًا جذب انتباهه.. علامة نصف دائرية على الأرض بجوار الحائط الشمالي.. تشبه حركة بابٍ يتحرك باستمرار..

طرق الحائط برفق.. الصوت يرن.. خلف هذا الحائط توجد غرفة سرية.. طرق مرة أخرى وفجأة تحرك الحائط ببطءٍ شديد جعل معدته تتقلص بعنف.. تحرك إلى الأمام فكاد أن يتعثر في مقعدٍ صغير مقلوب على الأرض..

حرك كشافه يمينًا ويسارًا..

تفحص الغرفة السرية جيدًا.. كانت تمتلئ بالأقفاص والصناديق وبعض العظام المعلقة..

ثمة إناء زجاجي كبير بداخله جنين يسبح داخل سائل كهرماني اللون، بجواره توجد كف مخلبية محنطة.. كانت الكف يكسوها شعر مجعد كثيف والأصابع تنتهي بمخالب سوداء معقوفة..

كان هناك أيضًا ركام من الفحم وبجواره توجد أرفف خشبية على هيئة مكتبةٍ قديمة الطراز تكتظ بكتب السحر القديمة..

اتجه إلى المكتبة ووقف أمامها يقرأ العناوين الضخمة.. شمس المعارف الكبرى ولطائف العوارف.. التابوت الأسود.. عالم الجن والشياطين.. غبار الأموات.. أسرار السيمياء والكيمياء والهيمياء والريمياء.

التقط أحد الكتب بطريقةٍ عشوائية وراح يقلب صفحاته باهتمامٍ

وفضول.. لم يستوعب شيئًا من المكتوب.. جذب كتابًا آخر.. ثم كتابًا ثالثًا.. ثم رابعًا..

سقط من بين صفحات الكتاب الرابع نصل حاد يشبه نصل السكين ثم انغرز في الأرض بجوار قدمه ببضع سنتيمترات.. كان من الممكن أن يشطر قدمه إلى نصفين.. انحنى على الأرض وتحسس النصل الحاد باهتمام.. يبدو أنه مصنوع من معدنٍ غريب.. كان يلمع بطريقةٍ مبهرة مثل جوهرة أو ماسة.. أخرج من جيبه علبة المناديل وقام بلف النصل داخلها حي لا يؤذيه ثم أخفاه بين طيات ملابسه.. في تلك اللحظة انكسر حاجز السكون..

- (جابر).. أنت جيت؟

انتفض (محفوظ) في خوفٍ حين جاء صوت (ضياء) من الطابق العلوي..

استدار وهو جاثٍ على ركبتيه ويديه وأرهف السمع... لا توجد خطوات تقترب.. فقط صوت قعقعة حذاءٍ يتحرك في الطابق العلوي.. أدرك أن (ضياء) قد شعر بوجوده..

اعتدل واقفًا إلى خارج الغرفة، وقلبه يخفق بين ضلوعه.. كان يتصبب عرقًا لدرجة أنه كان يشعر بالقطرات الباردة وهي تنسال من على جبهته.. هتف سرًّا:

- استر يا رب.

أغلق باب الغرفة السرية خلفه مرتجفًا وسار عبر الصالة وهو

يشعر أن هناك عيونًا باردة تراقبه.. سمع صوت باب غرفة أخرى يتحرك ببطءٍ كأنه يدعوه للدخول..

ببعض التردد دخل..

لا يوجد أحد..!

فجأة لمح بطرفي عينيه شخصًا يقف على يساره بعدما أحس بهواءٍ ساخن من الاتجاه نفسه.. استدار ببطء.. خرج (ضياء) من الظلام إلى الضوء، كانت جبهته ضيقة وبارزة.. ووجنتاه غائرتين.. وجهه شاحبًا مثل الموتى الذين رآهم ذات يومٍ في أحد الأفلام الوثائقية.. أسنانه موزعة داخل فمه بطريقةٍ عشوائية ربما ناتجة عن عيبٍ وراثي.. لم يتفوه كلاهما بكلمةٍ أو حرف.. استمر الصمت البارد بينهما لبرهةٍ من الوقت.. تمتم (ضياء) بكلماتٍ غير مفهومة.. الأقرب أنها لثعبانٍ ينفث السم.. وبينما هو يتمتم كانت الدماء تتدفق من فمه، وتسيل على الأرض تصنع بركة صغيرة.. أدرك (محفوظ) أنه لا بد أن يتحرك أو يصرخ على الأقل لكن بدلًا من ذلك وجد نفسه يقول:

- مالك.. أنت بخير..؟

كان يتحدث بكلماتٍ مرتعشة كأنها رجاء أو توسل..

فجأة وجد نفسه يساق تجاه (ضياء) كأن يدًا خفية تسحبه.. حاول أن يقاوم لكن هذا الشيء الخفي كان أقوى منه.. أخذ عقله يردد بطريقةٍ مشوشة:

- استر يا رب.. استر يا رب.

ثم بعدها ودون أي مجهودٍ منه توقف مكانه.. فتح (ضياء) فمه وتكلم.. قال بصوتٍ واضح:

- أنا ميت.

ثم سقط على الأرض دفعة واحدة..!

***

كان المطر ينهمر على الطريق بلا توقف، حين اهتزت نافذة شقة (خالد) المفتوحة ودخلها هواء بارد قارص..

في الداخل شعر (خالد) أن هناك (مسامير) ساخنة في جبهته حين استفاق..

فتح عينيه ببطء..

كان مستلقيًا على سرير غرفته..

ثمة رجل طويل يقف على مقربةٍ منه ويعطيه ظهره..

حاول أن ينهض لكن أعضاءه ظلت مشلولة، فقال:

- رجعت تاني..؟

التفت له والده وهو يبتسم ابتسامة لم تخفِ قلقه ثم سأله:

- عامل إيه دلوقتي..؟

- تمام.. أنا كويس جدًّا.

حاول التركيز.. آخر شيءٍ يتذكره، هذا الشيء المخيف الذي كان

يسحبه تجاه الظلام.. غير ذلك لا شيء..

عطس بصوتٍ مرتفع وارتعشت ذراعاه بسبب البرد.. وضع الأستاذ (رجب) (بطانية) إضافية فوقه بعد أن أغلق النافذة ثم قال:

- افتكرت اني نسيت الميدالية بتاعتك معايا، رجعت اديهالك.. لقيتك بتصرخ.. وصوت صراخك كان جاي من الحمام.. لحسن الحظ الباب كان مفتوح.. دخلت بسرعة لقيتك مغمى عليك ومرمي والدم مغرق وشك، حصل إيه..؟

- مفيش حاجة.. دوخت فجأة.

- الإغماءات رجعت تاني..؟

- مش عارف.. دي أول مرة تحصل لي من سنين.

- طيب تحب نروح لدكتور..؟

استجمع قواه ونجح بصعوبةٍ في الاعتدال فوق السرير وهو يتحسس الضمادة التي تحيط برأسه قائلًا:

- أنا كويس.

ثم أعاد رأسه إلى الخلف قليلًا.. لا توجد منطقية في كل ما يحدث له.. بحكم أنه شخص عقلاني كان يحاول الوصول إلى تفسير.. لم يشأ الاعتقاد أن هناك روحًا أو كيانًا مجهولًا يحاول التواصل معه.. يبدو أنه شيء أقرب للخيال.. هل يكون حقًّا السبب هو جلسة التحضير وأنه استدعى كيانًا من عالم الظلام بالصدفة؟!

قاده تفكيره إلى والده حين ناوله كوب قهوة قائلًا:

- اشرب عشان تفوق.. عارف انك بتحبها على الريحة.

رشف (خالد) رشفة صغيرة، سادت لحظة صمت مديدة قبل أن يقول:

- مبروك بجد.. على فكرة أنا مش زعلان انك هتتجوز.

تنهد الأستاذ (رجب):

- عارف.

ثم مكث بضع دقائق إضافية حتى اطمأن جيدًا على (خالد) وغادر في صمت..

نهض (خالد) وتقدم نحو النافذة، نظر من خلالها إلى الطريق.. لمح والده ينجرف مع المارة بخطًى سريعة.. ظل ساكنًا مكانه لدقائق.. عيناه شاخصتان تجاه اللاشيء ويداه متصلبتان على صدره.. أفكاره مشوشة.. أسئلة كثيرة تشغل ذهنه..

كنت أملك الإجابة عن كل أسئلته لكن لا أستطيع إخباره بها.

***

أجاب (ضياء) بصوتٍ واضح:

- أنا ميت.

ثم سقط على الأرض دفعة واحدة..!

تجمد (محفوظ) ولم يعد يعرف كيف يتصرف لكن تدريجيًا صارت ملامح (ضياء) عادية جدًّا وعادت لها الروح واصطبغت برونق الحياة..

بأصابع مرتعشة حمله (محفوظ) فوق كتفه ثم صعد به إلى الطابق العلوي..

لاحظ أن السلسلة النحاسية المعلقة في عنقه تنتهي بقرصٍ فضيٍّ منقوش عليه عهود روحانيه لمصابي المس الشيطاني..

وضع (ضياء) فوق السرير في غرفته، وهو يسأل نفسه عما يجري في هذا المنزل وما هو سره..؟

لم يكن لديه فكرة عما يجب عليه فعله.. انتظر لدقائق حتى تأكد أن (ضياء) بخير وبدأ يستعيد وعيه.. ربما لن يتذكر وجهه.. سوف تحدث مصيبة لو علم (جابر) بما حدث..

نظر في ساعته.. أوشكت الساعة على الانقضاء وبالتأكيد (جابر) في طريق العودة..

بسرعة هرول إلى الأسفل..

قبل أن يخرج من منزل (جابر) أرسل بصره إلى ما وراء الباب من خلال ثقب المفتاح..

الشارع هادئ وشبه فارغ في مثل هذا الوقت..

انتظر لحظات حتى تأكد تمامًا من عدم مرور أحد ثم فتح الباب وخرج..

سار بضع خطوات قبل أن يصطدم بخالته (وطنية) عائدة إلى المنزل..

لحسن الحظ افترضت أنه قد نزل لتوه.. سألته:

- رايح على فين كدا..؟

حاول أن يبتسم لها قائلًا:

- رايح اشتري الجرايد المسائية وراجع حالًا.

حاول أن يبدو هادئًا لكن شيئًا في نبرة صوته ألقى بعض القلق في صدر خالته.. قالت:

- متأكد..؟

- طبعًا.. يعني هكون رايح فين؟!

- على العموم متتأخرش عشان الجو بدأ يبرد.

- حاضر.

أدهشها رده الذي يمتلئ خنوعًا واستسلامًا على عكس عادته.

- بجد..؟

- ربع ساعة وراجع.

ثم أسرع الخطى وهو يعلم أن الحديث معها الآن سيفضحه، بعدما قرأ في عينيها ألف سؤالٍ وسؤال..

وصل إلى (كشك) الجرائد واشترى جريدة مسائية ومجلة شهرية

ثم عاد.. فكر أن يختصر طريق العودة من خلال زقاقٍ ضيق، لكن أفكاره بترت فجأة حين اصطدم بآخر شخصٍ يتمنى أن يلتقي به..

(جابر).. كان يعترض طريقه وينظر إليه بعينين واسعتين، تسبر الأغوار بسهولة وتخترق الروح.

- ازيك.

رسم على وجهه ابتسامة مصطنعة وهو يتجنب النظر له.

- أنا تمام.

قال (جابر) بخبث:

- وخالتك.. عامله إيه..؟

- كويسة.

- هي قالت لك انها جت لي زمان ومعاها (سعدية)..؟

- آه..

- بس طبعًا قالولك انهم مش فاكرين حاجة.

- دي بقى أكتر حاجة أنا مستغرب منها.

قال (جابر) بصوتٍ هادئٍ عميق:

- متستغربش.. فيه حاجات الأفضل انك تنساها.. لأن معرفتها بتكون خطر.. وخطر كبير جدًّا.

- برضه المعرفة بتكون كويسة.

نظر (جابر) إلى الجريدة التي في يد (محفوظ) ثم قال:

- أخبار الدنيا إيه دلوقتي..؟

- شكلها أمريكا هتضرب العراق.

- بنت كلب أمريكا دي.. محدش قادر عليها يا جدع.. تعرف ان أنا من زمان مقرأتش جرايد أو اتفرجت على التليفزيون.

سأله بفضول:

- ليه..؟

- عشان أنا عارف ان المصايب في الدنيا دي مبتجيش غير من حاجة واحدة بس.

- حاجة إيه دي..؟

ضحك (جابر) قائلًا:

- فكر شوية.. أنت عاوز كل حاجة كدا بالساهل.

قدح زناد عقله ثم أجاب بتردد:

- الفقر.

- لا.

- الطمع.

- لا.

وقبل أن يقول إجابة ثالثة، استطرد (جابر) بسرعة:

- الفضول.. الفضول هو سبب المصايب.. متسمعش المثل اللي بيقول إن الفضول قتل القطة.

- لا بصراحة مسمعش عن المثل ده.. بس بصفة عامة كلامك إلى حدٍّ ما مضبوط.

- وطبعًا أنت شخص مش فضولي.

- أكيد.

- سلام بقى ويا رب تكون فهمت.

قالها (جابر) ثم ربت على كتف (محفوظ) وانصرف بخطواتٍ واسعة وعباءته تتطاير خلفه..

تنفس (محفوظ) الصعداء وأكمل طريقه وهو يظن أن الأمور قد مرت بسلام..

الحقيقة أنها لم تمر بسلام كما توقع.. لقد مرت على أسوأ ما يكون..

دون أن يشعر كان (جابر) قد سلب منه شيئًا صغيرًا جدًّا.. شعرة واحدة أخذها من فوق كتفه..

ترى ماذا سيفعل بها..؟

يومها سألت نفسي هذا السؤال وأنا أراقب كل ما يحدث

بفضول..!

٦

بعد الظهيرة مباشرةً كان (خالد) يدخل إلى مبنى المجلة وهو غارق في العرق والغبار..

سيارته تعطلت في منتصف الطريق واضطر إلى البحث عن ميكانيكي بعد رحلةٍ شاقة بين (الورش) في منطقة الحرفيين.

- العربية محتاجة عمرة.

قالها له الميكانيكي وهو ينظر إلى محركها والزيت الذي يتسرب في أكثر من مكان.

- حاول تدورها بس.

- هتدور.. بس هتتعطل تاني.. أنا بقولك عشان متصرفش على الفاضي.

- اليومين دول أنا محتاجها، وبعدين خلينا نلم الليلة.

ضحك الميكانيكي قائلًا:

- مفيش فلوس ولا إيه..؟

ابتسم قائلًا:

- مستورة.

- بص.. أي فلوس هتدفعها دلوقتي كأنك بترميها في الأرض.. ممكن اعمل لك عمرة بس نص نص.. هنغير الحاجات الضرورية

والحاجات اللي ممكن نستتنى عليها هنسيبها.

- ماشي.. هتخلصها امتى.

- على نهاية الأسبوع ده تعال استلمها.

- اتفقنا.. بس مش هوصيك في الشغل.

- عنيا يا أستاذ.

بعد ساعتين كان (خالد) يركب سيارة أجره في طريقه إلى مقر عمله، وها هو الآن يجلس خلف مكتبه بعدما تبادل مع زملائه بعض كلمات الترحيب المعتادة.. لم يفته حين دخل نظرة الشك التي راح (سامح) يحدجه بها..

حاول استجماع شتات أفكاره ثم ارتشف أربعة أقداح من القهوة وراح يعد الرسومات تجهيزًا لتسليمها..

بعدما انتهى أرسلها إلى (سامح) ليراجعها حتى يتخير ما يناسبه ويضمه إلى مقالته..

كان يحاول أن ينسى كل ما حدث.. ثم كانت الفرصة حين دخل أحد الزملاء وقال:

- الرحلة السنوية اللي المجلة بتنظمها.. حد عاوز يشارك..؟

- أنا معاكم.

قالها (نوح) فاتجهت كل الأنظار نحوه في دهشة.. معروف عنه أنه يمقت الرحلات، في الحقيقة لم يكن يرغب في الذهاب لكن

شيئًا خفيًّا دفعه لذلك..

وهكذا وفي اليوم التالي كان يركب القطار ويجلس بجوار النافذة يتأمل الحقول الخضراء والهواء يداعب وجهه..

كان يشعر باسترخاءٍ حقيقي وقد زالت أجزاء كبيرة من مخاوفه.. بدا له أن كل ما حدث خلال وبعد جلسة التحضير، مجرد كابوس أو حلم ثقيل..

كانت الإقامة داخل قرية سياحية جديدة عبارة عن مجموعة من البيوت الصغيرة الموزعة على مسافاتٍ متباعدة..

الإقامة مريحة وجيدة جدًّا..

رغم أن مدة الرحلة يومان لكنه قرر أن يكمل الأسبوع على نفقته الخاصة..

في الليل كان يحب المشي في الشوارع حتى تئن قدماه، ثم يجلس على (كافتيريا) صغيرة تحمل اسم أحد لاعبي كرة القدم المعتزلين، ليتمكن من ارتشاف القهوة والتدخين ومراقبة المارة..

أوقات كثيرة كان يذهب إلى السينما لمشاهدة الأفلام الجديدة.. آخر مرة دخل فيها السينما كان إبان عرض فيلم (بخيت وعديلة).. لقد تغيرت الأمور كثيرًا عن السابق.. صار كل شيءٍ أكثر رفاهية ومتعة وأيضًا أكثر تكلفة..

وفي خضم كل ذلك حدث شيء ظن في البداية أنه أمر عابر قبل أن يدرك خطأ ظنه..

طرقات منتظمة على باب غرفته كل ليلة.. طرقات سريعة يعقبها طرقة ثم طرقتان..

أول ليلة سمع الطرقات فنهض من الفراش مشوشًا ليقول:

- مين..؟

ثم فتح الباب..

كان ضوء القمر يغمر الأفق بتلك المسحة الفضية الباردة.. لكن لا أحد..!

ثم في اليوم الثاني والثالث والرابع..

كل يوم الموقف نفسه يتكرر في الميعاد نفسه ودائمًا لا أحد..

صار الوضع غامضًا وأيضًا مخيفًا..

صبيحة اليوم السادس دخلت إلى غرفته.. فكرت كثيرًا في تلك الخطوة.. كنت أرغب في مساعدته..

كان هو من الغباء حيث اعتقد أنني أحد العاملين.. لم أرد أن أخيب ظنه.. تظاهرت أنني أقوم بجمع القمامة.. سألني:

- أنت جديد هنا..؟

ضحكت قائلًا:

- أنا أقدم واحد.

عاد يسأل باهتمام:

- أصل أول مرة أشوفك!

- النصيب.

- بس للأمانة حاسس اني قابلتك قبل كدا.. وشك مش غريب علي.

حاولت أن أبتسم قائلًا:

- يخلق من الشبه أربعين.

تردد قبل يقول:

- فيه حد من العمال بيجي هنا بالليل..؟

أجبت وقد فهمت إلى ما يرمي إليه:

- لا.

- متأكد..؟

قلت بثقة:

- أيوه متأكد.

ثم تظاهرت بالطيبة قائلًا:

- خير يا ابني..؟

تردد ثم قال:

- لا.. أبدًا.. مفيش حاجة.

نظرت في عينيه قائلًا:

- قول يمكن أساعد.

حكى لي موضوع الطرقات الغامضة على الباب.. كان متوترًا وهو يحكي.. شعرت أيضًا بالخوف في نبرة صوته.. لم يكن هو (خالد) الذي أعرفه.. قلت:

- ربنا معاك.

حاول أن يبتسم قائلًا:

- مالك بتقولها كدا.. هو أنا ممسوس..؟

قلت في كياسة:

- أنت كويس.

سأل:

- طيب إيه اللي بيحصل لي..؟

- خليك شجاع.

- هتقول إن ده أوهام.. صح..؟

- لا.

خيم الصمت علينا.. ثم قال:

- يعني أنت مصدقني..؟

أومأت برأسي ثم قلت:

- بص، بكره لما تسمع الخبط مرة تانية، افتح الباب ومتردش.

اندهش قائلًا:

- أفتح ومردش ازاي يعني..؟

وضحت له قائلًا:

- أول لما تسمع الخبط قوم من مكانك ومتتكلمش.. وروح على الباب وافتحه علطول.. ومتذكرش اسم ربنا.. لا بصوت عالي ولا في سرك.

ضيق عينيه وهو يسأل:

- ولو معملتش كدا..؟

اقتربت منه قائلًا:

- هيفضل الخبط على بابك طول العمر.

قال في حيرةٍ مدمرة:

- طيب مين اللي بيخبط..؟

اتجهت نحو باب الخروج قائلًا:

- لو كنت اعرف كنت قلت لك.. هو ده اللي ورثته عن جدودي.. فيه حاجة من تحت الأرض بتخبط عليك كل يوم.

***

رغم مرور أسبوع منذ آخر لقاءٍ بين (محفوظ) و(جابر) لكن لم يحدث شيء يستدعي الذكر اللهم إلا مشاجرة حدثت بين (جابر) وبين الحاج (صابر) الذي يسكن في الشارع نفسه..

يومها كان (محفوظ) يقف خلف نافذة غرفته وشاهد الحاج (صابر) يخرج بـ (البشكير) إلى الشرفة، ثم يصفع زوجته صفعة هائلة قبل أن يصرخ:

- أنا يتعمل فيا كدا؟!

صاحت الزوجة وهي تقاوم البكاء وتحاول تهدئته:

- أنا هفهمك كل حاجة يا خويا.. وحياة النبي ما تزعل مني.

- لازم اخلي الكلب (جابر) يتوب عن المهنة دي.

ثم صفعها صفعة ثانية جعلتها تسقط أرضًا من فرط قوتها وانصرف عنها..

تحاملت زوجته على نفسها وهرعت خلفه.. ابتعدا الاثنان عن مجال رؤية (محفوظ) لكنه استطاع أن يسمع سيلًا من التوسلات يفيض من الزوجة.

- أبوس أيدك يا اخويا.. أنا غلطانة.

- بقولك ابعدي.

تمر الدقائق ثم يظهر الحاج (صابر) في الشارع وقد ارتدى (روب) بدلًا من (البشكير) ويمسك بيده ساطورًا صغيرًا.

- أنت فين يا (جابر)..؟

وكأن (جابر) كان في انتظاره إذ لم تمضِ سوى ثوانٍ معدودات حتى خرج من باب منزله جامد الملامح يعقد يديه على صدره.. أجاب:

- عاوز إيه..؟

جاء في تلك اللحظة (سيد) الأخ الأصغر للحاج (صابر).. كان الهلع باديًا على وجهه وهو يشاهد أخاه على تلك الحالة.. حاول أن يمنعه قائلًا:

- اهدا بس يا حاج.

صرخ الحاج (صابر):

- ابعد أنت كمان.

ثم أمسك بتلابيب (جابر) بقسوةٍ ودفعه أمامه إلى الحائط وهو يلوح بساطوره استعدادًا للضرب.

- لازم اخلص عليه.

كل من كان حاضرًا في هذا الوقت لم يستطع تصديق ما حدث بعد ذلك.. لقد توقفت يد الحاج (صابر) في الهواء كأنما تجمدت وظهر الألم على وجهه..

حاول الحاج (صابر) تحريك يده.. برزت عروق عنقه وتضخمت حتى كادت أن تنفجر.. صرخ:

- أنت عملت في إيه..؟

استمر الوضع مدة من الزمن و(جابر) ينظر له بعينين حمراوين يقطر منهما الشر دون أن يرد..

تجمع الكثير من الأهالي يشاهدون ما يحدث.. لم يجرؤ أحد على التدخل.. كانوا يشعرون بخوفٍ عجيب..

بدأ الحاج (صابر) يجثو على الأرض كأن قوة خفية تجبره على ذلك ودبت رعشة هائلة في كل أوصاله..

أخيرًا قال (جابر):

- أنا مش عاوز أؤذيك.

غمغم الحاج (صابر) وهو يكاد أن يبكي:

- والسحر اللي عملته لي..؟

قال (جابر) بنفور:

- اسأل مراتك.

انتبه (محفوظ) إلى أن (ضياء) يقف فوق سطح المنزل يراقب كل ما يحدث.. تلاقت عيونهما.. لم يستطع (محفوظ) أن يستشف من ملامح (ضياء) أي شيء.. ملامحه كانت كما يقال.. بلا تعبير..!

- قوم ارجع بيتك.

قالها (جابر) وهو يحرك ذراعه، فشهق الحاج (صابر) وقد تم فك

القيد الخفي الذي كان يربطه.. لم ينبس ببنت شفة بعدها.. استدار عائدًا إلى زوجته.. لم يجرؤ على النظر في وجهها وقد انكسر تمامًا.

أشاح (جابر) بيده لكل الواقفين وصرخ غاضبًا وقد انقلبت ملامحه بشكلٍ مرعب:

- يلا كله يمشي من هنا.. المولد انفض.

وفي لحظة صار الشارع خاليًا وقد تبخر الجميع، اتجه إليه (سيد) وقال بصوتٍ منكسر:

- سامحه يا عم (جابر).

قال (جابر) بقسوة:

- اللي بيسامح ربنا.

مر اليوم دون أن ينقطع ذكر ما حدث بين الأهالي وقد انتشر الكلام انتشار النار في الهشيم..

في اليوم التالي فوجئ (محفوظ) بصافرات سيارات الشرطة والإسعاف تدخل المنطقة في السادسة صباحًا..

(محفوظ) لم ينم في تلك الليلة.. قضى كل الليل ما بين كتب المذاكرة أو الوقوف خلف النافذة يراقب منزل (جابر)..

أصوات الصافرات جعلته يسارع بالنزول وقد تملكه قدر هائل من الفضول والدهشة..

شاهد رجال الشرطة وهم يقتحمون منزل الحاج (صابر) ومن خلفه رجال الإسعاف..

بدأ الجيران يتجمعون حول المنزل وهم يتهامسون فيما بينهم.. لا أحد يعلم ما الذي حدث.. بعض الكلمات الطائرة وصلت إلى أذن (محفوظ) مثل:

- هو فيه حد يقف في وش (جابر)!

- ربنا يستر.

غاب رجال الشرطة قليلًا ثم ظهر الحاج (صابر) مكبلًا بالأغلال الحديدية، كما أن وجهه شاحب، لا توجد به حياة أو روح، بينما يقتاده أمين شرطة في استسلام..

بعد قليلٍ نزل رجال الإسعاف وهم يحملون المحفة الطبية وفوقها زوجة الحاج (صابر) مغمى عليها وقد تورم وجهها وتكسرت أسنانها..!

وعلى مدار يومين بعد ذلك انتشرت الشائعات.. كان يشار فيها إلى أن (جابر) هو السبب، لكن لم يكن يجرؤ أحد على النطق باسمه..

تفاصيل ما حدث كانت بشعة.. الشهود من الجيران قالوا أنهم سمعوا صوت ضربات ثقيلة قادمة من منزل الحاج (صابر) أعقبتها صرخات وضحكات..

أحد الجيران اتصل بالشرطة والتي جاءت واقتحمت المكان.. اكتشفوا الزوجة غارقة في دمائها وهي في حالةٍ حرجة بين

الحياة والموت.. كانت مقيدة بالحبال، وعلى ما يبدو كان الحاج (صابر) ينوي قتلها لولا وصول رجال الشرطة..

تم التحفظ على سلاح الجريمة.. مطرقة حديدية ما زال عليها آثار الدم..

استمرت تلك الحادثة هي محور أحاديث أهل البلد... قرر (محفوظ) أن يذهب ليلتقي بالحاج (صابر).. استطاع أن يحصل على إذن بالزيارة.. كان مهتمًّا بمعرفة ما حدث، وفي الوقت نفسه كان يرغب في كتابة تحقيقٍ صحفي..

وهكذا في التاسعة صباحًا كان يدخل قسم الشرطة ثم يجلس في غرفةٍ صغيرة ينتظر قدوم الحاج (صابر)...

كانت الغرفة المعدة للزيارة صغيرة، تحتوي على طاولة، ومقعدين ولوحة ضخمة فوقها صورة رئيس الجمهورية، يبتسم في تواضعٍ مصطنع..

أخرج (محفوظ) مفكرةً صغيرة، وقلمًا جافًّا أسود اللون، ووضعهما على الطاولة، ثم تنفس في عمقٍ وهو ينظر إلى الباب المغلق..

بعد قليل تعالى صوت خطوات تقترب..

اعتدل في مقعده وقد راح قلبه يخفق بقوةٍ وتوتر..

تحرك الباب إلى الداخل، ثم ظهر الحاج (صابر) يرتدي جلبابًا فضفاضًا وقد زاغت عيناه.. اقترب من (محفوظ) بخطواتٍ بطيئة ثقيلة.

- ازيك يا عم (صابر).

هز الحاج (صابر) رأسه إشارة منه أنه بخير، دون أن يرد.

- اتفضل اقعد.

قالها (محفوظ) وهو يفكر كيف يبدأ الحديث، ارتمى الحاج (صابر) على المقعد، وعيناه ضائعتان في عالمٍ آخر.

- ممكن اعرف إيه اللي حصل بالضبط، كنت عاوز تقتل مراتك ليه..؟

لم يجبه الحاج (صابر).. استمر في صمته.

- أنا مش جاي أحقق معاك، أنا جاي عاوز اعرف الحقيقة.

- الحقيقة اني معملتش حاجة.

ببعض الصبر قال (محفوظ):

- بس كل الشواهد بتدل انك اللي عملت كدا.

- أنا فعلًا عملت كدا ومعملتش.

- طيب فهمني وبالراحة.

- أصلك مش هتصدق، فمفيش داعي اتعب نفسي معاك.

- هصدق والنعمة.

- اشمعنا..؟

- لأن عينك مش عين مجرم.. أنا شفتك في الخناقة مع مراتك و(جابر).. أنت كنت متنرفز لكنك مكنتش عاوز تأذي حد.. كنت عاوز تعمل كارت إرهاب وتثبت حاجة قدام مراتك.

أطرق الحاج (صابر) برأسه ثم قال:

- الموضوع بدأ لما لقيت مراتي حاطه حجاب تحت المخدة.. عرفت انه عمل معمول عند (جابر).. كانت خايفة أتجوز عليها عشان مش بتخلف.

- وبعدين.

- بعد اللي حصل بيني وبين (جابر) طلعت البيت، واتصالحت أنا وهي.. مكنش فيه أي حاجة.. لكن بالليل لما نمت حلمت حلم غريب قوي.. حلمت اني عمال اضربها بالشاكوش.. ولما صحيت من الحلم لقيت كل حاجة حصلت بجد.

تهدج صوته حين بلغ تلك النقطة.. ناوله (محفوظ) كوب ماءٍ من جواره..

بأصابع مرتعشة تجرع الحاج (صابر) جرعة صغيرة في حين سأله (محفوظ):

- يعني أنت مكنتش في وعيك؟!

تنهد الحاج (صابر) قائلًا:

- بقولك أنا كنت نايم أصلًا.. كنت بحلم.. مفيش غير (جابر).. هو اللي سلط عليا عفريت من عفاريته.. ابعد عنه.. اسمع كلامي.

أدرك (محفوظ) أن (جابر) شيطان حقيقي.. عليه الآن أن يعود أدراجه ويفكر كيف يتصرف.

***

جلس (خالد) يفكر فيما سيحدث تلك الليلة في حالة اتباع تعليماتي..

الآن يسأل نفسه؛ كيف وافق على الاشتراك في الرحلة ثم كيف قام بمد إقامته؟

للمرة الأولى يعتقد أن كل ما يحدث ليس من قبيل الصدفة وأن هناك من يتحكم به.. هناك من يقوده إلى تلك اللحظة..

أعاد التفكير في لقائنا.. يسأل نفسه؛ كيف يتسنى لي أن أعرف تلك المعلومة ولماذا بدوت مهتمًّا به هكذا..؟

شعر بحيرةٍ غير عادية.. من آنٍ لآخر كان يشعل سيجارة يحرق بها صدره.. كل أبواب ونوافذ المكان مغلقة رغم حرارة الجو.. المروحة تدور ببطءٍ وتصدر صوتًا أشبه بركلات القدم.. يوشك الليل أن ينتصف ولم يحدث شيء بعد..

فجأة سمع دقات على الباب.. دقات متقطعة.. اقتحمت تلك الدقات خلايا جسده..

تريث قليلًا ثم اقترب من الباب بحذرٍ وهو يصغي السمع.. توقفت الدقات بغتة..!

وضع يده على المقبض واستجمع كل شجاعته.. ما الذي يقبع

خلفه يا ترى..؟

أدار المقبض وسحب الباب.. أمامه مباشرةً امرأة تتشح بالأسود، كان وجهها جامدًا خاليًا من المشاعر.. كما أن عينيها بيضاوان مائعتان..

دون كلمةٍ واحدة استدارت ومشت إلى الأمام..

خرج وراءها..

في الخارج كانت الريح تصدر صوتًا يشبه النواح الكئيب.. المرأة تسير بسرعة دون أن تترك أثرًا على الرمال.. تبدو كأنها تطفو، قدماها لا تلامسان الأرض..

انحرفت تجاه طريق غير ممهد تحفه أشجار ضخمة وتتهدل أغصانها على الأرض..

كان يعلم إلى ما ينتهي إليه هذا الطريق.. منطقة المقابر الكبرى التي لاحت شواهد قبورها الكئيبة والتي يخيم عليها صمت وحزن هائلان..

لم يستطع منع تلك الارتجافة الباردة التي سرت في فقرات ظهره..

دخلت المرأة إلى المقابر فابتلعتها الجدران المتآكلة.. أسرع خلفها حتى لا تغيب عن نظره..

معظم المقابر كانت بالية بفعل عوامل التعرية يتخللها بعض الأشجار التي تبدو مريعة في مثل هذا الوقت..

ضوء القمر كان يفترش كل شيءٍ ويضفي على المكان تأثيرًا شبيهًا بالأحلام..

بصعوبةٍ قاوم (خالد) رغبته الجامحة في العودة والفرار من هنا.

- تعال ورايا.

هل تحدثت المرأة أم أن أذنيه تخدعانه؟!.. لم يدر حقًّا.. أحيانًا الإيحاء يكون له تأثير السحر في مثل تلك المواقف.. لا سبيل أمامه سوى أن يكمل.. يجب عليه أن يصل إلى نهاية هذا الشيء وإلا صارت حياته جحيمًا.. كاد أن يرد عليها ويبادلها الحوار لكنه تذكر كلامي:

- افتح الباب ومتردش.

الرياح تغير صوتها، فصارت تشبه همس الشياطين في الأذن..

استمر في سيره خلف المرأة داخل ممرات ضيقة متشعبة تشبه المتاهات..

وأخيرًا توقفت أمام قبر.. قبر عادي لا يختلف عن غيره في شيء.. ربما أكثر ارتفاعًا قليلًا عما حوله لكن لا شيء مميز به..!

فجأة تفتت جسد المرأة وانتهى مثل عمودٍ ساقط من الملح ولم يعد لها أثر..

تلفت (خالد) حول نفسه.. لا يدري ماذا يفعل.. لمس القبر بيدٍ حذرة.. سمع من ورائه صوت أقدام تقترب.. شاهد (توفيق)(**) يسرع الخطى تجاهه.. كانت هذه أول مره يراه لكنه خمن أنه

(تربي) المقابر..

قال (توفيق):

- الجبانة بالليل بتبقى سكن ليهم مش لينا.

حاول (خالد) أن يبتسم وهو يعلم أنه يحاول إخافته.. قال:

- طيب.

- أنا (توفيق).. التربي والمسؤول عن كل الميتين دول.

- تشرفنا.

أشار (توفيق) إلى القبر قائلًا:

- قريبك..؟

- آه.

قالها باقتضابٍ شديد ثم رفع كفيه إلى السماء وقرأ الفاتحة بصوتٍ مرتفع، وهو يرغب أن يتركه (توفيق) وشأنه..

حين انتهى دوى صوت فرقعة جاءت من بعيد.. ابتسم (توفيق) ثم لوح بيده اليسرى كأنه يقوم بتحية شخصٍ خفي قائلًا:

- السلام عليكم.

سأله:

- أنت بتسلم على مين..؟ هو فيه حد هنا غيرنا..؟

- مش مهم تعرف.. قولي بقى اسم قريبك إيه..؟

اختلس نظرة سريعة نحو شاهد القبر.. قال (توفيق) بخبث:

- مش هتلاقي الاسم مكتوب على الشاهد.

- أنت تعرفه.

- ما تتكلم معايا بصراحة.. أنت مين وعاوز إيه من القبر ده..؟

- هقولك كل حاجة.. بس عاوز اعرف مين اللي مدفون هنا..؟

- وافرض جاوبتك.. هستفيد أنا إيه..؟

مد (خالد) يده في جيبه وأخرج رزمة نقود لا يعرف عددها وناولها له ثم قال:

- كدا كويس.

تفحص (توفيق) النقود بنظرة سريعة ثم ارتسمت ابتسامة جشعة على وجهه قبل أن يقول:

- حاليًّا كويس.

- جميل.. أنت تعرف مين اللي مدفون في القبر ده..؟

- عارف طبعًا.. شاب غلبان ميت من حوالي ٢٠ سنة.

- مات ازاي..؟

- دي حاجة في علم الغيب.. أنا كل اللي بعمله اني ادفن الجثة واحط الرمل في عينيها واخرج.

في تلك اللحظة ظهرت (خديجة).. صارت الآن زوجة (توفيق) بعدما مات زوجها.. أصبحت أكثر نحولًا وازداد شحوب وجهها.. بشرتها جافة مثل قطعة أرضٍ وسط الصحراء.. كانت تلبس الأسود وتضع على شعرها (إيشارب) باللون نفسه.. سألها (توفيق):

- جايه ليه..؟

- لقيتك اتأخرت قلت اجي أشوفك.

ابتسم (توفيق) قائلًا:

- الباشا عطلني شوية.

ثم سأل (خالد):

- ما تقول حكايتك إيه..؟

قالت (خديجة) بصوتٍ منكسر:

- قول يا ابني.

قص لهما (خالد) رؤياه باختصارٍ شديد وكيف انتهى به المطاف هنا.. سأله (توفيق) باهتمام:

- الراجل اللي أنت قابلته ونصحك، تقدر توصفه لنا..؟

حاول (خالد) أن يتذكر ملامحي لكنه عجز.. قدح زناد أفكاره مرات ومرات بلا فائدة.. كلما ارتسم جزء من وجهي في مخيلته تلاشى بسرعة..

هتف (توفيق):

- مش هتعرف تفتكر ملامحه.

غمغمت (خديجة):

- ده نفس الراجل اللي دلنا أنا وجوزي (جمال) من كام سنة.

سألهما (خالد):

- وده يطلع مين..؟

جلس (توفيق) فوق أحد القبور وهز كلتا ساقيه كأنه طفل صغير يلعب ثم قال:

- إحنا بنقول عليه عبد من عبيد ربنا.. بس بيني وبينك أنا شاكك انه المسيخ الدجال.

عقد (خالد) حاجبيه حتى كادا أن يختلطا ببعضهما البعض ثم قال:

- المسيخ الدجال..!

قالت (خديجة):

- مفيش غيره.

هتف (خالد):

- بس المفروض إن المسيخ الدجال بيظهر في آخر الزمان.. وبيبقى مكتوب على جبينه (كافر).. وأنا متأكد إن مشفتش الكلمة

دي على جبينه.. أنا متأكد.

ضحك (توفيق) قائلًا:

- أصل الكلمة دي مش بيشوفها غير المؤمن.

ابتلع (خالد) اعتراضه داخل فمه، في حين عاد (توفيق) يقول:

- خلينا في المهم.. يلا خد نفسك وروح من هنا.

- لسه حاجة أخيرة عاوز اعملها.. وكله بتمنه.. متقلقش هدفع ليك كويس قوي.

- حاجة إيه دي..؟

- نفتح المقبرة طبعًا.. عاوز أشوف إيه اللي فيها.

- شوية عضم دايبين.. ده كل اللي هتشوفه.

نقده (خالد) مبلغًا آخر وهو يقول:

- زي ما قلت لك.. كله بتمنه.

تناول (توفيق) معولًا وبدأ في هدم الباب..

(خالد) يفكر.. ما معنى أن يصل إلى تلك المقبرة بالذات وما السر الذي تخفيه..؟

خرج من تفكيره على صوت (توفيق):

- المقبرة اتفتحت.

نظر إلى الداخل..

عظام..

عظام مفتتة تمتلئ بها المقبرة..

في آخر المقبرة يوجد جثمان ملفوف داخل كفنٍ بالٍ.. الغريب أن الجثمان كان بحالةٍ جيدة تمامًا كأنما لم تمضِ سوى بضع سويعات على دفنه وليس عشرون عامًا.. الحل هناك عند تلك الجثة.

سأله (توفيق):

- هه.. هتعمل إيه..؟

أجابه بعد تفكير:

- أنت قلت انك عارف اسم الميت الموجود.

أشار (توفيق) نحو ظهر القبر قائلًا:

- الاسم مكتوب هناك.

اتجه (خالد) حيث أشار (توفيق) كانت هناك منطقة تشابكت فوقها أعشاب ونباتات شيطانية..

راح يزيح الأعشاب بصعوبة.. أصيبت أصابعه بخدوشٍ نتيجة بعض الأشواك التي كانت تخرج من بينها.. بعد أن انتهى ظهرت كتابة محفورة فوق الجدار الخلفي للقبر.

كل من عليها فان

فقيد الشباب

(محفوظ أيوب)

تاريخ الوفاة

٢٥/٤/١٩٩٩

(**) راجع الفصل ١

٧

١٨/٤/١٩٩٩

أسبوع قبل التاريخ المكتوب على القبر.

كانت الأمور تزداد سوءًا كل يوم بالنسبة إلى (محفوظ).. طيلة الوقت يشعر أن هناك من يراقبه.. يشعر بوجود أشخاصٍ خفيين حوله..

كان يقف وراء نافذة غرفته.. الظلام في الخارج يحول زجاج النافذة إلى مرآة غير واضحة المعالم، فوقها انعكس نصف وجهه.. شعر أن الوقت يمتد إلى ما لا نهاية..

خالته (وطنية) أخبرته أنها ستمر على منزل (سعدية) لزيارتها بعدما تغلق المحل..

بعد قليل رن جرس هاتف المنزل فاتجه إليه بخطواتٍ حثيثة.. سمع خالته تصرخ من الطرف الآخر:

- (محفوظ).. تعال بسرعة.

قال مضطربًا:

- خير..؟

- (سعدية) مغمى عليها ومش عارفه أتصرف.

- أنا جاي حالًا.

ارتدى ملابسه بسرعة ثم هرع إلى هناك وقلبه ينبض بعنفٍ وخوفٍ وتوتر...

حين وصل إلى منزل (سعدية) كانت هذه الأخيرة مسجاة على الأرض بلا حراك وفوق منها خالته منهارة وقد تكسرت أعصابها وأوشكت على الموت.. قال وهو ينحني على (سعدية) ليفحص نبضها:

- متتقلقيش.. النبض ضعيف لكنه موجود.

قالت (وطنية):

- كنا قاعدين سوا بنتكلم عادي وفجأة وقعت على الأرض.

سألها:

- طيب في دكتور هنا أروح أجيبه.

- مفيش غير دكتور الوحدة.

- طيب متخافيش.. كل شيء.. هيبقي كويس.

- روح وقف حنطور بسرعة.

نزل من المنزل وبحث بسرعة عن (حنطور) حتى عثر على واحد ثم عاد وتعاون مع خالته على وضع (سعدية) داخل (الحنطور)..

سار الركب بما يحمل يخترق الشوارع ليلًا وقد خلت تمامًا من أعمدة الإنارة..

لسوء الحظ لم تكن هناك أعمدة إنارة إلا في الطريق العمومي

الذي يقود إلى المركز..

وصلوا إلى الوحدة الصحية التي كانت أنوارها مطفأة فبدت شبح أطلال مهجورة..

طـرق (محفـوظ) بـاب الوحـدة عدة طرقات حتى جاءه صوت غليظ من وراء الباب:

- مين..؟

- معانا مريضة مغمى عليها.. افتح الباب.

قال صاحب الصوت:

- خدها وروح للدكتور.

- ما أنا جاي للدكتور.

- الدكتور بتاعنا مبينزلش بالليل.. بيخاف.

طرق (محفوظ) الباب من جديد وهو يصيح:

- يا عم افتح.. بقولك معانا واحدة مغمى عليها وممكن تموت.

قالت (وطنية) وهي تركل الباب بقدميها:

- افتح يا بني آدم.

- مين..؟

- أنا (وطنية).

مضت لحظات ثم تحرك الباب وظهر خفير عجوز ما زال النوم يعبث بروحه.. قال:

- خير.

أشارت (وطنية) إلى (سعدية) التي ترقد داخل (الحنطور):

- وقعت على الأرض ومش عارفة إيه اللي حصل لها.

- طيب.. ادخلوا.

أشار لهما ناحية غرفة الكشف ثم صعد إلى غرفة الطبيب كي يوقظه..

مضى عشر دقائق حتى جاء طبيب الوحدة.. طبيب شاب حديث التخرج يبدو كورقة شجرٍ في فصل الخريف.. كان يرتجف.. يريد أن ينهي تكليفه ويعود إلى أهله.. اقترب من (سعدية) بحذرٍ وهو يسأل:

- حصل لها إيه..؟

أجابت (وطنية):

- أبدًا كانت قاعدة معايا بنتكلم وبعدين وقعت.

مد الدكتور يده وراح يفحصها باهتمامٍ قبل أن يقول:

- حالة غيبوبة سكر.

ثم فتح أحد الأدراج وملأ محقنًا ثم أدخله في وريدها قائلًا:

- كويس انكم جبتوها هنا بسرعة.

تحولت غرفة الكشف بعد ذلك إلى فيلم صامت.. (سعدية) على سرير الكشف ومن حولها (محفوظ) و(وطنية) والطبيب.. كانت الدقائق تمر ببطء.. ومع طلوع الفجر فتحت عينيها ببطءٍ ووهن، هتفت (وطنية):

- يخرب بيتك.. خضتيني عليكي.

غمغمت (سعدية) بضعف:

- ومين قالك اني لسه عاوزة اعيش.

(وطنية):

- بقولك إيه.. انتي عمرك طويل.

(محفوظ) سأل الطبيب:

- ناخذها ونروح دلوقتي..؟

أجاب الطبيب:

- الأفضل تقعد هنا لغاية الصبح، بحيث لو حصل حاجة أكون جنبها.

نادت (سعدية) (محفوظ):

- (محفوظ).. تعال.

- أيوه.

أمسكت يده قائلة:

- أنا خايفة عليك.

نظر لها قائلًا:

- ليه بتقولي كدا..؟

- حلمت حلم وحش وانت كنت فيه.

- حلم..!

صاحت (وطنية):

- بلاش تخوفيه.. هو مرعوب جاهز.

(محفوظ) سأل (سعدية):

- الحلم كان عن إيه..؟

ابتسمت (سعدية) ابتسامة شاحبة ولم ترد عليه.

***

كان على (خالد) البحث عن مساعدة.. صار لديه يقين أنه وصل إلى طريقٍ مسدود..

قرر اللجوء إلى صديقه (عمرو).. ضابط في البحث الجنائي يقضي جل وقته إما في قسم الشرطة أو داخل مسرح جريمة يحقق فيها.. كان يعيش وحيدًا مثله.. لا يؤنس وحدته سوى بعض الزيارات المتقطعة من أخته المتزوجة.. كان أهلًا للثقة

ويدين له ببعض المعروف.. اتصل به وشرح له موضوع المقبرة وكيف أنه عثر على جثة تبدو كأنها دفنت حديثًا.. كان الحديث مضطربًا لكنه ضروريًا، أصاب (عمرو) بالدهشة، فسأله عما إذا كان جادًا فيما يقول.. أقسم له أنه صادق في كل كلمة.. وعده أنه سيبحث في الأمر.. وهكذا بعد مرور يومين كان (خالد) يدخل إلى مكتب (عمرو) في قسم الشرطة واضعًا على عينيه نظارة سوداء تخفي هالات عينيه.

- عمرو باشا.. اتمنى مبقاش مزعج كالعادة.

- من ناحية الإزعاج انت أكيد مزعج.

ثم رحب به ودعاه للجلوس قائلًا:

- اتفضل اقعد، أخبارك وأخبار الشغل..؟

- كله زي الفل وتمام.

- تشرب إيه..؟

- مش ضروري.

- لا.. لازم.. أنت ضيف عندنا يا راجل.

- ماشي.. يبقى شاي بالنعناع.

ضغط (عمرو) زرًا بجانب مكتبه، فلم تمضِ غير لحظات قليلة حتى دخل عسكري قائلًا:

- أفندم.

- اتنين شاي بالنعناع لو سمحت.

ثم التفت إلى (خالد) واستطرد:

- طبعًا أنت جاي بخصوص الجثة اللي فتحت عليها القبر.

- طبعًا.

قال (عمرو) وهو يطفئ سيجارته داخل منفضة زجاجية أمامه:

- في الواقع أنت عملت جريمة تستحق عليها السجن.

سكت (خالد) ولم يعقب على كلامه.. عاد (عمرو) يقول:

- بص أنا فتحت تحقيق في الموضوع ده.. بس كل حاجة غير رسمية.. على العموم كل اللي قدرت أوصل ليه إن (محفوظ) مات نتيجة سكتة قلبية.. الكلام ده موجود في شهادة وفاته الرسمية.

- بس المفروض إن (محفوظ) ده شاب.

- لا عـادي.. بتحصـل.. أحيـانًا بسـبب الضـغوط العصبية وأحيـانًا بسبب قصور في عضلة القلب وهو بيكون مهمل في صحته.

- أنا حاسس إن فيه حاجة غلط.

- هو فعلًا فيه حاجة غلط..

-...

الجثة اللي أنت لقتها دي مش جثة (محفوظ).. تحليل ال DNA أثبت ده

- جثة مين..؟

قبل أن يرد (عمرو) دخل العسكري بعدما طرق طرقة خفيفة على الباب ثم وضع كوبين من الشاي أمامهما وانصرف.

- اشرب شايك.

ارتشف (خالد) رشفة صغيرة ثم عاد يكرر سؤاله:

- جثة مين..؟

أشعل (عمرو) سيجارة جديدة قائلًا:

- لسه منعرفش.. بعد فحص سريع عليها اكتشفنا انها لشخص اتقتل بضربة شقت نص دماغه.. صعب انك تشق جمجمة إنسان.

- يعني كدا فيه لغزين في الموضوع.. لغز قبر (محفوظ).. ولغز الجثة المجهولة اللي لقناها هناك.

ابتسم (عمرو) قائلًا:

- مضبوط جدًّا.

- ده بخلاف انك لقيت الجثة على حالتها وكأنها لسه مدفونة امبارح، ده طبعًا شيء غريب جدًّا، وعشان كدا أنا خدت إذن من النيابة بفتح تحقيق في الجريمة دي.

- طيب جميل.. أنا هحاول برضه أدور في موضوع (محفوظ).. مفيش معلومات قدرت توصلها عنه..؟

- خالته وأبوه ميتين.. حققنا مع عمه لما كنا بناخد منه عينة DNA

لكن موصلناش منه لحاجة، بس في واحدة اسمها (سعدية).. اسمها اتذكر أكتر من مرة.. المفروض انها لسه عايشة.

- مكانها..؟ مكانها فين..؟

- للأسف مفيش عنوان محدد لها.

وقبل أن يبدي (خالد) خيبته أسرع (عمرو) يقول:

- إحنا نقدر نوصل لحد ممكن يوصلنا لها.. بنت أختها.. اسمها (رضوى).

- ودي أوصل لها ازاي..؟

انتزع (عمرو) ورقة من مفكرةٍ صغيرة أمامه وكتب فيها الاسم والعنوان ثم أعطاها إلى (خالد) قائلًا:

- هتلاقيها هنا.. عاوز أقولك إن الموضوع كله تحت مسؤوليتي الشخصية... يعني ربنا يستر ومخدش رفد من الشغل.

- لا متقلقش.. هحاول على أد ما اقدر أبقى دقيق في كل حاجة ومحدش ياخد خبر عن الموضوع.

- يا ريت.. والمهم بلاش تجيب سيرتي لأي حد.

عاد (خالد) يسأله:

- الجثة فين دلوقتي؟

- موجودة في المشرحة في انتظار التقرير النهائي للطب الشرعي.

- طيب ينفع ابص عليها بصة تانية، عاوز أتكلم شوية مع الدكتور اللي طلع التقرير، يمكن اقدر أوصل لحاجة.

رمقه (عمرو) باستنكار قائلًا:

- صعب الكلام ده.

ابتسم قائلًا:

- (عمرو) باشا.. مفيش حاجة صعبة عليك.

***

ظلت (وطنية) تلازم (سعدية) ليلًا ونهارًا بعدما تم نقلها إلى مستشفى خاصة في المركز..

من حينٍ لآخر كان (محفوظ) يزورها..

في هذا اليوم توجه إلى زيارتها وقضى معها ساعة كاملة.. كانت حالتها قد بدأت في التحسن.. الطبيب الذي يشرف عليها قال أنها قد تعود إلى المنزل في خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر..

- الورد ده مين اللي جابه ليكي.. اوعي تكوني بتعرفي راجل تاني من ورايا.

سألها (محفوظ) وهو يمزح معها، قالت ضاحكة:

- بنت أختي (رضوى) جت تزورني النهارده ومشت في نفس اليوم.

- آه.. (رضوى).. هي مش كانت عندك من مدة..؟

- مضبوط.. الوحيدة اللي لسه عندها الخير.. أمها نفسها كل اللي عملته انها اتصلت بي وخلاص.

- متزعليش.

حاولت أن تخفي حزنها قائلة:

- أنا مش زعلانة.. مين قالك اني زعلانة؟

أراد أن يذهب بالحديث إلى اتجاهٍ آخر، فقال:

- حلوة (رضوى)؟

- قمر.. ما تيجي اجوزها ليك يا حمار.

ضحك قائلًا:

- طيب اشوفها الأول.

قالت بجدية:

- الأسبوع الجاي هتيجي تزورني تاني.. هبقى أخليك تشوفها بس يا ريت تعجبها، أصلك قفل.

- انتي متعرفيش اني دنجوان الجامعة.

- طيب اسكت بدل ما نتسخط قرود بسبب كذبك.

ضحك قائلًا:

- ماشي.

سألته:

- خالتك فين النهارده..؟

- هي كمان تعبانة.. مش قادرة تقوم من على السرير.

قالت (سعدية) بأسف:

- يا حبيبتي.. تعبت معايا الكام يوم اللي فاتوا.

ثم حاولت النهوض..

صاح وهو يحاول منعها:

- إيه ده.. مينفعش تتحركي من على السرير.

نهرته قائلة:

- اسكت.. عاوزة اروح اشوفها.

- طيب استريحي وهي هتيجي ليكي بكره.

- أنت مش بتقول تعبانة.

- آه.. هي تعبانة.. بس هتستريح النهارده وبكره هتبقى كويسة.. اقعدي بقى مش ناقصين صداع.

ضربته بالوسادة التي بجانبها قائلة:

- أنا صداع يا قفل.

أعادها إلى الفراش قائلًا:

- انتي كدا خفيتي ما دام بقيتي تضربي.

- خمسة وخميسة في عينك.

- ماشي يا ستي.. على العموم أنا هسيبك دلوقتي وبكره هاجي ومعايا خالتي.. عاوزة مني حاجة؟

- ابقى هات معاك كليو حلويات بسبوسة على هريسة بلاش الورد المعفن اللي أنت جايبه النهارده.

- حاضر.. يا رب بقى تقومي عشان أنا تعبت منك.

خرج من المستشفى وفي طريق عودته كان مضطرًّا إلى المرور بالقرب من محطة القطارات.. كانت المحطة تقريبًا شبه فارغة في مثل هذا التوقيت الخالي من المسافرين.. فجأة شعر بحركةٍ على يساره جعلت الدماء تتجمد في عروقه.. التفت فلم يشاهد أحدًا.. كان هناك باب يقود إلى غرفة عامل المزلقان.. الباب مفتوح لكن الظلام يسود في الداخل.. اقترب من الباب ليبرهن لنفسه أنه لا يوجد شيء.. دخل إلى الغرفة.. مد يده يتحسس الحائط بحثًا عن مفتاح الإضاءة.. بالصدفة عثر عليه.. صرخ صرخة هائلة حين أضاء النور ثم هرول إلى الخارج.. تعثر في الأرض وسقط على وجهه والهلع يغزو عقله.. كان ما شاهد مرعبًا..

مرعبًا جدًّا..!

***

المشرحة..

الوصول إليها كان يتطلب من (خالد) أن يخوض طريقًا طويلًا عبر ردهات المستشفى.. من حينٍ لآخر كان يشاهد وجوه المرضى.. شاحبين ومنهكين.. حاول أن يسرع خطاه على قدر ما يستطيع حتى وصل إلى المصعد وضغط زر الطابق الثاني..

مدة بسيطة ثم انفتحت أبواب المصعد على رواقٍ طويل ذي واجهاتٍ زجاجية.. حين وضع قدمه على طرف الرواق كان كل شيءٍ هادئًا وصامتًا..

كان ممتلئًا بالمخاوف..

وصل إلى المشرحة، فوجد أحد العمال يجلس أمام الباب واضعًا سماعات الموبايل في أذنه ويدندن مع إحدى الأغنيات:

- ولما اقوله آه.. يقولي هو لا.. لا.. لا.

تقدم (خالد) تجاهه وقال:

- عاوز أقابل الدكتور (شوقي).

نظر له العامل ثم صاح بصوتٍ مرتفع:

- نعم.. مش سامعك.

أشار (خالد) إلى السماعة قائلًا:

- جرب تشلها من ودانك وأنت تسمع.

خلع العامل أحد طرفي السماعة قائلًا:

- أي خدمة..؟

- أنا جاي للدكتور (شوقي) من طرف (عمرو).

بلا اكتراث فتح له العامل باب المشرحة الذي كتب عليه (للعاملين فقط) وقال بفتور:

- اتفضل.

ثم عاد يضع السماعة من جديد في أذنه ويدندن:

- ولما أقوله آه.. يقولي هو لا.. لا.. لا.

المشرحة من الداخل كانت عبارة عن قاعة متسعة نوافذها ضيقة مغلقة.. جوها بارد وكئيب.. رائحة الموت تنتشر في كل ركنٍ من الأركـان.. الجـدران محايـدة الألـوان لا تسـتطيع تمـييز لونـها.. الإضاءة خافتة جدًّا..

الكثير من الجثث الموضوعة فوق مناضد معدنية.. جثث متيبسة ذات وجوهٍ جامدة.. بعضها مغلق العينين، وبعضها يحدق بعين الموت في ذهول..

شاهد الدكتور (شوقي) يقف جوار إحدى الجثث التي وصلت حديثًا إليه.. كان يضع فنجان قهوته بجوار رأس الجثة ثم يرشف منها رشفة بين الحين والآخر وهو يدون تقريره داخل ملف ورقي يحمل اسمًا مجهولًا..

كان الدكتور (شوقي) ضئيل الجسم، غير مهندم الثياب، له ذقن حليقة، ورأس تميل للصلع.

- أنا (خالد).. جاي لحضرتك من طرف (عمرو).

- أهلًا وسهلًا.. هو كلمني في التليفون من شوية.. تحب تشرب حاجة..؟

كان المستحيل بالنسبة إلى (خالد) أن يتناول شيئًا في هذا المكان.. شكره جدًّا.

كان الدكتور (شوقي) بارعًا.. ربما من أبرع الأطباء الشرعيين في المدينة.. أشار إلى كرسي معدني يتوسط القاعة وخاطب (خالد) قائلًا:

- اتفضل اقعد.

ثم أضاء (لمبة فلوريسنت) فوق الجثة المجهولة وقال:

- جثة عجيبة وكلها أسرار.

تركز بصر (خالد) على الجثة.. لا يستطيع أن يميز منها شيء.. قال:

- حسب كلام التربي المفروض إن الجثة دي مدفونة من عشرين سنة.. ازاي متحللتش..؟

عدل الدكتور (شوقي) وضع نظارته على عينيه والتفت له قائلًا:

- أحيانًا مناخ القبر بيكون السبب.. دي مش أول حالة يتفتح عليها القبر وتخرج سليمة.. بس للأمانة أول حالة اشوفها في حياتي.. معظم الحالات اللي حصلت سمعت أو قرأت عنها.. عاوز أقولك إن في ناس بتعتبر ده نوع من أنواع الكرامات للميت.

حاول (خالد) الرد عليه لكن شعر أن لسانه كأنه مبلل بالصمغ، فلم ينطق..

بدقةٍ بالغة راح الدكتور (شوقي) يفحص الجثة من الخارج فحصًا ظاهريًّا.. حاول أن يفتح فمها لكنه كان صلبًا.. أمسك مبضعًا حادًّا ثم شق الفم من الخارج فسقط اللسان..

جذب اللسان إلى الأمام وكشط عينة منه ووضعها فوق شريحة زجاجية صغيرة شفافة ثم قال:

- نشوف كدا ممكن نحاول نوصل لحاجة.

وضع العينة تحت المجهر وألصق عينه اليمنى.. قال بعد لحظات:

- حاجة غريبة.. الخلايا كأنها لسه حية.. مش ميتة.

- أول مرة تشوف حاجة زي دي..؟

- دي حاجة أصلًا مستحيلة.. على العموم بطن الجثة هتقولنا على كل أسرارها.

ثم تناول مبضعًا وبدأ في شق صدر الجثة من ناحية الصدر نزولًا حتى البطن على هيئة حرف **Y**..

نهض (خالد) من مقعده محاولًا أن يسترق النظر.. تصاعدت صافرات الدهشة في رأسه.. كانت الجثة بلا أعضاء داخلية..!

سأل (خالد) بفضول:

- ازاي ده..؟

- أنا برضه بسأل نفسي نفس السؤال.. لو كان المخ مكنتش استغربت لأن ممكن يتم سحبه عن طريق الأنف لكن الأعضاء الداخلية دي حاجة مستحيلة.. أنا مش شايف أصلًا فتح في البطن.

- احتمال تكون اتحللت..؟

- قصدك إن الجثة من بره سليمة ومن جوه اتحللت..؟

- آه..

- ده فيلم رعب خيال علمي اللي أنت بتقول عليه.

طلب من (خالد) أن يغادر الآن ويتركه حتى يستطيع التركيز وسوف يكتب تقريره غدًا..

قال (خالد) وهو يصافحه:

- على العموم شكرًا يا دكتور.

- الليلة دي هسهر على الجثة.. لازم اوصل لتفسير لكل الحاجات الغريبة دي و...

فجأة بتر عبارته وشهق من الرعب ثم تراجع بظهره إلى الوراء..

استدار (خالد) ليرى ما شاهده الدكتور (شوقي).. كان المشهد رهيبًا..

كانت الجثة تطفو في الهواء..!

***

(محفوظ)..

لم يتوقف عن الركض أو يهدأ إلا حين وصل إلى منزل خالته ودخل غرفته ثم أغلق على نفسه الباب..

كان العرق يغمر جسده ويده ترتعش من الخوف..

توجه إلى الراديو وظل يبحث عن إذاعة القرآن الكريم حتى عثر عليها.. رفع مستوى الصوت إلى أقصى درجة، ثم ارتمى على السرير في إرهاقٍ وقد شعر ببعض الأمان مع صوت الشيخ (محمود خليل الحصري) وهو يتلو آيات كريمة من سورة البقرة.. أغمض عينيه محاولًا أن ينسى ما شاهده منذ قليل في غرفة عامل المزلقان..

الحقيقة أنه كان من المستحيل أن ينسى!

فلقد شاهد الحاج (صابر) معلقًا في (خطاف) كبير يتدلى من السقف مثل الذبيحة.. عيناه مفتوحتان.. نصف وجهه ممزق.. وأمعاؤه تتدلى خارج بطنه المفتوح.

***

(خالد)..

كان المشهد مرعبًا والجثة تطفو في الهواء وظلالها تتراقص على السقف والجدران..!

ظل الموقف جامدًا كأنه لقطة ثابتة من فيلم سينمائي.. فجأة اعتدلت الجثة وأصبحت في مواجهة الدكتور (شوقي) الذي

صرخ بارتياع:

- دي جثة ملعونة.

ولم يكد يقولها حتى جحظت عيناه بشدة، وتدلى لسانه خارج فمه على نحوٍ بشع، والتوت أطرافه بشدة كأنها مصنوعة من جلدٍ مطاطي..!

صرخ الدكتور (شوقي) من الألم:

- هموت.

لم يدر (خالد) ماذا يفعل أو كيف يتصرف.. وقبل أن يصل إلى حلٍّ، اندلعت النيران حولهم.. نيران رهيبة.. راحت تأكل كل شيءٍ بمجرد أن تلمسه..

هرع (خالد) نحو الباب وحاول فتحه.. صرخ:

- افتحوا الباب.

في الخارج.. وأمام الباب لم يكن أحد موجودًا.. كان هناك قفل ضخم موضوع.. مستحيل أن يخرج أحد من هذا المكان..!

استدار (خالد) من جديد..

شاهد الدكتور (شوقي) يتلوى على الأرض وقد أمسكت به النيران.. انبطح على الأرض وراح يزحف على بطنه.. كانت النيران فوقه مباشرةً.. زحف أسفل منها.. لا يفصل بينه وبينها سوى مسافة أقل من نصف متر.. لكن النيران بدأت تهبط ناحيته.. التصق تمامًا بالأرض.. الحرارة تلفح ظهره وعلى وشك أن

تشويه.. لمح الجثة تنظر إليه من بين النيران.. عينان بيضاوان خاليتان من الروح..

لمست النار جسد (خالد)..

صرخ..

ومع صرختته تلاشى كل شيءٍ بغتة..!

عادت الأمور إلى سابق عهدها.. الجثة فوق المنضدة والنيران اختفت ولا شيء..

انتفض (خالد) والدكتور (شوقي) كأنهما يستيقظان من حلمٍ بشع.. يقفان أمام بعضهما البعض وكلٌّ منهما ينظر إلى الآخر في ذهول.. صاح (خالد):

- شفت اللي أنا شفته..؟

ارتمى الدكتور (شوقي) على أقرب مقعد قائلًا:

- أنا قلت إن إحنا موتنا.

أمسك (خالد) كتفه قائلًا:

- ده وهم.

- مفيش وهم بيعمل كدا.. أنا كنت بتحرق بحق وحقيقي.. وجسمي كل عظمة فيه كانت بتتكسر.. أنا كنت بموت حرفيًّا.. دي قوة أكبر مننا كلنا.. أنت فتحت باب شر ومش هتقدر تقفله.

- طيب اهدا يا دكتور.

- الجثة دي حواليها روح ملعونة.

اعترف (خالد) قائلًا:

- كلامك صحيح.

ثم سأله:

- هتكمل شغل عليها..؟

صرخ الدكتور (شوقي) في رعب:

- مستحيل.

ثم نهض من مكانه وسحب غطاءً ليضعه فوق الجثة، لكن قبل أن يصل إليها انتفخت.. انتشر فوقها نوع غريب من الفطر الأخضر.. خرجت العينان من مكانهما.. بدأ الجلد يتمزق.. اللحم تفتت وسال على الأرض كأنه طين لزج.. وفي خلال أقل من دقيقة لم يعد شيء على المنضدة غير الهيكل العظمي..!

٨

من جديد دخلت عربات الشرطة والإسعاف إلى الشارع.. هذه المرة كانت تحمل جثمان الحاج (صابر).. تواترت الأخبار أنه هرب من السجن وتم العثور على جثته في محطة القطار..!

يبدو هذا قريبًا جدًّا مما شاهده (محفوظ) داخل غرفة عامل المزلقان..

احتشد حشد غير قليل من النساء المتشحات بالسواد.. العويل لا يتوقف وبعض أصحاب الذقون الطويلة يرددون:

- كل من عليها فان... بلاش البكاء.. الدموع بتنزل علي الميت بتقطع فيه زي مية النار.

صرخت أخت الحاج (صابر) ثم ألقت نفسها على الأرض وهي تشق جيوبها.

- يا حبيبي يا (صابر).

توقفت عربة الإسعاف أمام باب المسجد.. الرجال تجمعوا حولها مثل النمل..

المسعف يفتح باب السيارة الخلفي وبجواره تابوت يحتوي على جثة الحاج (صابر) ملفوفة في الكفن..

حاول (محفوظ) أن يلقي نظرة عليه لكن الزحام كان كبيرًا..

قال المسعف مخاطبًا الناس:

- وسعوا يا جماعة عشان ندخل الجثمان.

صرخت أخت الحاج (صابر) وهي تنهض:

- أشوفه..عاوزة أشوفه.

ثم راحت تخترق حشد الرجال الذين أفسحوا لها.. وصلت إلى الجثمان، وقبل أن تمد يدها لترى وجهه، منعها المسعف قائلًا:

- بلاش.. سيبيه كدا.. هو متغسل ومتكفن طاهر من المشرحة، ندخل نصلي عليه أحسن.

صرخت:

- لا.. لازم أشوفه.

منعها مرة أخرى قائلًا:

- الجثة كدا هتتبهدل.

لطمت وجهها قائلة:

- (صابر) بقى جثة خلاص.

صاح (محفوظ) من بعيد:

- سيبها تشوفه يا أخي.. ده مهما كان أخوها.

قال المسعف وهو مستمر في منعها:

- افهموني يا جماعة.. هو وشه متبهدل.

صاح شخصٌ ما:

- اوعوا تكونوا سرقتوا القرنية بتاعته.

صاح المسعف بإصرار:

- لا.

الأمر كاد أن يتحول إلى مشاجرةٍ كبيرة..

بعض الأهالي راحوا يدقون على زجاج نوافذ سيارة الإسعاف وحاول رجال الشرطة أن يعيدوا النظام ويمنعوا التجمهر..

اخترق الحشد إمام المسجد وبجواره (سيد) أخو الحاج (صابر) يسير في ذيله..

قال الإمام بصوتٍ جهوري:

- دخلوا الجثمان يا اخوانا.

ثم التفت إلى أخت الحاج (صابر) قائلًا:

- لكي أن تقبلي رأسه وهو في الكفن يا أختاه.. وادعوا له بالرحمة.. وحاولي ألا تشقي الجيوب.. ذلك منهي عنه في الحديث الشريف.

بعد دقائق كان أربعة من الرجال يحملون التابوت إلى داخل المسجد ثم يضعونه بجوار المحراب استعدادًا للصلاة عليه..

اعتدل الإمام في وقفته ثم تكلم في (ميكروفون) الجامع بصوتٍ قوي:

- صلاة الجنازة ٤ تكبيرات دون رفع اليدين.. التكبيرة الأولى قراءة الفاتحة.. التكبيرة الثانية الصلاة على الحبيب (محمد) والأفضل بالصيغة الإبراهيمية.. التكبيرة الثالثة الدعاء للميت كأن تقول: "اللهم نقه من خطاياه كما ينقى الثوب الأبيض، اللهم ثبته عند السؤال".. التكبيرة الرابعة الدعاء لك وللمسلمين جميعًا، وأخلصوا الدعاء.

ثم رفع يديه حتى لمستا أذنيه وقال:

- اللّٰه أكبر.

بعدما انتهوا من صلاة الجنازة، تم حمل التابوت والذهاب به إلى المقابر.. كانت المقابر بعيدة عن المسجد واقترح أحدهم وضع التابوت فوق عربة نقل.. صرخت أخت (صابر):

- لا.. (صابر) يتشال على الكتاف، مش يتشال على عربية.

قال الشيخ:

- الأفضل أن نحمله يا إخوان.. ولا تنسوا أن المشي في الجنازة ثوابه قيراط في الجنة.

وبالفعل تم حمل التابوت والسير في مشهدٍ مهيب..

وصلوا إلى المقابر وكان في انتظارهم لحاد القرية بعدما فتح القبر.. تعاونوا في إخراج الجثة من التابوت..

دخل اللحاد إلى القبر ليتناول منهم الجثمان.. اكتشف أن هناك جثة قديمة لا بد من إزاحتها بعض الشيء.. كانت لا تزال تحتفظ

بكامل حجمها وكذلك بعض أجزاء من الكفن..

صاح اللحاد حتى يتوقفوا عن إدخال الجثمان:

- استنوا شوية يا اخوانا.

ثم زحف نحو جثةٍ قديمة.. مجرد أن أمسكها انهار الهيكل العظمي الخاص بها.. كانت العظام بالية.. حاول أن يجمع العظام لكنها كانت كبيرة.. أمسك اليد ثم كسرها.. ظل يكسر عظام الجثة حتى لا تأخذ حيزًا من المكان...

في الخارج لم يكن أحد يدري بما يفعل..

انتبه الشيخ إلى الصوت الذي يأتي من داخل القبر فنظر.. رأى ما يفعله اللحاد.. صرخ به في غضب:

- لا تكسر عظام الميت، فهو يتأذى كما يتأذى الحي يا أخي، بنص الحديث الشريف.

- ده اللي بنعمله طول عمرنا.. بنكسر العظم القديم عشان نحط الجثة الجديدة، ما هو القبر زي ما أنت شايف صغير.

قال الشيخ وهو يدخل عنده:

- اجمع العظم بلينٍ ورفق.

وبدأ يرصف العظام في ركن القبر بنظام، وضع القفص الصدري وفوقه القدمين والجمجمة، ثم نظر إلى اليدين التي هشمهما اللحاد وقال:

- أعوذ بالله منك.

وضع اللحاد بقية العظام المتكسرة قائلًا:

- متحبكهاش يا شيخ.. ده أنا أحسن من غيري.. ده فيه اللي بيجيبوا شاكوش وبيكسروا بيه.

هز الشيخ رأسه في أسف، ثم طلب إدخال الجثمان وعاون اللحاد في عمله قبل أن يخرجا سويًّا والعرق يتصبب منهما..

مسح الشيخ التراب من فوق وجهه وقال:

- ادعو لأخيكم الآن، فإنه يسأل.

رفع كلتا يديه وبدأ في الدعاء والناس يرددون من خلفه: "آمين" بينما اللحاد يقوم بإغلاق القبر..

كان (محفوظ) يعاون اللحاد ويناوله الطوب والجبس.. تبقت فتحة صغيرة احتاجت إلى قطعة طوب..

كسر اللحاد نصف قالب طوب، وأغلق بها الفتحة، لكن قبل أن يضعها بجزءٍ من الثانية، لمح (محفوظ) ما يشبه كائنًا أسود اللون يجلس بجوار جثة الحاج (صابر).

***

حين اقتربت الساعة من منتصف الليل، وصل (خالد) إلى شارع ١٠٢..

ركن سيارته التي استلمها بالأمس من الميكانيكي، في حارةٍ

ضيقة تقع خلف (كازينو الشعب) الذي يعتبر هو الأشهر في المدينة.. الحارة كانت تمتلئ بالكثير من الذباب الذي يصدر أزيزًا متقطعًا بين الحين والآخر، وهو يحلق فوق صناديق القمامة التي اكتظت حتى الامتلاء بالأكياس السوداء المغلقة والغير مغلقة.

كانت (رضوى) ابنة أخت (سعدية) تعمل في هذا المكان كما يظهر في العنوان الذي كتبه له (عمرو)..

سار حتى وصل إلى ناصية (الكازينو) الشمالية التي كان يقف عليها شاب نحيل امتلأت يده بالأوشام البذيئة لفتياتٍ عاريات، ويهمس في أذن أي شخصٍ في طريقه لباب الدخول..

علم مسبقًا أنه أحد بائعي مخدرات ديلر، في الغالب هو ابن رجل طيب لكن قام أحدهم بإفساده، حين اقترب منه همس له الشاب بصوتٍ خفيض بالرغم من عدم وجود أحد بالجوار:

- الباشا مزاجه إيه.. أبيض ولا احمر..؟

- لا ده ولا ده.

أشار الشاب إلى مجموعة فتيات على مقربةٍ منه قائلًا:

- شايف البنات اللي هناك دول، تحب تسهر مع أي واحدة فيهم..؟

- لا.

قالها قاطعًا ثم تجاوزه بسرعة، ودخل إلى الكازينو.

في الداخل كان الجو خانقًا، والمكان مكتظًّا تحطمه الأصوات الصاخبة، والكثير من الراقصات اللاتي يتمايلن على الإيقاع

المضطرب الذي يشبه انفجار القنابل..

استوقفته فتاة بدينة يكاد لحمها الطري ينفجر من أسفل (البيبي دول) الأحمر الذي ترتديه.

- افتح لك إزازة يا باشا..؟

التصقت به حتى شعر بحبات صدرها.. كانت رائحة الخمر تفوح منها، وشعرها يلتصق بوجهها بسبب العرق كأنها انتهت لتوها من مضاجعةٍ عنيفة..

شعر للحظة ببعض التقزز لكنه حاول أن يبتسم قائلًا:

- هقعد على البار.

ثم زاحم البشر الهائج حتى وصل إلى البار الذي يقف خلفه (بارمان) أنيق سريع الحركة أشيب الشعر، يرتدي بذلةً بيضاء أنيقة، ويشبه (باشا قديم) من باشوات مصر..

طلب (بيرة) ومضى يحتسيها في صمتٍ وهو يراقب المكان بدقة..

على الناحية الأخرى من البار، غمزت له فتاة سمراء تضع عدسات ملونة، و(باروكة) ذات شعرٍ أصفر حريري ينسدل حتى نهديها.

قالت وهي تضع سيجارة صغيرة بين شفتيها المكتظين بسبب حقن البوتكس:

- معاك ولاعة؟

كانت تمارس معه الأسلوب القديم، تبدو متمرسة في البغاء، وعيناها واسعتان تحملان الكثير من الغواية.. من مسافة كانت تبدو مثيرة جنسيًّا، لكن حين اقتربت أكثر، وجدها قبيحة ذات بثورٍ كثيرة تنتشر فوق وجهها.

- مبدخنش.

أطلقت ضحكة صاخبة تلاشى أثرها وسط الصخب الرهيب ثم قالت:

- هاخد ميتين جنيه في المرة.

اكتفى بالصمت والنظر إليها.. عادت تقول:

- الباشا.. مزاجه إيه..؟

- خمسين جنيه.

نظرت له في حيرة وقبل أن تتكلم، وضع أمامها ورقة واحدة من فئة الخمسين جنيه وقال:

- (رضوى)..؟

قطبت حاجبيها.. قالت بلا اكتراث وهي تضع الورقة في صدرها:

- شوية كدا وهتظهر على المسرح.

ابتعدت بمقعدها عنه لتحظى بفرصةٍ أخرى مع زبون جديد جاء وجلس على الناحية الأخرى ثم قالت له:

- معاك ولاعة؟

لمعت عينا الرجل وأخرج لها قداحة، وهو يعبث بإحدى يديه فوق فخذها بعدما أقنع نفسه أنها صارت ملكًا له.

مضى (خالد) يراقب خشبة المسرح الصغير الموجود في منتصف القاعة إلى أن تغيرت الأضواء وانعكست بعض خيوط الليزر الضوئية فوقها..

ظهر فوق المسرح شاب مفتول العضلات له شعر مجعد يأبى أن ينام بأي ثمن، وقال بصوتٍ جهوري وهو يحرك ذراعه بطريقةٍ دراماتيكية:

- مع صوت بلدنا.. صوت بنت مصر.. أنا ضد الكسر.. (رضوى).

أطلق الكثير من الموجودين تصفيقًا حادًّا وبعض الصافرات المتقطعة عقب كلامه..

تشاجرت خيوط الليزر الملونة بسرعةٍ بالغة ثم اكتست جميعًا بلونٍ واحد وتركزت في نقطةٍ واحدة.. (رضوى) التي ظهرت في منتصف المسرح من فراغ، فبدت مثل شبحٍ أسطوري جعلت الجميع يصمت وينتبه لها..

اعتدل (خالد) في مكانه بينما أغمضت (رضوى) عينيها، واستجمعت بعض الهواء الدافئ في صدرها وبدأت في الغناء بصوتٍ رخيم حزين.. لم تكن تمتلك حنجرة قوية لكن يوجد شيء في صوتها يجعلك ترغب في الإنصات لها بشدة وتتذكر كل الوعود والأشخاص الذين خذلوك في حياتك..

(خالد) منذ ثلاثة أعوام كان لديه حبيبة تعاهدت معه على البقاء

إلى الأبد..

تسربت لقطات متقطعة من الماضي في مجال رؤيته..

- ممكن نقعد مع بعض شوية.. أنا مبقتش أشوفك.. أنا حاسة اني مش متجوزة.

بداية الشرخ الذي أصاب حائط حبهما.

- خلاص.. أنا زهقت.. عاوزة أتطلق.. عاوزة أتطلق.

استفاق من ذكرياته على تصفيقٍ حادٍّ جديد بعدما انتهت (رضوى) من أداء فقرتها ثم نزلت من على المسرح..

اخترقت الطاولات بسرعة هائلة حتى لا يستوقفها أحد وجلست على (البار) والعرق يغمر وجهها.. وضع أمامها (البارمان) كأسًا من الشراب قائلًا لها بود:

- الناس هتتجنن عليكي.

أطلقت ضحكة مكتومة ورفعت الكأس إلى فمها قائلة:

- في صحتك يا (باول).

حين انتهت من إفراغه في جوفها، نهض (خالد) من مقعده ثم جلس على المقعد الملاصق لها..

شعرت به لكنها لم تلتفت له، اعتادت على أمثاله من رفقاء الليل، ستنهره، وإذا تمادى فإن (البارمان) الذي يقف متحفزًا سيهشم إحدى الزجاجات فوق رأسه.

- (رضوى).

قالها (خالد) كأنهما صديقان حميمان منذ سنوات.. التفتت له، يبدو شابًّا حقيرًا.. قالت:

- أفندم.

- اسمي (خالد).. مصور صحفي.

ثم أعطاها الكارت الخاص به.. تناولته منه بلا اهتمام ووضعته أسفل الكأس الذي كانت تشرب منها..

استشعر الحرج مما فعلت وأخرج كارنيه الصحافة ورفعه في وجهها قائلًا:

- أنا مصور صحفي بجد.

ابتسمت قائلة:

- مبروك.

لاحظ أنها ترتدي سلسلة حول عنقها تنتهي بقطعة قماشٍ صغيرة تشبه الحجاب.. قال:

- إحنا اتقابلنا مرة قبل كدا.

قالت بحدة:

- بلاش كذب.. خش في الموضوع علطول.

- طيب ممكن نتكلم في مكان تاني.. مكان هادي نعرف نسمع

بعض فيه لو سمحتي.

نهضت من مكانها قائلة:

- انسى.

أمسك ذراعها، فاستدارت نحوه بشراسة..

رفع (باول) زجاجة فارغة وأمسك عنق (خالد) قائلًا بصوتٍ غليظ:

- إيدك عنها يا شبح.

(رضوى) أشارت إلى (باول) قائلة:

- سيبه.

تملص (خالد) منه قائلًا لها:

- خمس دقايق.. كل اللي عاوزه منك تقعدي تسمعيني ٥ دقايق.

نظرت له بتمعن ثم جلست في مواجهته وقالت:

- تلات دقايق بس.. ولو معجبنيش كلامك، هسيب (باول) يتصرف معاك.

ضم (باول) قبضته وقال:

- يومك سعيد يا كابتن.

تجاهله (خالد) وقال:

- أنا موافق.

- اتكلم.

- (سعدية).

لم ترد واكتفت بالصمت.. عاد يقول:

- (سعدية) هي خالتك.. مضبوط..؟

غمغمت:

- كمل.

- محتاج أوصل لها ضروري جدًّا.. حاولت بأكتر من طريقة لكن مش قادر اعرف هي فين.. تعرفي مكانها؟

ركزت عينيها في عينيه وقالت:

- حسب الموضوع اللي أنت عاوزها فيه..؟

- الموضوع بسيط.. تحقيق صحفي.

كادت أن تنهض لولا أن استوقفها قائلًا:

- دقيقة واحدة.

- هتتكلم بصراحة ولا لا..

تردد كثيرًا وهو ينظر إلى وجهها.. فجأة عبرت في ذهنه صورة لفتاةٍ أخرى.. فتاة لم يرها من قبل.. ثم تلاشت الصورة من رأسه حين اخترق صوتها أذنه.. قالت:

- سرحت في إيه..؟

- لا أبدًا.. أنا هقول لك كل حاجة.

وراح يحكي لها ما حدث له باختصار دون الخوض في تفاصيل ثم أنهى كلامه قائلًا:

- ساعديني.

نظرت له جيدًا لتسبر أغواره.. عيناه صافيتان.. يبدو صادقًا رغم غرابة قصته.. دفعها فضولها إلى أن تقول:

- نتقابل بكرة الساعة تسعة الصبح ونروح لها.. أنا ساكنة في العمارة اللي على أول شارع ٥٥.. عمارة رقم ١٣.

- رقم شؤم من أولها.

- أفندم.. بتقول إيه..؟

- مفيش.. هتلاقيني بدري تحت العمارة في انتظارك.. بس هنروح فين..؟

لكنها غادرت دون أن ترد عليه.

***

أمام منزل الحاج (صابر) تم إقامة سرادق العزاء الخاص به واكتسى الشارع بحزنٍ عميق..

جلس (محفوظ) بجوار (سيد) شقيق الحاج (صابر).. شردت عيناه بعيدًا عن سرادق العزاء ومعها شرد عقله في مكانٍ آخر.. لكن على حين بغتة سمع صوتًا يتردد داخل شظايا عقله، خافتًا غير صافٍ

مثل صوت مذيعٍ عبر موجات راديو قديم يلتقط الإشارة بالكاد..

- محفوظ.

تلفت (محفوظ) حول نفسه.. من أين يأتي الصوت..؟

- أنت مين..؟

قالها بتلقائيةٍ تحمل الكثير من الخوف والرغبة في التنصل من كل ما فعله.. عاد الصوت يقول:

- محفوظ.

- عاوز مني إيه..؟

- أنت اللي عاوز مني إيه.. خالتك وصاحبتها (سعدية) مش طلبوا منك تخليك في حالك.

- أنت عرفت ازاي.. حد منهم قالك.. أكيد (سعدية).

- لسه برضه تفكيرك محدود.. أنا مش محتاج حد يقول لي حاجة.. الأخبار اللي أنا عاوز اعرفها بعرفها.. وعلى العموم أنا بعت لك هدية.

- هدية..!

ترددت ضحكة خبيثة في جنبات رأس (محفوظ) قبل أن يتلاشى الصوت تدريجيًّا.. فجأة شعر بلفحة هواءٍ ساخنة في وجهه، جعلت خصلات شعره تتنافر عن جبهته..

للحظة صار وحيدًا في المكان.. المقاعد فارغة... زجاجات الماء

تهتز كأن هناك شيئًا جرى بينها بسرعة...

لكن أين البشر..؟

كيف اختفوا..؟

أي قدرةٍ شيطانية قادرة على فعل ذلك بمثل تلك البساطة والسرعة والقوة؟!

نهض (محفوظ) من مكانه ثم تحرك بين المقاعد ببطءٍ وهو يجول ببصره ذات اليمين وذات الشمال..

للمرة الثانية شعر بالهواء الساخن يخدش وجهه كصفعةٍ ثانية أكثر حدة من الأولى ثم تجسد أمامه مخلوق صغير يكسو الشعر كل جسمه.. رأسه ضخم في حجم كرة سلة.. عيناه دمويتان جاحظتان كأنهما على وشك الانفجار..

ابتسم المخلوق، فظهرت أسنان صفراء منخورة تآكلت بفعل السوس..

انبعثت كذلك منه رائحة عفنة جعلت معدة (محفوظ) تنقلب حتى كادت أن تخرج من حلقه.

- محفوظ.

الصوت نفسه ذو الضجيج الغير واضح..!

قبض (محفوظ) على طرف مائدةٍ خشبية واستعد لتهشيم رأس المخلوق بها..

لكن المخلوق انقض عليه..

تدحرج (محفوظ) محاولًا الصراخ، سمع صوت أسنان المخلوق وهي تصطك ببعضها البعض..

اختفى تحت أحد المقاعد.. راح يزحف أسفل منها مستعينًا بمرفقيه في الزحف تحت المقاعد.. وصل إلى نهاية السرادق حيث مكان متسع للخروج..

لمح من مكانه المخلوق وهو يدور في الهواء ويزمجر.. استطاع كذلك رؤية قطعة حجرية كبيرة.. فكر أن يتناولها ثم يطوحها تجاه المخلوق.. سوف تكون ضربة ساحقة إذا أصابت هدفها...

لم يمهله المخلوق المزيد من الوقت للتصرف.. أصبح في مواجهته مرة أخرى...

تدحرج مرة أخرى على ظهره ثم نهض واقفًا.. ترنح وكاد أن يسقط أرضًا، لكنه تمالك نفسه.. خرج من السرادق.. استطاع رؤية المنازل حاضرةً في وجهه..

لا شيء غريب غير أن لا أحد موجود..

من جديد يسأل نفسه: أين ذهب الناس..؟

ركض في الشارع بعنفٍ حتى شعر بألمٍ حارق في صدره..

من ورائه سمع صوت الأسنان، وهي تصطك ببعضها البعض...

المخلوق يحلق في الهواء، هذه المرة كان مختلفًا، كان أكثر ضخامة وأكثر بشاعة..

يستمر في الزمجرة والنداء..

التفت (محفوظ) إلى الخلف بنظرةٍ خاطفة، نتيجة ذلك سقط على الأرض..

اندفع كثير من الغبار والتراب في عينيه، شعر بالألم ينغرس في مقلتيه مثل (دبوس) ساخن.. صرخ:

- (محفوظ).. مالك..؟

تلاشى كل شيءٍ من حوله دفعة واحدة.. التفت إلى (سيد) الذي يجلس بجواره ويتحدث معه..

سرادق العزاء معظم مقاعده شاغرة.. لا وجود للمخلوق المرعب.. قال:

- أنا كويس.

رغم أن ما حدث يشبه الحلم، لكنه كان يشعر بألمٍ عميق في عينيه.. نهض مصافحًا (سيد) ليقول:

- شد حيلك.

وبينما كان يسير إلى الخارج، لمح (جابر) يدخل السرادق وينظر له نظرة ذات مغزى.

***

مع شروق الشمس كان (خالد) يقف بسيارته أسفل العمارة التي حددتها له (رضوى).. عمارة حديثة يزين مدخلها رخام ملون

ونباتات زينة..

ألقى نظرة خاطفة على ساعة يده الرقمية.. الثامنة صباحًا.. جاء مبكرًا عن الموعد المتفق عليه..

أطفأ محرك السيارة ثم أخرج علبة سجائر مصرية الصنع، أشعل منها واحدة وراح ينفث دخانها ببطء.. يراقب الحلقات الرمادية وهي تصنع رقصة عشوائية في الهواء أمامه قبل أن تتبخر وتندثر..

حين انتهى منها ألقاها من النافذة وأعاد رأسه إلى الخلف قليلًا ثم أسبل جفونه ليحصل على بعض الاسترخاء..

- (خالد).

جاءه الصوت حادًّا منبهًا إياه.. التفت إلى (رضوى) التي وقفت بجانبه وهي ترتدي (تيشرت) حديثًا، وبنطال جينز يمتلئ بالثقوب حول الفخذين، وتصفف شعرها على هيئة كعكة مجدولة.

- نزلتي بدري..!

- شفتك من البلكونة.

أشارت إلى (الكافي شوب) الموجود في منتصف الشارع قائلة:

- تعال نشرب قهوة الأول.

خرج من السيارة وأحكم إغلاقها ثم سار معها حتى (الكافي شوب).. كان مكانًا هادئًا بعيدًا عن زحام الطريق.. صغير لكنه

نظيف جدًّا.. رائحة القهوة و(الشيشة) تسبحان في الهواء.. الطاولات مغطاة بقماشٍ أزرق اللون والمقاعد ذات لونٍ أحمر فاقع تشبه كراسي العزاء الموجودة في دور المناسبات..

بعد خمس دقائق، جلسا يحتسيان القهوة في صمت..

تستمر في مراقبته بينما يفرك عينيه بين الحين والآخر.. سألته وهي تداعب السلسلة المتدلية من صدرها:

- صداع..؟

أجابها بتوتر:

- آه.

- أجيب لك برشام للصداع..؟

- مبقاش يجيب معايا نتيجة.. الموضوع بسبب قلة النوم.. تقريبًا مش بنام خالص اليومين دول.

- أكيد دماغك بتفكر.. أنا عارفة الحالة اللي أنت فيها.

ثم أخرجت علبة سجائرها ومضت تنفث واحدة في وجهه قائلة:

- مقلتش لي عاوز تتكلم معاها في إيه بالضبط..؟

- عاوز أسألها بخصوص شخص ميت.

- اسمه إيه..؟

- (محفوظ أيوب).. تعرفيه..؟

رعشة خاطفة مرت بعينيها لجزءٍ من الثانية.. تملصت من السؤال قائلةً بينما تنهض:

- خلص قهوتك بسرعة.. قدامنا نص ساعة كمان ودار المسنين هتتفتح.

- مقلتيش انها في دار مسنين.

قالت بلا اكتراث:

- نسيت.

ثم اتخذت هيئة غاضبة بينما تستطرد:

- أوعى تكون بتكذب علي.

رفع يده ووضعها على قلبه قائلًا:

- أقسم لك.

ثم رشف آخر رشفة في قهوته ونادى العامل ثم ناوله الحساب..

بعد قليل كانا داخل السيارة في طريقهما إلى دار المسنين بينما تقول له:

- خالتي (سعدية) أكتر واحدة بحبها في الدنيا دي.

أدار ممسحة العربة لتزيل بعض الندى الذي التصق بالزجاج حين سألها:

- طيب وديتيها هناك ليه..؟

تنهدت قائلة:

- وصلت لمرحلة اني مش قادرة أرعاها، مبقتش قادرة تمشي بسبب وزنها.. وجت لها ميه زرقاء على عينيها ومبقتش تشوف كويس.. وأنا كنت مضطرة اشتغل بالنهار والليل، وهي كانت بتفضل قاعدة لوحدها معظم اليوم.. كان مستحيل اقدر اخلي بالي منها.

رمقها بطرفي عينيه قائلًا:

- طيب الدار دي كويسة..؟

- كويسة وفيها اهتمام.

- بتزوريها كتير..؟

صمتت للحظة قبل أن تقول:

- مش كتير.. بصراحة مش فاكرة آخر مرة رحت هناك، بفضل إن أتابعها بالتليفون، الموضوع صعب مش سهل زي ما أنت فاكر.

بعد قيادة استمرت نصف ساعة، وصل إلى دار المسنين ثم أوقف العربة بجوار لافتة تحذيرية مكتوب فوقها بالخط العريض (ممنوع الوقوف).

قالت وهي تسرع الخطى:

- مفيش أي التزام بتعليمات المرور.

- إحنا لسه بدري.. والمكان فاضي.

كانت الدار تقع في الطابق الأرضي من عمارة قديمة البناء صفراء اللون يحيط بها من كل الاتجاهات عمائر أخرى حديثة براقة ذاخرة بلافتات الأطباء ومراكز العلاج والأشعة والتحاليل وتعليم الرقص الشرقي..!

اصطدام (خالد) عند المدخل بباب زجاجي مغلق.. ضربت (رضوى) الجرس ضربات سريعة متعاقبة..

ثوانٍ وظهرت إحدى العاملات.. سيدة بدينة تشبه برميلًا مصنوعًا من الشحم، وترتدي (يونيفورم) رسمي عليه شعار الدار..

نظرت لهما من وراء الزجاج نظرة انزعاج قبل أن تفتح لهما الباب كأنها تفتح بوابة سجنٍ قائلة:

- اتفضلي.

شكرتها (رضوى) وهي تدلف إلى الداخل ثم أشارت إلى (خالد) بأن يتبعهما.. سألتها العاملة:

- بقالك مدة مش بتيجي..؟

- أبدًا كنت مسافرة.

يبدو واضحًا للعيان أنها تكذب.. كاذبة فاشلة جدًّا..

كان (خالد) وعلى خلاف عادته صامتًا.. يعيد التفكير في كل ما سبق وهو يتمنى أن يكون على الطريق الصحيح..

سلك الثلاثة ممرًّا متعرجًا تنبعث منه مزيج من روائح المطهرات والأدوية والمانجو..

تركتهم العاملة أمام باب غرفة (سعدية) قائلة:

- لو احتجتوا أي حاجة أنا قريب منكم.

ابتسمت (رضوى) قائلة:

- ماشي.

ثم طرقت الباب طرقة خفيفة ودخلت ومن خلفها (خالد)..

الغرفة من الداخل كانت قليلة الأثاث.. عبارة عن سرير صغير قوائمه مصنوعة من الحديد ويصدر ضوضاء معدنية كلما جلس عليه أحد.. يوجد كرسي بلاستيكي وحيد وطاولة مثبتة على الأرض مصنوعة من البلاستيك أيضًا، ثمة بعض الأغطية المتناثرة هنا وهناك.. توجد أيضًا مزهرية بها باقة ورود ذابلة وفي طريقها إلى الموت.. ووسط كل هذا كانت (سعدية).. الدهر نال منها حتى الثمالة.. كانت تجلس فوق فراشها ترتدي نظارة سوداء تخفي بها ضمور عينيها.. جلست (رضوى) بجانبها بعدما قبلت رأسها قائلة:

- خالتي.. ازيك.

أصغت (سعدية) للصوت قبل أن تقول بسعادة:

- (رضوى).

- آسفة جدًّا.. أنا عارفة إن مفيش حاجة تمنعني من ان ازورك.

- أنت جاية لوحدك ولا فيه حد معاكي؟

قالت (رضوى):

- معايا زميل لي في الشغل اسمه (خالد) هو عاوز يتكلم معاكي في موضوع مهم.

اقترب (خالد) من (سعدية) ثم قال:

- (محفوظ أيوب)..

لم يكمل جملته، تركها معلقة في انتظار أي رد فعلٍ منها.. قالت دون أن تبدي أي اهتمام:

- كمل.

- (محفوظ) كان عايش مع خالته (وطنية) اللي هي كانت جارتك وصاحبتك الوحيدة.

ظلت (سعدية) ساكنة.. عنقها متصلب إلى الأمام.. تابع قائلًا:

- سمعت انه مات و...

انقلبت ملامح وجهها إلى ملامح عدائية ثم قالت:

- جابر.

سألها:

- (جابر) مين..؟

- (جابر) هو ال...

تحشرج الكلام في حلقها.. أسرعت (رضوى) وملأت كوب ماء، وحاولت أن تجعلها تشرب قائلة:

- اشربي بسرعة.

أبعدت (سعدية) الكوب عنها ثم قالت:

- مالك أنت ومال (محفوظ)..؟

أجاب بسرعة:

- بيظهر لي في الأحلام.

لم يكن هناك مجال للكذب، ضحكت (سعدية) قائلة:

- طول عمره عفريت.

ودون أن تنتظر ردًّا على كلامها، أردفت:

- مين قالك إن (محفوظ) مات..؟ (محفوظ) عايش.

- بتكلمي جد، مستحيل، أنا شفت شهادة الوفاة بتاعته.

وضعت يدها على رأسه ثم قالت:

- اسمع مني.. هو عايش.

***

لم تكن صدفة أن يلتقي (محفوظ) مرة أخرى مع (سيد) شقيق الحاج (صابر).. كان يرغب في الحديث معه بعيدًا عن عيني (جابر).. بحث عنه حتى استطاع أن يجده يجلس أمام محل بقالة صغير يعمل به فترة مسائية..

ألقى عليه السلام ثم صافحه وجلس بجواره قائلًا:

- عامل إيه النهارده..؟

- كله تمام..

- هو دلوقتي في مكان أحسن من اللي احنا فيه.

- يا رب.

ثم نادى صبي المقهى الذي كان بالجوار وعاد يسأل (محفوظ):

- تشرب إيه..؟

- مفيش داعي.

- مينفعش.. دي أول مرة تيجي عندي.

- ما دام مصر يبقى شاي بالنعناع.

أسرع صبي المقهى ثم عاد ومعه صحفة معدنية فوقها كوبان من الشاي.

- اتفضل.

ارتشف (محفوظ) رشفة شاي ساخنة ثم سأل (سيد):

- اتكلمت مع (جابر) قبل كدا أو اتعاملت معاه؟

- مرات قليلة.

- طيب ممكن أسألك سؤال بس متضحكش.

- اتفضل..؟

- لما كنت قاعد جنبك في العزاء مسمعتش صوت غريب أو شفت مخلوق كله شعر..؟

نظر إليه (سيد) كأنه مخبول.. أسرع (محفوظ) يقول:

- لا.. انسى اللي قلته.

قال (سيد) فجأة:

- أنا سمعت صوت غريب.

- سمعت؟

- أيوه..

- سمعت إيه بالضبط.. وحسيت بإيه..؟

قال (سيد) بتردد:

- مش عارف احدد بالضبط.. بس سمعت كأنه صوت طنين وحسيت بحضور شيء خفي.

- الصوت كان بيقول حاجة..؟

- كان بينادي باسمك.

- صوت (جابر).. صح؟

هز الرجل رأسه نافيًا وقال:

- لا.. بس دي مش أول مرة اسمع حاجة زي دي.

- سمعتها قبل كدا؟

قال (سيد):

- أيوه.. لما قعدت مع المرحوم (صابر) بعد الخناقة اللي حصلت بينه وبين (جابر).. كنت بحاول اطيب بخاطره واخليه يروح يتأسف له.. بس (صابر) كان قاعد ساكت.. حسيت انه نادم على حاجة.. وبعدين جسمه بدأ يرتعش ويقول: "لا.. لا" وكل لما يقول كدا كنت بسمع الصوت اللي كنت سمعته جنبك من شوية عمال ينادي عليه: "(صابر).. (صابر)" بس بعد دقيقة (صابر) فاق.. كان مذهول وكأنه كان في مكان تاني وبعدين رجع.

- وانت رأيك إيه..؟

حاول (سيد) أن يبتسم قائلًا:

- مع (جابر) توقع كل حاجة.

سأله (محفوظ) باهتمام:

- طيب الحاج (صابر) قال لك شاف إيه..؟

- قال إن حاجة ظهرت قدامه فجأة، بس مرضاش يقول إيه هي بالضبط، وقال إن كل حد موجود اختفى.

- وأنت صدقته..؟

هز (سيد) رأسه وقال:

- آه.. ونصيحة مني لو فيه حاجة بينك وبين (جابر) خلي بالك أحسن لك وروح اطلب منه يسامحك.

ظل (محفوظ) صامتًا لبرهة قبل أن يقول:

- مفيش حاجة.

قال (سيد):

- تحب أقولك على شيء غريب عن (جابر).

لمعت عينا (محفوظ) وقال:

- طبعًا قول.

- عارف أنت قصة النداهة..؟

- أكيد طبعًا.. مين ميعرفش قصة النداهة، وانها بتنادي الشباب بالليل وبعدين ميرجعوش.

- الناس بتقول إن (جابر) هو ابن النداهة.. سمعت والدي بيقول إن من ٤٠ سنة الناس صحيت بالليل على صوت واحدة ست بتنادي.. صوتها عالي جدًا.. كان قادر انه يوصل لكل البيوت، بس رغم كدا الناس كلها كانت خايفة، صوت الست استمر لمدة ١٠ دقائق بالضبط، كانت بتنادي على كل واحد في البلد بالاسم.. وبعد العشر دقائق الصوت سكت..

تاني يوم وفي نفس الميعاد اتكرر الموقف.. تنادي على الناس بالاسم، كل يوم كانت بتنادي ناس مختلفة، محدش كان يرضي يروح، النداهة اللي بيروح لها مبيرجعش، لكن في يوم شاب عنده

١٨ سنة اسمه (عوض).. متعرفش كان شارب ولا إيه، كان شايف نفسه حبيتن، شال الفأس بتاعه وراح هناك.. وتاني يوم الصبح لقينا (عوض) راجع وشايل عيل في إيده، عيل زي أي عيل، ما عدا انه كان بعين وعين.. فيهم عين مطموسة تحس انه بيشوف بيها بس منظرها غريب.. الناس خافت وقالوا انه ابن النداهة..

(عوض) قال انه لما راح لمكان صراخ الست لقى الطفل ده هناك.. مكنش بيعيط.. شاله وجه، أهل البلد مكنوش عارفين يتصرفوا ازاي.. كانت قصة كبيرة، مفيش غير شيخ الجامع كان راجل طيب، قال يربيه ويكسب فيه ثواب، وفعلًا رباه وطلع (جابر).

سأله (محفوظ):

- والشيخ ده راح فين..؟

أجاب (سيد):

- مات من زمان.. البيت اللي فيه (جابر) في الأصل بيته.. ولأنه مكنش متجوز، ولا كان له أصلًا قرايب قعد (جابر) مكانه.

ماتت الكثير من الأسئلة في صدر (محفوظ) بعد كلام (سيد) وولدت أسئلة أخرى.

كنت أملك كل الإجابات لكن كالعادة كنت أحب أن أراقب في صمت..!

***

٩

(خالد)..

داخل منزله..

كان يشعر بثقلٍ في رأسه يدفع إلى النوم.. لا يرغب أن ينام حتى لا تهاجمه الكوابيس البشعة.. رغم ذلك انتشر الثقل في كل خلية من خلايا جسده..

كان قد أصابه الإحباط بعد حديثة مع (سعدية).. ماذا يعني في البداية أن يعثر على جثة من المفترض أنها جثة (محفوظ) ثم يكتشف أنها جثة أخرى؟.. وماذا عن شهادة وفاته؟.. أين ذهبت جثته إذًا؟.. وكلام (سعدية) حول أنه ما زال على قيد الحياة..

آخر حوار أجراه مع (عمرو) لم يستفد منه شيئًا.. القضية سوف تغلق.. لا طائل من البحث عن ماضي ميت..

لا تزال الهواجس والظلال المرعبة تطارده بإصرارٍ رهيب.. لم يعد أمامه طريق سوى طريق (جابر).. معظم الخيوط توقفت عنده وازدادت غموضًا..

ارتدى ملابسه وقرر أن يذهب للقاء (رضوى).. يعلم أنها أوشكت على الانتهاء من أداء فقرتها اليومية.. لم يكن يرغب في أن يقحمها في الموضوع من جديد لكن فقط كان يريد أن يجلس ويتحدث معها..

ركب سيارته وانطلق على مهل..

وبينما هو يقترب من (الكازينو) رن هاتفه المحمول.. يضيء وينطفئ عدة مرات..

نظر نظرة خاطفة على اسم المتصل.. (رضوى)..

أجاب:

- بنت حلال.. أنا كنت في طريقي ليكي.

انسل منها صوت واهن:

- أنا خلصت الفقرة ومروحة البيت.

- انتي تعبانة..؟

غمغمت:

- شوية.

سألها:

- أنت فين دلوقتي..؟

- ماشية في شارع ٧٧.

- آه.. ده اللي وراء الكازينو مباشرةً.

- تمام.. أنا...

وفجأة بترت عبارتها وأطلقت صرخة ذعرٍ هائلة.

- (رضوى).. (رضوى).

لكنها لم تجبه..

الخط أغلق..

حاول الاتصال بها عدة مرات لكن هاتفها يرن ولا ترد.. أدرك أنها تتعرض للخطر.. زاد من سرعة سيارته ولم تعد متزنة على الطريق.. كان يندفع بها بجنون.. لكن ما هي طبيعة الخطر الذي تتعرض له (رضوى)..؟

قبل ذلك..

أحنت (رضوى) رأسها للجمهور حين انتهت من أداء فقرتها اليومية، ثم اجتازت الطاولات والحشد الموجود وذهبت تجاه (البار) كعادتها..

في طريقها تلقت الكثير من الإشادة والإعجاب، رغم ذلك لم تكن سعيدة، تعلم أنها غنت جيدًا لكن الغناء لم يكن ينبع من قلبها.. فقط بعض الموسيقى والآهات الممتدة ذات الشجن العميق..

- اتفضلي.

وضع أمامها (باول) شرابها المعتاد فتناولته منه بشرود، وهي تنفث دخان سيجارتها.. سألها:

- مالك..؟

أجابته:

- دماغي مشغولة.

- الواد اللي جه من يومين هو السبب..؟

- عرفت ازاي.

- يومها كان واضح انه عاوزك لحاجة مهمة.

- طريقة كلامه مكنتش لواحد معجب أو حد جاي يتسلى، اللي زي ده جاي ومعاه مشكلة.

أفرغت المشروب في جوفها ثم قالت:

- غلط.. هو مش جاي معاه مشكلة.. ده جاي ومعاه مصيبة.

ابتسم (باول) ابتسامة شحيحة ثم قال:

- سيبك منه.

قالت:

- الكلام سهل.

نصحها قائلًا:

- روحي.. ارجعي البيت دلوقتي.

اعترضت:

- لكن...

قاطعها:

- اسمعي الكلام وروحي.

- شايف كدا..؟

- أيوه.

نهضت من مقعدها:

- ماشي.

سألها:

- تحبي اطلب لك أوبر.

- لا بلاش.. عاوزة اتمشى شوية.

- براحتك.. بس خلي بالك من نفسك.

- سلام.

خرجت من (الكازينو) ومشت في شارع ٧٧ بخطواتٍ بطيئة.. الشارع مظلم تقريبًا كما أنه خالٍ من البشر..

ضمت معطفها إلى صدرها لتتقي شر الهواء البارد الذي ساد الأجواء..

أخرجت هاتفها واتصلت بـ (خالد).. كانت ترغب في الحديث مع هذا الوغد.. أخبرها أنه في طريقه إليها.. أرادت أن يمتد الحديث معه حتى يصل، لكن وسط المكالمة سقط الهاتف من يدها وأطلقت صرخة هائلة..

ومن وسط الظلام انبثق أمامها مخلوق ينتمي إلى عالمٍ غير عالمنا.

***

- قوم اخرج غير جو شوية.

قالتها (وطنية) وهي تفتح الباب على (محفوظ) الذي غارت عيناه للداخل بسبب الأرق وقلة النوم.. هز رأسه في إرهاقٍ ثم أجابها بصوتٍ مبحوح:

- أنا كدا كويس.

- لا كدا مينفعش خالص.

قابل كلامها بالصمت.. عادت تقول:

- لو فضلت على كدا أنا هتصل بأبوك يجي ياخدك.

قرأ الجدية والغضب في ملامحها.. استسلم لكلامها قائلًا:

- حاضر.

سألته:

- هتروح فين..؟

أجابها:

- هقعد شوية في الحديقة اللي على أول البلد.

ثم ارتدى ملابسه وخرج..

في الطريق تذكر صديقته (نهلة).. أخبرته ذات يومٍ أنها

استطاعت الحصول على بعض المعلومات من خلال موظفٍ يعمل في أرشيف السجل المدني لديها صلة قرابة به.

سأل نفسه: ماذا لو كان بإمكانها أن تحصل منه على معلومات حول (جابر)؟

بالتأكيد أوراق الحكومة هي أوراق موثقة.. لا يمكن لأي شخصٍ أن يعيش بلا هوية حتى لو كان شخصًا مثل (جابر).. وقتها سوف يعرف حقيقة كل ما يثار حوله من أساطير..

قرر أن يتصل بها..

كان يحمل في جيبه كارت اتصال خاص بكبائن الهاتف المنتشرة في الشوارع..

أقرب كابينة له كانت أمام الحديقة العامة للبلد.. تمشى قليلًا حتى وصل إليها.. لم تكن شاغرة.. عدد قليل موجود.. أكثرهم أطفال يعبثون بالأراجيح المتهالكة الصدئة..

كانت الأعشاب على الأرض ندية بعدما قام أحد الأطفال بفتح صنبور الماء..

تجاوز كل ذلك ثم عبر إلى كابينة الهاتف..

وضع الكارت وطلب الرقم.. جاءه صوت (نهلة):

- ألو.

- (نهلة).. أخبارك.

- (محفوظ).. أنا فكرتك مت يا ابني.

ضحك قائلًا:

- عمر الشقي بقي.

- وإيه الأخبار يا عم الشقي؟

- كله تمام.. أنا بتصل اطمن عليكي و...

قاطعته:

- من الآخر.. عاوز إيه..؟

- خدمة كبيرة ومش هنساهالك.

- خدمة.. امممم.. خدمة إيه بالضبط..؟

- فيه واحد اسمه (جابر) عاوز اعرف كل حاجة عنه.

- ماشي.. بس عاوزه اسمه كامل وعنوانه.

أملاها البيانات المطلوبة ثم قال:

- عاوز المعلومات دي في أقرب وقت.

- بس بفلوس.. معاك تدفع؟

- ادفعي ونبقى نتحاسب بعدين.

- حسابك تقل معايا يا شبح.

- عيب عليكي.. أنا مضمون.. المهم الراجل بتاعك هيعرف يجيب

المعلومات المطلوبة؟

- يا ابني خد كلامي ثقة.. ده اللي أنت بتطلبه لعب عيال بالنسبة له.. ده يقدر يعمل كل حاجة.. يغير شهادة ميلادك.. يبدل بيانات بطاقتك.. المهم المصاري يا شبح.

- تشكرات

***

أمام منضدة داخل أحد (الكافيهات) وضع العامل فنجانين من القهوة أمام (خالد) و(رضوى) ثم انصرف..

- واضح انك كمان بقيتي مطاردة منه.

قالها (خالد) ورشف رشفة صغيرة من القهوة ثم أشعل سيجارة ومضى ينفث دخانها في بطء..

كان قد وصل إلى (رضوى) فوجدها منهارة في الشارع تبكي من فرط الرعب الذي مرت به.. لم تكن قادرة على الكلام..

خلال طريق وصوله إليها، ظن أنها قد تكون تعرضت لاعتداءٍ بدني أو حادث طريق..

ما حدث لها لم يكن يجول بخاطره.. كان يظن أنها بمنأى عن الشر الذي يطارده..

سألته:

- ده اللي بيظهر لك..؟

هز رأسه قائلًا:

- تقريبًا هو.

شهقت قائلة:

- يعني دلوقتي أنا بقيت زيك..؟

أجابها:

- ممكن تكون حاجة عابرة.

- وممكن لا.

ثم تناولت فنجان قهوتها ومضت تحتسيها في صمت.. قال (خالد):

- مش مؤذي.

قطبت جبينها قائلة:

- أفندم..؟

- زي ما قلت لك.. ظهوره بيقتصر على حاجات معينة.. عند حد معين بيقف.

قالت:

- أو ممكن بيلعب معانا.. زي لعبة القط والفار.. يفضل يلاعب الفار لغاية لما يقتله.

لم يعقب على كلامها.. عادت تقول:

- ده أكيد اللي بيحصل.. المرحلة الجاية هيظهر على حقيقته.

ابتسم قائلًا:

- جايبه الكلام ده منين؟

- من أفلام الرعب.. هو فيه غيرها.

- متصدقيش كل حاجة.

سحب نفسًا آخر من السيجارة ثم أردف:

- على العموم لو أي حاجة حصلت تاني كلميني مباشرةً.

سألته:

- أنت مسافر..؟

- آه.. مضطر أروح شغل تبع المجلة.. بقالي مدة مهمل جدًّا فيه.. وامبارح كان فيه إنذار بالفصل.

- وسط اللي بيحصل رايح تشتغل.

ضيقت عينيها وهي تنظر له قائلة:

- (خالد).. أنا مش عيلة صغيرة.

ابتسم دون أن ينظر إليها قائلًا:

- لا طبعًا.. ده انتي ست البنات و...

قاطعته:

- كلمني بصراحة.

هتف:

- ما أنا بكلمك بصراحة.

صاحت:

- لا.. أنت بتكذب.

- طيب بالراحة كدا.. الناس بدأت تبص علينا.. انتي عاوزه توصلي لإيه بالضبط..؟

قالت:

- أنت رايح حتة معينة ومش عاوز تقولي.. خايف اجي معاك.. وعمال تحور عليا في الكلام.

صمتت للحظة بحثًا عن أي رد فعلٍ على ملامحه ثم أردفت:

- ومفيش غير مكان واحد هو اللي ممكن تروح له.

سألها بعصبيةٍ وهو يسحب نفسًا أخيرًا من السيجارة:

- مكان إيه..؟

- بيت (جابر).

وكانت محقة تمامًا في استنتاجها.

***

توقفت (نهلة) بسيارتها أمام (محفوظ) الذي كان في انتظارها أسفل منزل خالته..

فتحت له باب السيارة قائلة:

- ادخل يا شبح.

ابتسم قائلًا:

- سريعة انتي.

قالت بمرح:

- إحنا في عصر السرعة يا صديقي.

ثم ناولته مظروفًا أصفر اللون، تم ربطه برباطٍ مطاطي قائلة:

- دي الأوراق اللي أنت عاوزها.

عندما أصبح المظروف في يده، شعر بمزيجٍ عجيب من القلق والفضول واللهفة..

فض المظروف ببطء.. في الداخل كانت توجد ثلاث ورقات مطوية.. في نهاية كل ورقة أكثر من ختم وتوقيع كادوا أن يتلاشوا بفعل الزمن والأحبار الرديئة المستخدمة...

أول ورقة كانت شهادة ميلاد (جابر).. الثانية عقد زواج والده ووالدته، الثالثة شهادته العسكرية، وفيش جنائي.

لا شيء غريب..

مجرد شخص عادي لأب وأم من إحدى مدن وجه قبلي.. حسب تاريخ الميلاد يبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا.. التحق بالجيش إبان فترة التجنيد وقضى ثلاث سنوات في سلاح المدفعية.. توجد له سابقة جنائية واحدة وتم سجنه عامان في سجن القناطر بتهمة الدجل والشعوذة والنصب.

قال (محفوظ) بتعجب:

- كل الكلام اللي اتقال عنه كذب.. ده نصاب.. أمال إيه سبب كل الحاجات اللي بتحصل..؟

لكن قبل يعرف الإجابة، أريد أن أخبرك كيف وصلت هذه الأوراق إلى يديه..؟

لهذا قصة سريعة..

اسمه (دسوقي) المسؤول عن أرشيف السجل المدني.. رجل كبير، ناضج، يمتلك شاربًا صغيرًا يشبه شارب هتلر وكان يعتز به جدًّا..

تعاقبت عليه أجيال وأجيال بينما هو قابع في غرفة صغيرة أسفل السلم تحتوي على أطنان هائلة من الأوراق والملفات.. يبدو كذاكرة قديمة يسكن فيها كل شيء.. ربما كان شخصًا بائسًا لكنه كان سعيدًا بمكانه، لا أحد ينكر أن النمل يكون سعيدًا بالعيش داخل الشقوق..

في هذا المساء كان وحيدًا في المنزل.. زوجته تزور أخته التي طلقت منذ ستة شهور، وتحاول إقناعها بزوجٍ جديد، عامل نظافة يعمل في مدرسة لغات.. الأولاد يلعبون في الشارع، ومن حينٍ

لآخر كان يسمع صوت أحد الجيران.

- يا (دسوقي).. لم ولادك.

كان يجلس على أريكته الضيقة وسط الصالة، يشاهد التلفاز، ويضع فوق صدره طبقًا مليئًا باللب الأبيض..

بعد قليل جاءه اتصال من (نهلة) التي تطلب فيه أوراقًا معينة لشخصٍ اسمه (جابر)..

نظر إلى ساعته، ثم قال بنبرةٍ روتينية:

- ألف جنيه.

- كتير.

- take it or leave it

اعتاد على تكرار تلك الجملة، يشاهدها مرارًا وتكرارًا في الأفلام الأجنبية.. إنها أشبه بجملة "أنا رجل كلمتي واحدة"

ثوانٍ ثم جاءته الإجابة:

- موافقة.

لمعت عيناه، ثم أسرع يرتدي ملابسه.. ألف جنيه مبلغ جيد، سوف يدفئ جيبه البارد الخالي..

لم تعد الأمور كسابق عهدها، حين كان يأتيه كل يومين أو ثلاثة شخص يريد ورقةً ما، الآن الناس أصبحوا أكثر عملية وأكثر حبًا للأموال.. لم يعد أحد يضع أمواله إلا في شيءٍ خطير ومهم، وبلا

شك هذا الورق مهم..

وصل إلى السجل قرب التاسعة، ثم سار مثل الشبح بالممرات، لا أحد يعيره انتباهًا..

إنه واحد من الأشخاص المعتاد وجودهم دائمًا..

دخل إلى حجرة الأرشيف، صار له ثلاثون عامًا في هذا المكان.. تناول سلمًا خشبيًا متهالكًا ووضعه بجوار أحد الأرفف ثم صعد عليه..

بحركاتٍ سريعة راح يمرر يده بين الملفات، وفي خلال نصف ساعة كان قد حصل على كل الأوراق المطلوبة..

الغريب أنه بمجرد أن جمع الورق، شعر بصداعٍ في رأسه، وارتج عقله داخل جمجمته لثوانٍ، كاد أن يفقد الوعي ويهوي من فوق السلم، لولا أن تشبث بالحافة الخشبية للرف، ثم بدأ في النزول..

جلس على طرف مقهى بلدي قديم يشبه ذلك الذي كان يظهر في الأفلام العربية القديمة، لا ينقصه غير (محمود المليجي) و(فريد شوقي) ثم غناء ورقص (هدى سلطان)...

بعد قليل وعلى الناحية المقابلة، ظهرت (نهلة) بسيارتها..

أرعشت له نور السيارة الأمامي ٣ رعشات سريعة.. كانت تلك هي الإشارة التي اتفقت عليها معه لتعلن عن وصولها..

نهض من مكانه واقترب منها.. كانت هذه ثاني معاملة معها.. لطيفة جدًا.. شعرها طويل كستنائي... عيناها واسعتان لونهما

أزرق.. لديها حسنة صغيرة جدًّا على شفتها، قالت بصوتٍ ناعم:

- مساء الخير.

- مساء النور.

- الورق معاك؟

قالها وهو ينظر إلى عينيها.

- جبتي الفلوس..؟

- اتفضل.

ناولته رزمة نقود فناولها الظرف فورًا.. قال:

- أي خدمة.

انطلقت بالسيارة بسرعة بينما ظل في مكانه يتابعها ببصره بينما يغمغم:

- قمر.

ثم عاد إلى مكانه على المقهى بينما يخرج النقود التي أعطتها له.. عادةً كان يقوم بعد النقود قبل أن يناول الزبون الورق المطلوب لكنها سحرته..

وكما توقع.. لم يكن المبلغ كاملًا.. لقد أعطته النصف فقط.. وضع النقود في جيبه وهو لا يزال يغمغم:

- بس قمر برضه.

***

لم يكن (خالد) يرغب في اصطحاب (رضوى) معه وهو ذاهب إلى منزل (جابر) لكنها أصرت أن تكون معه..

- أنا جاية معاك.

- الموضوع ممكن يكون فيه خطر عليكي.. خليكي هنا أحسن وأنا هبقى اتصل بيكي وأقولك عملت إيه واطمنك.

أمسكت يده قائلة:

- أنا هبقى مطمنة أكتر وأنا معاك..؟

- اسمعي الكلام يا مجنونة.

- أنت قلت.. أنا مجنونة.

- يعني مفيش فايدة معاكي.

- لا مفيش.

انطلقا بالسيارة في الخامسة مساءً..

فجأة هبطت عليهما ظلمة مخيفة.. لم تكن الظلمة شديدة في بادئ الأمر، فقد كان ضوء المصابيح يبددها، لكن بعد قليل بدأ الضباب يملأ الأجواء وزادت الظلمة وانحسر الضوء..

سألته:

- إحنا فين دلوقتي؟

- حسب ال GPS المفروض إننا قربنا.. عشرة كيلومتر ونوصل.

فجأة ارتجت بهم العربة بقوةٍ نتيجة حفرة في الطريق.. شدد من قبضته على عجلة القيادة لدرجة أن مفاصل أصابع يده ابيضت..

قالت:

- خلي بالك.

غمغم:

- عتمة غريبة.

- المناطق الريفية كدا وخصوصًا إن مفيش عواميد على الطريق.

كان الطريق موحشًا بحق..

حين وصلا إلى منزل (جابر) كان الليل قد انتصف.. المنزل صار أشبه بمكانٍ مهجورٍ مرعب..

قال (خالد) بينما يطفئ محرك السيارة:

- يلا بينا.

خرج من السيارة..

اقترب من باب المنزل.. تلفت حول نفسه يمينًا ويسارًا.. لا أحد في الشارع..

دفع الباب دفعة قوية فتحرك معه.. استقبلته رائحة عطنة وغبار كثير.. أحس برعدةٍ مفاجئة..

جذب يد (رضوى) ودخل ثم أغلق الباب خلفهما.. في الداخل كان كل شيءٍ غارقًا في الظلام والسكون.. أشعل كشافًا صغيرًا كان يحمله..

ألصقت (رضوى) كتفها بكتفه كأنها تقتحم منزل رعب..

أول شيءٍ لاحظه أن الأثاث مبعثر والتراب وخيوط العنكبوت يغطيان كل شيء.. قال:

- البيت شكله مهجور من زمان قوي.

انحنى لالتقاط مذكرة صغيرة من على الأرض ممزقة جزئيًّا، ثم نفض التراب العالق فوقها.. تصفحها باهتمام.. سألته (رضوى):

- مكتوب فيها إيه..؟

- معظم الصفحات متقطعة.. بس واضح انها بتاعة (محفوظ).. اسمه مكتوب عليها.. وفيها شوية ملاحظات عن واحد اسمه (جابر) وطفل اسمه (ضياء).. أنا حاسس إننا قربنا نعرف كل حاجة.

- (خالد) تعال بص.

استدار على وقع كلامها.. كان هناك باب غرفة مفتوح.. وعلى الأرض هناك شيء موجود..

وضع المذكرة في جيبه وذهب هناك..

حين وصل تجمد في مكانه.. اكتشف جثة طفلٍ وجهه ملتصق بالأرض..

حاولت (رضوى) أن تتبعه لكنه أشار لها بأن تظل في مكانها..

ركع على الأرض وأعاد وضع الجثة على ظهرها.. كان وجه الطفل يحمل لمحة من الرعب..

طرقت (رضوى) بإصبعها فأجفل.. التفت إليها قائلًا:

- عاوزه إيه..؟

- مالك.. بقالك عشر دقايق متجمد في مكانك؟

- أصل...

ثم بتر عبارته حين أعاد النظر إلى موضع جثة الطفل.. لم تكن موجودة.. مجرد كومة من الثياب موجودة..

اقتربت منه وقالت بحنق:

- في إيه غريب في الهدوم دي..؟

تردد وقال:

- لا.. مفيش حاجة.

نهض من مكانه وأمسك يدها ثم صعد الدرج إلى الطابق الثاني.. بعد لحظة قالت:

- أنا حاسه إن إحنا جوه بيت أشباح.

- ليه بتقولي كدا؟

- مش عارفة احدد ليه.. تقدر تقول دي الحاسة السادسة.

حاول أن يطمئنها قائلًا:

- متخافيش.. اقرأي قرآن في سرك.

قالت:

- أنا عاوزه اخرج من هنا.

- أبص بصة سريعة على الدور التاني، وهنخرج من هنا.. أوعدك.

- أنت متوقع تلاقي إيه..؟

- جثة (محفوظ).. في حاجة بتقول لي إن هعرف اللي حصل له.

- أنت قصدك إن اللي بيظهر لك هو (محفوظ)..؟

- أيوه.. انتي سمعتي قبل كدا عن الروح المغدورة..؟

- لا.

- الروح المغدورة دي بتبقى ماتت بسحر أو بشيء شيطاني.. وبتفضل روحها تتعذب لغاية لما حقها يجي أو يتم العثور على جثتها ودفنها بطريقة كويسة.

- أنت كدا بتتكلم عن فيلم THE RING

- حاجة زي كدا.

كانا قد وصلا إلى الطابق الثاني.. ترك يد (رضوى) وقال لها:

- استني هنا.

ثم ذهب تجاه غرفة مغلقة مرسوم فوق بابها أحد الرسوم لكائن شيطاني يحمل وجه التيس..

رغم أنه لم يلمس الباب لكنه كان ينفتح رويدًا رويدًا..

عبر من الباب وهو يبسمل ويحوقل.. أمامه نافذة زجاجية.. يمكنه عبرها رؤية الشارع والمنزل المقابل.. كانت هذه غرفة (ضياء) والمنزل هو منزل (وطنية).. فجأة تلونت الغرفة من حوله.. حمراء قانية بلون الدم..

سمع (رضوى) تصرخ بذعرٍ هائل..

التفت نحوها..

من تحت الأرض انبثقت يد عملاقة..

عبر (خالد) نصف المسافة التي تفصله بين (رضوى) في قفزةٍ واحدة..

قبضت اليد العملاقة على (رضوى) التي صرخت تستنجد به:

- (خالد)!

- (رضوى)!

حاول أن يمسكها.. الغرفة ازدادت اتساعًا على نحوٍ عجيب.. امتدت أرضيتها وعلت حوائطها..

رغم أن المسافة بينهما كانت تتسع لكنه لم يتوقف عن الجري..

شعر أنه يجري داخل مضمار سباقٍ كبير..

استطاع أن يقترب منها..

مد يده فلامست أصابعه أصابعها.. أوشك أن يمسكها.. في تلك اللحظة تلاقت عيناه بعينيها.. هتفت:

- انقذني.

وقبل أن يرد غاصت بها اليد واختفت تحت الأرض.

***

عبثًا حاول (محفوظ) إقناع (نهلة) بالبقاء والمبيت عند خالته حتى الصباح لكنها رفضت.

- مش هينفع.. ماما ممكن تقتلني.

- اسمعي كلامي الوقت متأخر قوي.

لكنها رفضت أن تستمع..

بعد قليل كانت تنطلق بسيارتها وسط الطريق الزراعي، وحاولت أن تشغل عقلها بنسمة الهواء الباردة التي تداعبه بدلًا من التفكير في الليل والظلام..

فجأة أصدرت السيارة صوت فرقعة عنيفة ثم ارتجت وتوقفت في مكانها..

ضربت المقود بيدها وهي تصرخ:

- ده وقته.

هبطت من السيارة.. نظرت فيما حولها.. كانت تقف وسط طريقٍ مهجور..

فتحت غطاء محرك السيارة.. لم تكن تعلم شيئًا عن ميكانيكا السيارات لكنها تمنت أن ترى شيئًا غير مألوف وتحاول إصلاحه..

فجأة تجمدت في مكانها..

تملكها رعب فظيع، ورعشة باردة ضربت عمودها الفقري حين رفعت وجهها من وراء غطاء المحرك..

على مسافة بضعة أمتار قليلة منها كان يقف شخص ضخم الحجم، لا يظهر شيء من ملامحه، جامد مثل جلمود صخرٍ بارد..

شعرت أنها وحيدة أكثر من أي وقتٍ مضى بينما تلتفت حول نفسها..

لا يبدو أنه يريد بها خيرًا..

مدت يدها بحذرٍ إلى حقيبتها وأخرجت منها رذاذ الفلفل الحار للدفاع عن نفسها..

صاحت:

- أنت مين..؟

لكنه لم يرد عليها.. فقط اختفى من أمامها..

فكرت أن هذا مجرد خيال أو وهم..

حاولت أن تضحك وتداعب نفسها.. لم تجد أمامها بدًّا من السير والعودة إلى منزل (وطنية) والانتظار حتى الصباح..

تأكدت من إغلاق أبواب السيارة جيدًا ثم سارت بخطواتٍ سريعة جدًّا وتعمدت أن تسير وسط طريق الإسفلت..

كانت الكلاب من حولها تنبح بلا كلل أو ملل..

ضغطت القبعة على رأسها بأقصى ما تستطيع، تريد أن تخدع من يراها ويعتقد أنها رجل، خاصةً أنها كانت ترتدي بنطال جينز وقميصًا طويلًا..

كلما انقضت دقيقة على هذا الطريق الموحش، أحست أن يومًا قد انقضى..

ظلت تسير..

لم تعد تعلم الوقت، كانت متصلبة العينين..

فجأة شعرت أن أحدًا يسير خلفها...

للمرة الثانية تلمح الظل نفسه الذي شاهدته منذ قليل، يبدو أنه يطاردها، خيال أسود يقترب منها ولا تستطيع تمييز وجهه أو ملابسه..

كل ما أمكنها رؤيته ظل حالك السواد..

جرت ببصرها فيما حولها.. لا مكان لتلجأ إليه.. هرولت بسرعةٍ مبتعدة، لا وقت كي تنتظر.. الحل أن تعود إلى سيارتها لتختبئ

بها..

رغم ذلك كان الظل مستمرًّا في متابعتها بإصرارٍ عجيب وبدا أنه لا يتعجل اصطيادها..

وصلت إلى السيارة، وأخرجت المفتاح من حقيبتها لكن قبل أن تضعه في الباب سقط من يدها.. شهقت ثم انحنت على الأرض وتناولته.. شاهدت بطرفي عينيها الظل يكاد أن يصل إليها.. بسرعة فتحت الباب، وقبل أن يلمسها كانت قد أصبحت في داخل السيارة..

راحت تتأكد من إغلاق كل الأبواب والنوافذ جيدًا..

حتى تلك اللحظة كانت تعتقد أن ما يقترب منها هو شخص يريد بها السوء.. لم تكن تعلم أن ما يقترب منها ليس بشريًّا.. هو مخلوق آخر.. كائن شيطاني تم إرساله من أجلها..

شعرت باهتزازٍ شديد في بدن السيارة.. رفعت وجهها قليلًا، من مكانها المنخفض لمحت الخيال..

قبل أن تميز شيئًا، انقض الظل على السيارة ثم لطمها بيده..

صرخت..

السيارة تتأرجح بها يمينًا ويسارًا بقوةٍ هادرة..

علمت الآن أن هذا الشيء ليس بشرًا، لا يوجد أحد قادر على هز عربةٍ كهذه بمثل تلك القوة..

ما العمل..؟

فكرت..

كان ذهنها مشوشًا والعرق الغزير يسيل من وجهها..

مدت يدها بينما ترتجف أصابعها إلى قطعة حديدٍ عثرت عليها..
ضربة واحدة منها ربما تكون ذات فائدة..

لكنها تشك في ذلك..

على الأقل ملمس تلك القطعة يمنحها بعض الأمان القليل، القليل جدًّا..

الشيء مستمر في هز السيارة..

قوة الهز تزداد أكثر وأكثر، ثم فجأة ترتفع السيارة عاليًا بها، تصرخ مرة أخرى..

تنقلب السيارة في الهواء..

يصطدم رأسها بالمقود وتسقط منها القطعة الحديدية.. يدور الشيء حول السيارة دورةً أخيرة ثم ينحني نحوها..

كان وعيها يزحف تجاه الظلام.. شاهدت ملامح الشيء.. إنه رجل مسلوخ الوجه.. عيناه منزوعتان من مقلتيهما.. فكه عارٍ من اللحم.

١٠

(خالد)..

ما زال في منزل (جابر)..

بعدما اختفت (رضوى) حاول أن يتمالك نفسه.. بحث في كل ركنٍ باستماتة.. صعد إلى الطابق الأخير.. كان مغمورًا بالظلام والرائحة العطنة.. الأثاث مقلوب والنوافذ مهشمة.. الجدران خربة تمتلئ بالثقوب.. من حينٍ لآخر كان يلقي نظرة على ساعته.. ثلاث ساعات مرت على اختفائها.. أوشك أن يأتي بالبنزين ويحرق هذا البيت بما فيه.

- بلاش أفكار مجنونة.

التفت نحوي..

أكثر من دقيقة ينظر لي في صمتٍ محاولًا استجماع أفكاره تدريجيًّا.. كانت أجفانه منتفخة وبالتأكيد يشعر بالذعر من ظهوري فجأة.. قال بعد برهة:

- أنت..؟

- أيوه أنا.

سأل:

- عايز إيه..؟

قلت وأنا أقترب منه:

- بلاش أفكار مجنونة.. هتستفيد إيه لو حرقت البيت.

لاحظت أنه يحدق بجبيني.. عاد يسأل:

- وأنت عرفت ازاي اني عاوز اعمل كدا..؟

- تقدر تقول هبة من عند ربنا.

- مين أنت بالضبط..؟

- عبد من عبيد ربنا زيك.

- أنت المسيخ الدجال.. صح..؟

أشرت إلى جبيني قائلًا:

- أنت شايف كلمة (كافر) هنا؟

ضيق حدقتي عينيه وهو يعيد النظر إلى جبهتي قائلًا:

- لا.

قلت بنبرةٍ حاسمة:

- يبقى أنا مش المسيخ الدجال.

- بس أنا إيماني ضعيف.. ممكن يكون مكتوب ومش قادر اشوف.

تركت كلامه معلقًا في الهواء ولم أرد.. عاد يسأل:

- أنت مين بجد..؟

- زي ما قلت ليك من شوية.. أنا عبد من عبيد ربنا.

- عاوز مني إيه..؟

- عاوز أساعدك.

جذبت يده كأننا أصدقاء قدماء وقلت:

- تعال نخرج من هنا.. المكان بيخنق.

سرنا سويًّا بخطواتٍ متباطئة..

في الخارج كان الشارع نصف مظلم تضيئه بعض أعمدة الإنارة القليلة ذات الأضواء الشاحبة..

مجرد أن مررت من جوارها بدأت أنوار الأعمدة تخفت ببطءٍ ثم تنطفئ..

ظهر الذعر جليًّا على وجهه.. قال:

- ده فعل شيطاني.

- عواميد نور بايظة.

تعجب قائلًا:

- كلها..!

- حكمة ربنا بقى.

ثم استرسلت في كلامي:

- دع الخلق للخالق.

- أنت قلت انك جاي تساعدني..؟

- صحيح.

هتف:

- ساعدني أرجع (رضوى).

- صعب.

فقد السيطرة على نفسه ثم شدد قبضته فجأة وضرب بها أقرب حائط إليه قائلًا:

- مفيش حاجة اسمها صعب.

قلت مؤنبًا:

- اهدأ واسمعني كويس.

- سامعك بس أنت اللي عمال تقول كلام غريب.

- لازم تعرف ان المكان اللي فيه (رضوى) اللي بيروحه مبيرجعش منه.

- هي فين بالضبط..؟

- عندهم.

- مين دول..؟

كنت أسير على يمينه.. لكن فجأة انتقلت وصرت على يساره في لمح البصر.. قلت:

- تقدر تقول العالم الآخر.. عالم بيحكمه كيان مجهول الهوية.. عالم أنا كنت في يوم من الأيام عايش فيه.

نظر إليّ بارتيابٍ قائلًا:

- وإيه اللي جابك عندنا؟

- كل ملك بيعاقب عبيده.. تقدر تقول اني بتعاقب.

- و(رضوى) ذنبها إيه..؟

- العالم ده مبني على التوازنات.. لو خدت منه حاجة لازم تدفع تمنها في يوم من الأيام.

- أنا مش فاهم حاجة..؟

- مش مهم تفهم دلوقتي.. المهم...

قاطعني:

- المهم (رضوى).

- زي ما قلت لك من شوية صعب ترجعها.

اكتسحه إحباط عميق قائلًا:

- يعني مفيش أمل..؟

- قلت صعب لكن مش مستحيل.

عاد إليه الأمل قائلًا:

- يعني ممكن ترجع..؟

أجبته بنبرةٍ واثقة:

- ممكن.

- أعمل إيه بالضبط..؟

- أنا هقولك تعمل إيه.

- لو طلبت مني أروح الجحيم هروح.

حاولت أن أبدو غامضًا فقلت:

- الجحيم أهون من المكان اللي أنت رايح له.

طلبت منه أن يصغي إليّ جيدًا وأخبرته عن كل شيء..

بعد نصف ساعة كان يجري عائدًا إلى سيارته بسرعة مثل سهمٍ منطلق.. أدار المحرك ثم ضغط على (دواسة) الوقود حتى كادت أن تلتصق بالأرض، وفي خلال لحظات كان قد غادر..

لوحت له بيدي مودعًا إياه..

من المؤكد أنه ذاهب في طريقٍ لا عودة منه.

***

(محفوظ)..

لم تكن بداية اليوم الجيدة توحي بما ستؤول إليه الأمور فيما بعد..

استيقظ مبكرًا مع بداية شروق الشمس، وهو يشعر بنشاطٍ جم وراحة نفسية كبيرة خصوصًا بعدما تأكد أن (جابر) مجرد نصاب لا ضرر منه..

قام بإعداد الإفطار على غير عادته، ثم ذهب لإيقاظ خالته وهو يدندن بلحن أغنيةٍ صباحية شهيرة..

طرق باب غرفتها طرقة خفيفة قبل أن يسمع صوتها قائلة:

- ادخل يا (محفوظ).

لم يتوقع أن تكون مستيقظة..

حين دخل عليها كانت تجلس على الفراش، والإرهاق يبدو جليًّا على وجهها..

سألها بقلق:

- أنت كويسة..؟

- أنا بخير.. متقلقش.

- شكلك منمتيش..؟

- كابوس بعيد عنك.. من بعده وأنا مش قادرة أنام.

جلس بجوارها ثم قال:

- ما تحكي لي عنه.

ظلت صامتة كأنها تستجمع شجاعتها كي تتذكر هذا الكابوس وتكون قادرة على سرد تفاصيله قبل أن تقول:

- بلاش.. بيقولوا إن لو حكيت عنه ممكن يتحقق.

ابتسم قائلًا:

- كل دي تخاريف.

- خلينا في الأمان أحسن.

انتابه فضول هائل.. قال:

- طيب احكي لي وأنا هقولك على مفاجأة كبيرة اكتشفتها عن (جابر).

نظرت له بغيظٍ شديد قائلة:

- أنا مش قبل كدا قلت لك خليك في حالك وابعد عنه.

- أصل (جابر) ده نصاب.. صدقيني.

- مش عاوزه اسمع متكملش.

- بقولك هو...

قاطعته بحزم:

- اسكت.

استسلم قائلًا:

- حاضر.

ثم عاد يسألها:

- تفطري دلوقتي.. أنا جهزت الفطار.

- الساعة دلوقتي كام..؟

- سابعة.

نزلت من فوق الفراش ثم قالت:

- ماشي.. يلا نفطر.

جلسا حول مائدة الطعام يتناولان الإفطار في صمتٍ قبل أن يقترح عليها قائلًا:

- تحبي انزل افتح الدكان مكانك وتستريحي انتي النهارده..؟

- ومذاكرتك؟

- مفيش مشكلة.. هاخد الكتب معايا.

- طيب خلص فطارك وانزل وابقى ارجع وقت الغداء.

- إيه رأيك في الأكل..؟

- البيض المسلوق حلو.

- طيب مش هتحكي الكابوس اللي شوفتيه.

ضحكت نصف ضحكة ثم قالت:

- بطل زن.

نهض من مكانه قائلًا:

- على العموم أنا نازل.

قالت باستنكار:

- أنت مكلتش حاجة.

- لا.. أنا كدا تمام قوي.

ثم ارتدى معطفه ونزل الشارع..

كان يسير بهدوءٍ وهو يتأمل الشوارع الشبه فارغة في هذا التوقيت، وخصوصًا أن اليوم هو يوم الجمعة، يوم إجازة ولا توجد مدارس أو مصالح حكومية..

تذكر (نهلة) ..

نظر في ساعته.. كانت تقترب من الثامنة صباحًا.. كان يرغب أن يتصل بها لكن لديه شعور أنها قد تكون نائمة الآن في فراشها..

واصل السير قبل أن يلمح ازدحامًا كبيرًا وعربة شرطة متوقفة..

أسرع الخطى..

شعر قلبه بخوفٍ عجيب حين شاهد عربة (نهلة) مقلوبة وقد تهشمت نوافذها وتناثرت الشظايا الزجاجية الصغيرة حولها هنا

وهناك..

البـاب الجـانبي الـذي بجـوار السـائق كـان غـير مـوجـود.. تـوجـد خدوش تشبه المخالب الضخمة تجرح جانب السيارة..

اتسعت عيناه عن آخرهما..

شعور الخوف داخله تصاعد إلى أقصى حد..

لا يوجد أثر لـ (نهلة)!!

فقط بقعة دماء كبيرة فوق مقعد القيادة..!

***

مـع اقتـراب الليـل من منتصفه لمعت عينا بومة وسـط الظلام.. يخــرج منــها صـوت عميق متقطع يشـبه الأنـين.. صـوت ينـذر بالخراب..

تنتفض البومة فجأة قبل أن تنقض على فأرٍ صغير ثم تحمله بين مخالبها وتطير عائدة إلى مكانها فوق شجرة كثيفة الأغصان..

تابع (خالد) الموقف من وراء نافذة منزل (توفيق) بينما ترتسم على وجهه علامات التوتر..

لا توجد رياح لكن الجو كان باردًا..

أشعل سيجارة ثم نفث دخانها بقوة في الهواء وظل يراقبها بينما تتلاشى..

قال (توفيق) وهو يستلقي على فراشه الرث شبه المتهالك، ثم

يضع (بطانية) ثقيلة فوق قدمه:

- استريح.

لم يرد عليه (خالد)..

لم يبد عليه أنه قد سمعه حتى..

كنت قد أخبرته أن يذهب إلى (توفيق) ويخبره أنني من أرسلته وهو سوف يتكفل بالباقي..

أمامه مهمة شاقة..

أن يهبط إلى عالمهم وينقذ (رضوى) ثم يعود..

التفاصيل..!

لا توجد تفاصيل.. عليه أن يرتجل.. فقط أنا أرشدته إلى المكان وتركت له حرية التصرف..

لا أعلم ما ينتظره حتى أكون منصفًا.. كل من دخل هناك رأى شيئًا مختلفًا..

عاد (خالد) يختلس النظر إلى الخارج.. كان قد نسي سيجارته بين أصابعه مما جعلها تتحول إلى عمود من الرماد يوشك على الانهيار..

انتبه حين دخلت (خديجة).. كانت ترتدي سترة صوف ذات قلنسوة، وتحمل بين يديها كوب شاي ساخن تتصاعد منه رائحة القرنفل النفاذة..

قدمت الشاي إلى (توفيق) الذي تناوله منها في لهفة ثم مضى يحتسيه بسرعة غير عابئ بدرجة حرارته القادرة على حرق اللسان..

قال (توفيق) مخاطبًا (خالد) وهو يمضغ بقايا الشاي بين أسنانه بعدما وضع الكوب فارغًا على الأرض:

- في إيه بره مخليك مركز كدا..؟

التفت له (خالد) قائلًا:

- بحاول أضيع وقت.

- كل اللي ممكن تعمله دلوقتي انك تستريح.. أقولك حاجة.. خد لك مصحف واقعد اقرأ فيه.. كل اللي جم قبلك كانوا بيعملوا كدا.. ما تعمل زيهم.

- طيب.

ثم ساد صمت طويل..

من حينٍ لآخر كانت (خديجة) تنظر إلى (خالد) نظرة مغزاها؛ أن ارجع من حيث أتيت..

كان هذا مستحيلًا بالنسبة له..

أعطاهما (توفيق) ظهره ثم لف نفسه داخل (البطانية) حين قال:

- أنا هنام.. نصيحة مني ليك.. نام أنت كمان.

مضت بالكاد خمس دقائق ثم علا شخيره.. تركت (خديجة)

مكانـها ثـم ذهبـت وجلسـت بجـوار (خالـد).. قـالت لـه بصـوتٍ منخفض نسبيًّا:

- قولي.

نظر لها قائلًا:

- أفندم.

- بتحبها..؟

فكر في معنى سؤالها ثم قال:

- مش مسألة حب.. بس مقدرش اسيبها.

هزت كتفيها قليلًا كأنها تؤكد صحة كلامها ثم قالت:

- يبقى بتحبها.

لم يعلق بشيء.. عادت تقول:

- نصيحة مني خد نفسك وامشي من هنا، انساها، هي لها رب وهو الحفيظ.

بدا الإرهاق على وجهه حين قال:

- أنا السبب في اللي حصل لها وأنا اللي هخرجها من هناك.

- فـي حـاجات بتحصـل ومـش بـيكون فـي إيدنا حاجـة نمنعها.. أوقات كتيرة محاربة القدر بتجيب عواقب سيئة.

سألها وكأنه تذكر فجأة:

- أنت إيه حكايتك..؟

قطبت جبينها قائلة:

- ليه بتسأل السؤال ده..؟

- حاسس إن مكانك مش هنا.. مستحيل تكون دي حياتك أو عيشتك.. كمان كل حاجة بتعمليها وراها حزن وانكسار ويأس.

بوجهٍ عابسٍ قالت:

- أنا مش عاوزه افتكر.

- ليه..؟

أجابته بالصمت.. عاد يقول:

- جربي.. يمكن الحمل اللي أنت شايلاه يخف عنك.

أطرقت برأسها برهة ثم مضت تحكي كأنها تحدث نفسها:

- من حوالي ٢٠ سنة جيت هنا عند (توفيق).. دخلت ومن وقتها مخرجتش.. كان معايا جوزي (جمال).. وقتها كنت لسه شابة وجميلة وتقريبًا مكنتش فاهمة الدنيا صح..

(وفاء).. ده اسم بنتي الوحيده.. وأكتر حاجة بحبها في الدنيا دي.. كانت كل حاجة بالنسبة لي أنا و(جمال)..

بعد عيد ميلادها ال ١٢ حكت لي إنها صحيت بالليل من النوم فجأة.. لقت واحدة ست منظرها بشع، واقفة قصاد سريرها

وبتبص لها.. ملامحها جامدة.. أسنانها ظاهرة بشكل كبير ومرعب.. وشعرها منفوش وأبيض، وعينيها كانت بالطول، وكانت لابسة أسود في أسود.. وبعدين اختفت..

حاولت اطمنها وقلت لها تلاقيكي بتحلمي.. وبصراحة كنت مفكرة انها بتكذب..

مر كام يوم على الموقف ده وبدأت ألاحظ انها عمالة ترسم رسومات لمخلوقات بأحجام وأشكال مختلفة ومرعبة.. بس برضه ولغاية اللحظة دي مكنتش عارفة خطورة اللي بيحصل..

كنت بالليل سهرانة لما سمعت صوت جاي من أوضتها كأنها بتكلم حد.. جريت على هناك.. لكن لما وصلت عندها، لقيت واحدة ست واقفة قدام الباب، كأنها عاوزه تمنعني من الدخول.. كانت بتبتسم لي ابتسامة باردة خبيثة.. كانت ماسكة زي سبحة كبيرة في إيدها وعمالة تسبح عليها بس مش التسبيح اللي إحنا نعرفه..

بدأت أحس بحرارة شديدة، وتشتيت وتشويش على أفكاري بطريقة مش طبيعية.. مكنتش قادرة أتحرك أو أتحكم في أفكاري ولا في مخي.. أول لما ذكرت اسم ربنا اختفت مرة واحدة..

لما دخلت شفت (وفاء) نايمة على الأرض في نص الأوضة وعمالة تتنفض.. رجليها الاتنين مرفوعين لفوق.. عينيها بيضاء مقلوبة لوراء.. علامات خربشة على وشها ودراعتها.. دم كتير نازل من بين رجليها والأرض عبارة عن بركة دم صغيرة..

شلتها بسرعة وخرجت بيها.. (جمال) اتصل بدكتور ساكن معانا

في نفس العمارة.. بعد لما كشف عليها كانت المفاجأة.. البنت اتعرضت لانتهاك جنسي.. كانت مصيبة ونزلت علينا.. مكناش عارفين نتصرف ازاي.. لولا اني شفت بعيني كنت قلت إن حد اغتصبها..

بعد الموقف ده البنت أصيبت بحالة نفسية.. طول الوقت قاعدة لوحدها.. ودايمًا بنلاقي آثار عض على جسمها.. خدوش وعلامات زرقاء وأحيانًا علامات حروق..

إحنا مبقناش عارفين نعمل إيه!

لفينا على شيوخ كتير، وقساوسة، ودجالين.. منهم النصاب، ومنهم اللي بيقولوا بيعالج بالقرآن.. ومنهم اللي بيستخدم الصليب واسم المسيح.. مكنش فارق معانا احنا رايحين لمين.. كل اللي كنا عاوزينه ان الشيء اللي عليها يخرج منها.

(جمال) حكى لي انه شاف كابوس مرعب.. شاف (وفاء) متكتفة بحبال على الأرض.. والأرض كانت مليانة شقوق بيخرج منها سائل لونه أسود لزج زي الزيت.. وكان سامع صراخ رهيب جاي من بعيد.. وشاف ناس بتقرب منها.. جسمهم برضه أسود ودماغتهم رفيعة جدًّا.. وفضلوا يلمسوا كل جزء في جسم (وفاء) ويدهنوها بالسائل اللزج..!

اتواصلنا مع معالج روحاني مغربي.. جه البيت وبعد لما حكينا له وقعد مع (وفاء).. قال لنا إن فيه جن عاشق عاوزها بأي طريقة.. وان أصعب حاجة هو الجن العاشق لأنه بيكون جاي بإرادته مفيش حد مسلطه..

المغربي عمل لها جلسة طرد.. ولما خلص قال لنا انه حرق الجن..

إحنا اتطمنا..

خدت (وفاء) عشان تنام في حضني.. لكن الليلة دي اتحولت لجحيم فعلًا.. سمعنا صوت خبط جامد على باب أوضتها، وصوت الأثاث عمال يتكسر كأن حد عمال يتخانق أو بينتقم..

لما (جمال) راح يشوف في إيه.. شاف زي إيد بتحاول تدخل من تحت عقب الباب وتطلع لبره تاني.. اتفزع ورجع جري..

وقتها كانت (وفاء) نايمة على السرير.. بلتفت ناحيتها شفت الحيطة انشقت وخرج منها ضل سحبها معاه واختفى جوه الحيطه..!

كل ده حصل في لمح البصر من قبل حتى ما اصرخ.. بعد كام يوم ظهر لنا راجل غريب.. رفض يقول لنا اسمه.. قال انه عبد من عبيد ربنا.. قال انها اتخطفت وانها مبقتش في عالمنا.. وعرض علينا الحل.. بدايته كانت عند (توفيق).. ونهايته كانت مجهولة..

مكنش في إيدنا حاجة غير إن إحنا نصدقة.. جينا عند (توفيق) في ليلة غبرة.. (جمال) ركب حيوان غريب اسمه بغلة القبور وغاب طول الليل.. ومع شروق الشمس رجع.. رجع ميت.. و(وفاء) مرجعتش خالص.. وانا قعدت هنا.. مع (توفيق).. عايشة على أمل إن في يوم من الأيام بنتي ترجع تاني.

انتهت (خديجة) من حكايتها عند هذه النقطة، نظر إليها (خالد) وحاول أن ينتقي كلماته بعنايةٍ بالغة قائلًا:

- أنت إنسانة عظيمة.

حاولت أن تبتسم قائلة:

- أنا مش عاوزه مصيرك يبقى نفس مصير (جمال).

- متخافيش عليا.

في تلك اللحظة استيقظ (توفيق).. مد يده إلى جواره وتناول سيجارة ثم أشعلها وقال:

- انتم صاحيين وعمالين تحكوا.

قال (خالد):

- بنحاول نضيع وقت.. المهم هنتحرك امتى؟

في ضجرٍ واضح قال (توفيق):

- أخلص السيجارة ونخرج حالًا.

حين انتهى منها تناول عصا غليظة وأشار إلى (خالد) قائلًا:

- تعال ورايا.

حملت (خديجة) سترة (خالد) ثم ناولتها له وهي تقول:

- خلي بالك من نفسك.

ابتسم قائلًا:

- متقلقيش.

ثم ارتدى السترة لكنه شعر بوجود شيءٍ ثقيل في الجيب.. مد يده فلامس مسدسًا ذا ساقية دوارة، همست له (خديجة):

- خليه معاك.

هز رأسه وسار خلف (توفيق) بينما يسأله:

- رايحين فين دلوقتي..؟

أضاء (توفيق) كشافه قائلًا:

- العضامة.. وبلاش أسئلة كتير.. كل حاجة هتعرفها في وقتها.

لم يكد يقولها حتى بدأت قطرات من المطر تتساقط.. أسرع الخطى وهو يحث (خالد) على السير خلفه قائلًا:

- شكلها ليلة سوداء من أولها.. امشي بسرعة.

فجأة تناهى إلى مسمعهما صوت بكاء طفل.. بكاء خافت لكنه واضح..

فتح (خالد) فمه ليتكلم لكن (توفيق) سبقه وقال:

- متحطش في بالك.. هما كدا مشاغبين.

- مين..؟

- هو فيه غيرهم..؟! اللي ساكنين المقابر طبعًا.. أنت لو عشت هنا زي ما أنا عشت مكنتش استغربت من حاجة.

بعد مدة من المشي السريع وصلا إلى (العضامة).. في منتصفها

كانت توجد بغلة القبور.. قال (توفيق):

- اركب بسم ربنا وصفي نيتك للي خلقك.

صعد (خالد) فوق البغلة.. حاول أن يخفي توتره وخوفه في أعماقه قبل أن يقول:

- وبعدين..؟

- هي هتوصلك.

ثم أخرج قطعة قماش سوداء وربطها فوق عيني (خالد) ثم أردف:

- اوعى تشيلها إلا لما البغلة تقف.

- ولو شلتها؟

- هترميك من فوقها.. لا هتطول سماء ولا أرض.

ثم لكز البغلة لكزة خفيفة، فتحركت إلى الأمام ببطء..

ومن هنا بدأت رحلة النهاية.

***

(محفوظ)...

عاد إلى المنزل بعد منتصف الليل بقليل..

مضى النهار يبحث مع الشرطة والأهالي عن أي أثر لـ (نهلة).. الفتاة كأنما تبخرت وتلاشت في الهواء.. لا يوجد منها غير بقعة

الدماء التي جفت في السيارة..

قال أحد الرجال أنها ربما تكون ميتة وجثتها في قاع الترعة..
كان احتمالًا مقنعًا..

استعانوا بمجموعة صيادين من أهل البلد.. نزلوا إلى الماء واستخدموا صنانير وقاموا بإلقائها في أكثر من مكان على أمل أن تعلق بها الجثة لكن لم يعثروا على شيءٍ غير حذاءٍ أسود و(كاوتش) سيارة قديم..

بعد مدة وحين استبد اليأس بالجميع، جاءت الأخبار.. تم العثور على فتاةٍ ملقاة وسط أرض زراعية بين الحياة والموت، ونقلت إلى المستشفى العام..

أسرع (محفوظ) إلى هناك وهو يبتهل إلى الرب أن تكون هي (نهلة) وأن تكون بخير..

كان يلوم نفسه على ما حدث لها.. لم تكن تستحق ذلك.. قطعًا لم تكن تستحق..

عبر الممر الذي يقود إلى غرفة الاستقبال في المستشفى بينما يفكر في ذلك..

سأل الممرضة التي تجلس خلف مكتبٍ خشبيٍّ صغير:

- فيه واحدة لقوها مرمية وسط أرض زراعية.. أوضة كام..؟

نظرت له الممرضة متفحصة ثم قالت:

- أنت قريبها؟

- لا.

- يبقى مينفعش تدخل عليها.

قال بينما يخرج حافظة نقوده ويريها صورة (نهلة) التي بداخها:

- عاوز اتأكد هي دي ولا واحدة تانية.. هي اسمها (نهلة).

دققت النظر في الصورة.. قالت وهي تهز رأسها:

- أيوه هي.

سألها بتوسل:

- ممكن أشوفها؟

شعرت بالشفقة نحوه قبل أن تقول:

- مينفعش أقولك مكانها فين.. ده ممنوع.

ثم نهضت من مكانها وقالت بينما تبتعد عن مكتبها:

- أنا رايحة اجيب ملف من الأرشيف.. أوعى تفتح دفتر الاستقبال عشان تعرف هي في أي أوضة.

فهم من كلامها أنها تعطيه الفرصة كي يفتح الدفتر.. انتظر حتى ابتعدت ثم سحب الدفتر وراح يقلب فيه بلهفةٍ وسرعة.. وقع بصره على اسمها.. غرفة ٣٤..

أعاد الدفتر إلى وضعه القديم ثم ذهب مسرعًا تجاه الغرفة.. كان ترقيم الغرف في المستشفى حسب عدد الطوابق.. بمعنى أنها

موجودة في الطابق الثالث غرفة رقم ٤..

وصل إلى (نهلة)..

كانت مسجاة فوق الفراش ومن حولها أجهزة ومحاليل متصلة بجسدها..

جهاز نبضات القلب يومض ومضات منتظمة.. لم يفهم معنى الأرقام التي تحتشد فوق شاشة الجهاز لكنه خمن أنها ربما تكون معدل ضربات القلب..

تبدو منتظمة ومطمئنة.. أو ربما هذا هو ما كان يأمله..

مر عليه الوقت سريعًا بينما يراقبها.. الفكرة تدور في رأسه.. أن يحاول إيقاظها.. قد تستجيب له..

لكن قبل أن يضع الفكرة حيز التنفيذ، انشقت الأرض عن طبيبة ضئيلة الحجم وترتدي نظارة ذات إطارٍ أسود رفيع.. قالت:

- مينفعش تقف هنا.

- أنا.. أنا..

- اطمن هي هتبقى كويسة.. بس ممنوع دخول العناية المركزة.

لم يعلق على كلامها.. ظل في مكانه لدقائق إضافية قبل أن يغادر..

ها هو الآن يدخل منزل خالته..

كانت جفونه ثقيلة بسبب التعب وقلة النوم.. وجد (سعدية) في

استقباله.. لا بد أن مصيبة حدثت أو في طريقها للحدوث حتى تكون موجودة الآن.. مجرد أن رأته، قالت بانزعاج:

- اتأخرت كدا ليه.. خالتك قلبت الدنيا عليك.. أنا وهي عمالين ندور عليك من الصبح.

حاول أن يكون هادئًا ليقول:

- معلش هقولك كل حاجة بعدين.

ثم مال نحوها يسألها:

- هي خالتي فين دلوقتي..؟

- دخلت أوضتها.

وفجأة سمع صرخة حادة عالية.. صرخة تردد صداها حتى كادت أن تفجر طبلة أذنيه إلى أشلاء.. كانت تأتي من داخل غرفة خالته.. ركض مسرعًا تجاهها بينما يهتف قائلًا:

- خير!

كان الباب مغلقًا بإحكامٍ من الداخل..

ضرب الباب بكتفه ضربة قوية وتبعها بضربات أقوى..

خالته لا تتوقف عن الصراخ بفزعٍ وهستيريا:

- محفوظ!

بعد عدة ضربات أخرى، استطاع أن يكسر الباب ويدخل..

شاهد خالته معلقة في الهواء في منتصف سقف الغرفة.. كانت تصرخ وتركل بقدميها الفراغ وقد شحب وجهها وزاغت عيناها على نحوٍ مخيف.. توجد يد سوداء تقبض على شعرها بإحكامٍ شديد..

دقق النظر أكثر، فشاهد كائنًا يحمل خالته ويطير بها لأعلى.. إنه كائن شيطاني، يمتلك قرنين صغيرين، له يدان طويلتان، في كلٍّ منهما ثلاثة أصابع تنتهي بمخالب سوداء..

لم تكن أمامه خيارات كثيرة لإنقاذها.. حاول أن يمسك قدميها ويجذبها نحو الأرض بقوة لكن الكائن كان أقوى منه بمراحل.

المشهد كالتالي.. (محفوظ) يتشبث بقدمي خالته والكائن يرتفع بهما في الهواء.

- (محفوظ).. اهرب.

قالتها خالته ثم انقلبت عيناها إلى الوراء وصارتا بيضاوين وتهاوى ذراعاها إلى جوارها كالأموات.

- اااااااااه.

صراخ هادر.. صراخ (سعدية).. كانت تقف على عتبة الباب مذعورة وقد امتقع وجهها.. صاح بها (محفوظ):

- ساعديني.

لم تستجب لصيحته الأولى.. صاح من جديد:

- بسرعة.

انتفضت في مكانها كأنها تستفيق من حلمٍ عميق وتغلبت على خوفها ثم هرعت.. أمسكت بقدم (وطنية) هي الأخرى وراحت تجذب إلى الأسفل وهي تبسمل وتحوقل وتقول:

- يا معين يا رب.

فجـأة أطلـق الكـائن صـرخة هـادرة ثـم اهـتز المـنزل وتشـققت الجدران من حولهم..

انتشرت الشقوق عبر الجدران كالعروق في جسم البشر..

شـعر (محفـوظ) أن السـقف سـينطبق فـوق رؤوسـهم وكـاد أن يسقط.. صرخ:

- يا رب!

ومع صرختِه توقف كل شيءٍ واختفى الكائن ثم سقطوا جميعًا على الأرض.

- إيدك معايا نحطها على السرير.

قالها (محفوظ) وتعاون مع (سعدية) على حمل خالته ثم وضعها فوق السرير.. مضت بضع دقائق ثم استفاقت.. تشنجت للحظاتٍ وأخذ الفراش يهتز تحتها بعنف.. أمسكت (سعدية) بكتفها قائلة:

- اهدي يا حبيبتي.

نظرت إليهما (وطنية) بعينين زائغتين وصاحت:

- أنا شفت الشيطان.

تطلع (محفوظ) إليها للحظات.. كان يبذل كل جهده للسيطرة على نفسه حتى لا ينهار باكيًا.. قالت (سعدية):

- هتبقى كويسة... متقلقش.

ثم التفتت إلى (وطنية) واحتضنتها بين ذراعيها ثم تساقطت الدموع من عينيها قبل أن تقول بانفعال:

- ربنا ينتقم من (جابر) الملعون.

هتفت (وطنية) منهارة:

- هيموتنا.

رنت تلك الكلمة في أذني (محفوظ) وتردد صداها داخل أعماق روحه.. تخيل موتها وموت (سعدية) على يد (جابر)..

الخوف في أعماقه تصاعد بمجرد التفكير في هذا.. حاول مقاومة هذا الخوف لكنه تصاعد.. صرخ:

- لا.

تحول خوفه إلى غضبٍ عارم..

انتزع سيخًا حديديًّا من داخل المدفأة القديمة وخرج..

سار تجاه منزل (جابر) الذي اجتازه مرة من قبل وهو يرتجف من الخوف، هذه المرة كان يجتازه والغضب والانتقام يشعلان روحه مثل فتيل قنبلة.

***

(توفيق)..

ظلت ملامحه جامدة يتابع بغلة القبور تبتعد عنه رويدًا رويدًا.. سارت في طريقها وهي تعرف جيدًا إلى أين هي ذاهبة.. كانت تضرب الأرض بحوافرها ضربات منتظمة متثاقلة ومن فوقها تشبث (خالد) باللجام.. بمرور الوقت بدأ يشعر بالتعب والألم في ظهره.. ثمة شيء غريب يحدث من حوله لا يدري كنهه.. عاد إلى خواطره المضطربة.. ماذا لو لم يعثر على (رضوى).. أو عثر عليها ولم يستطع العودة..؟

مرت عليه لحظة، لم يدر بعدها أكان نائمًا أم مستيقظًا!

شعر بتوقف البغلة عن الحركة.. كان هذا كافيًا كي ينزع العصابة من فوق عينيه..

حين نظر حوله، شاهد ضوءًا خاطفًا كالبرق يلوح على مقربةٍ منه ثم اختفى..

تأمل المكان..

لا يوجد أثر لشيء.. المكان خالي تمامًا.. البرد والظلام أضافا إليه الكثير من الرهبة.. ثم فجأة انتبه إلى ذلك الواقف على مسافةٍ غير بعيدة عنه.. رجل متوسط الطول يعقد يديه فوق صدره ويرفع وجهه تجاه السماء كأنما يتوسل إلى الآلهة..

في تلك اللحظة برقت السماء.. وعلى ضوء البرق استطاع أن يرى وجه الرجل.. وجهه مغطى بالطين يمتلك أنيابًا حادة تشبه

أنياب مصاصي الدماء.

من بعيد ظهرت امرأة ترتدي عباءة فضفاضة وشعرها ثائر في كل اتجاه.. حين اقتربت شاهد وجهها الصغير الذي يكاد يختفي وسط شعرها.. استطاع أن يميز جمجمتها من فرط تحولها.. وللمرة الأولى رأى شيئًا بين ذراعيها..

حين دقق النظر اكتشف مولودًا ربما لا يتجاوز من العمر شهرًا أو شهرين.. بدا واضحًا من شحوب جسده والدماء الجافة التي تغطي وجهه، أنه ميت..

كانت المرأة تحمله بين يديها وتقبض عليه كـ (كماشة بندق).

بعد قليل وصل فتى يعرج على ساقه اليسرى، يشق طريقه بصعوبةٍ ثم يقف بجوارهم.. يبدو مرتبكًا ومترددًا..

من بعيد رسم الرجل ذو الأنياب ضحكة مخيفة على وجهه وأشار له كأنه يداعبه..

استعاذ (خالد) من الشيطان الرجيم، وهو يفكر أن هذا الرجل ليس بشريًا..

مضت مدة ثم بدأت الأرض من حولهم في الاهتزاز.. اهتزاز ضعيف وملحوظ بالكاد في بادئ الأمر قبل أن تزداد شدته ويصبح قويًا جدًا..

انبعث صوت رهيب وانشقت الأرض شقًا طوليًا عميقًا..

تعلقت عيون الجميع بالمنزل الذي راح يخرج تدريجيًا من تحت

الرمال مثل كائنٍ أسطوري يهب من عقاله..

انتظروا حتى هدأت الأمور واستكانت الأرض تمامًا..

بدأوا في الدخول واحدًا تلو الآخر.. الرجل ثم المرأة.. لكن الفتى الأعرج تردد.. يبدو جليًا أنه خائف.. مذعور حد الثمالة.. عيناه جاحظتان بشدة.. ثم فقد أعصابه نهائيًا وبدأ في إطلاق صراخٍ هستيري وجرى كالمجذوب مبتعدًا حتى ابتلعه الظلام.

أدرك (خالد) أن وقته قد حان.. لا شيء يخيف.. سيدخل المنزل، ويبحث عن (رضوى) ثم يعود بها.

سار نحو المنزل واقترب من بوابته.. كانت البوابة أضخم مما افترض.. كانت بارتفاع مترين، فوقها كتابات بلغةٍ قديمة، وصورة منقوشة لكائنٍ هائل له أربع أذرع، تشرق من خلفه الشمس ويسجد تحت أقدامه عشرات البشر..

قبل أن يلمسها تحركت البوابة بصمتٍ ودون أن يخرج منها أي صرير..

تقدم إلى الداخل.. يقابله ضوء أحمر كالحمم.. برودة مثل برودة ثلاجات حفظ الموتى..

لا أثر لمن سبقوه..!

لا يوجد غير طريقٍ واحد.. باب آخر غير الذي دخل منه.. كان أصغر وبلا رسومات فوقه.. مجرد باب خشبي عادي.. من وراء الباب سمع صوتًا غليظًا جدًّا كأن ألف وحش يتحدثون في وقتٍ واحد..

فتح الباب بحذر..

غرفة واسعة..

شاهد فيها رجلًا ينزف من أكثر من موضع.. كان مكمم الفم ومقيد القدمين واليدين.. يصدر صوتًا مخيفًا يشبه خوار الذبيحة.. تخرج من جسده ديدان سوداء تأكل اللحم والبطن والرأس..

الغريب أن الرجل كان حيًّا..!

في نهاية تلك الغرفة كان يوجد ما يشبه القبو..

سار بحذرٍ وحاول أن يبتعد قدر الإمكان عن هذا الرجل..

مجرد أن دخل القبو، تبدل المشهد من حوله سريعًا وسمع أصوات غربان تدوي من بعيد.. كان يقف في العراء ولم يعد هناك أثر للمنزل..!

عالم آخر جاثم في الظلام كالكابوس.. الأفق يتألق من بعيد بضوءٍ أحمر غريب كأنه نذير الشر..

وهكذا مشى في هذا العالم.. شعر أن قدميه تزنان أطنانًا وهو يتحرك.. قلبه ينبض بقوة، وطنين هائل يعبث في طبلة أذنيه حتى يكاد أن يسحقها..

لا بد أن يعثر على (رضوى) قبل انبلاج الفجر وإلا سيظل في هذا المكان إلى الأبد..

شاهد جبلًا صغيرًا ارتفاعه لا يتجاوز العشرين مترًا.. في أسفله

يوجد كهف..

التقط نفسًا عميقًا ثم دخل..

كهف متسع بلا نهاية يتدلى من سقفه جماجم بشرية معلقة من خلال حبالٍ غليظة تعشعش داخلها خفافيش سوداء صغيرة الحجم تبدو في سباتٍ عميق..

أدرك أن إصدار صوتٍ عالٍ كفيل بهجوم مئات الخفافيش عليه وربما تمزيقه إربا..

تحرك بحذرٍ بالغ..

توغل إلى الداخل أكثر..

الغبار وخيوط العنكبوت تكسو كل شيءٍ وهناك رائحة كريهة مقيتة..

مصدر إضاءة غامض يأتي من بعيد.. سار تجاهه بينما يتحسس الجدران بين الحين والآخر.. أمامه مباشرةً كان هناك ممر طويل ينحدر بزاويةٍ شديدة إلى الأسفل، تتناثر على أرضيته اللزجة بقايا عظام آدمية، تفوح منها رائحة عطنة..

وصل إلى قاعةٍ متسعة تتشعب منها ممرات كثيرة.. رأى شعلة نار تتوسط القاعة وحولها نسوة شبه عرايا يرقصن حولها كأنهن يمارسن طقوسًا من نوعٍ ما.. يصمتن للحظات ثم يصرخن فجأة بصوتٍ مرتفع..!

وسطهن توجد (رضوى).. كانت ترقص مثلهن.. تغيرت كثيرًا..

لكنها هي..

مشى متجهًا نحوها ثم جذبها من وسطهم.. صاح:

- (رضوى).

صرخت وحاولت أن تفلت منه.. تشبث بها أكثر.. أمسكت امرأة قريبة.. ركلها بكل قوته.. التفت إلى (رضوى).. لا تزال تتمايل وتصرخ.. هوى عليها بصفعةٍ هائلة أسقطتها أرضًا.. نظرت له كأنها تراه للمرة الأولى في حياتها.. صاحت وقد عادت إليها ذاكرتها:

- (خالد).

أمسك يدها قائلًا:

- تعالي ورايا.

لم يكد يفعل ذلك حتى انفجر المشهد وتحول إلى جحيم.. تساقطت حجارة ثقيلة من السقف واهتزت الأرض بشدة كأنما ضربها زلزال عظيم.. النار ازداد تأججها وراحت رقعتها تتسع وتحرق كل ما يحيط بها.. صرخت النسوة صراخًا هائلًا والنار تلاحقهن كأنها كائن حي..

(خالد) جذب (رضوى) نحو الممر الذي جاء منه لكن سقطت صخرة هائلة سدت عليهم الطريق.. انحرف بسرعة إلى الاتجاه الآخر ثم دخل إلى أقرب ممر إليه دون تفكير..

فوق الجدران خدوش كثيرة.. على الأرض توجد أشلاء بشرية.. هياكل عظمية مغطاة بالثياب ملقاة في كل مكان.

سألت (رضوى) وهي ترتجف:

- إحنا فين..؟

لم يرد على سؤالها.. اكتفى بأن قال بينما ينظر حوله:

- لازم نخرج من هنا حالًا.

ثم استطرد بعدما نظر في ساعته:

- مفيش وقت.

فجأة سمع صوتًا غريبًا يأتي من خلفه..

استدار إلى الوراء..

شاهد المستحيل وهو يحدث..

تجمعت الأشلاء البشرية سويًا ثم التصقت ببعضها البعض في مشهدٍ مروع..

وفي خلال لحظاتٍ انتصب أمامهما مسخ بشع شبيه بالإنسان يسيل الزبد من بين شدقية.

***

(محفوظ)..

انطلق غير عابئ بصراخ (سعدية) التي طلبت منه الرجوع والتوقف..

ركض ركضًا نحو منزل (جابر) وهو يقبض على السيخ الحديدي

بكل قوته.. ظلال الشارع تتراقص من حوله وكأنها تسابقه في الوصول..

الشارع فارغ تمامًا ولا وجود لأي بشري.. تلك ليلة باردة بحق، تستحق أن تظل في فراشك الدافئ لا أن تخرج وتطارد الأشرار الذين يستخدمون السحر..

وجد باب منزل (جابر) مغلقًا وفوقه قفل ضخم لكنه يبدو قديمًا وقد علاه الصدأ..

راح يهوي على القفل بالسيخ بضرباتٍ قوية بينما يلهث من فرط الانفعال..

صوت الضربات مزعج ومرتفع جدًّا في مثل هذا التوقيت.. سكون الليل ضاعف الصوت عشر مرات على الأقل.. رغم هذا لم يجرؤ أحد أو يفكر في أن يفتح نافذة منزله ويحاول أن يعرف ما يجري..

ضربة.. ضربتان.. ثلاثة.. ومع الضربة الرابعة تهشم القفل..

حمل القفل وألقاه بعيدًا ثم دفع الباب بيده، فأصدر صريرًا مزعجًا يشبه أنين المرضى..

اتجه إلى الداخل بحذر.. يصغي جيدًا وهو في حالة تحفز.. عيناه تعبثان في كل ركن..

الإضاءة خفيفة مصدرها مصباح صغير معلق في سلكٍ طويل يتدلى من منتصف السقف..

كانت هناك شظايا زجاجية كثيرة تتناثر على الأرض.. حاول أن يخمن سببها لكن لم يستطع.. أيضًا بعض قطع الأثاث مقلوبة.. قطرات دماء على الأرض..!

سمع صوت بكاءٍ مكتوم يأتي من أعلى.. بدا واضحًا أن هذا بكاء (ضياء)..

وفجأة انفجر المصباح.. انفجر بدويٍّ مزعج جعله ينتفض قبل أن يجد نفسه في ظلمةٍ دامسة.. لم يعد أمامه حل سوى أن يتخبط في الظلام.. استعان بذاكرته من المرة السابقة التي جاء فيها حتى وصل إلى السلم الخشبي المؤدي للطابق الثاني حيث غرفة (ضياء)..

ارتقى الدرجات بحذرٍ بالغ..

يبدو ممتدًّا لا ينتهي كأنما عدد الدرجات قد تضاعف عدة مرات..

توقف..

دون مقدماتٍ تمايل السلم وترنح يمينًا ويسارًا مثل شخصٍ مخمور.. كاد أن يقع ويهوي على ظهره لكنه تشبث جيدًا بعوارض السلم.. شيءٌ ما يحاول منعه من الصعود.. استجمع قوته وأكمل طريقة..

الطابق الثاني كان معتمًا..

سار (محفوظ) بضع خطواتٍ ويداه ممدودتان إلى الأمام.. ارتطم بالحائط فتوقف..

حرك رأسه مستمعًا..

سمع شيئًا يحبو فوق الأرض..

حاول تحديد مصدر هذا الصوت..

تخيل شبحًا هائلًا يقبع في انتظاره يحمل الموت من أجله..

مضت برهة.. ومن وسط الظلام انبثق قبس نور صغير بحجم عود كبريت ثم راح ينمو بسرعة..

كانت لحظة مرعبة..

على مسافة مترين يجلس (ضياء) أمام شمعةٍ صغيرة، يتوسط رسمة نجمة خماسية، وحول عنقه السلسلة النحاسية الضخمة..
كان وجهه شاحبًا شحوب الموتى.. سأله:

- (جابر) فين..؟

أجاب (ضياء) بصوتٍ مبحوح:

- خرج.

سأله مرة أخرى:

- من زمان..؟

نهض (ضياء) من على الأرض قائلًا:

- هو راجع دلوقتي.

اقترب منه قائلًا:

- تحب تخرج من هنا..؟

قال (ضياء) بصوتٍ خفيض:

- آه.

تفرس ملامح (ضياء) جيدًا ثم قال:

- أنت عارف مين والدك ووالدتك..؟

- آه.

- يعني لو خرجتك من هنا هتعرف توصل لهم..؟

أجاب (ضياء) بسرعة:

- آه.

- طيب جميل.

لكن (ضياء) ابتعد عنه وتراجع إلى الخلف ثم قال بذعر:

- مقدرش اخرج.. هيأذيني.

حاول أن يطمئنه قائلًا:

- متخافش.. أنا معاك.

صرخ (ضياء) في وجهه:

- لا.. لا.. مش هتقدر.

صاح (محفوظ) بتحدٍّ:

- ده لو الشيطان نفسه هقدر عليه.

ثم مد يده ونزع السلسلة التي تحيط بعنق (ضياء) وقال:

- نشيل بس الحاجات الغريبة اللي الملعون عاملها فيك.

فجأة تجمد الدم في عروقة.. أمامه مباشرةً كان (جابر) يقف.. رفع السيخ الحديدي في وجهه ووقف حائلًا بينه وبين (ضياء) ثم قال:

- أنا مش هسمح لك تأذي حد تاني.

كان (جابر) يقف مشدوهًا وقد بدا عليه الانزعاج قائلًا:

- بتعمل إيه هنا..؟

- كل الشر اللي أنت عملته لازم تدفع تمنه.. أنا عرفت حقيقتك كويس.

فجأة طار السيخ الحديدي من يد (محفوظ) كأن قوة خفية انتزعته وألقته بعيدًا..

صرخ (جابر):

- أنت عملت إيه يا غبي؟

ثم تراجع إلى الخلف بينما ينظر إلى السلسلة الملقاة على الأرض قائلًا:

- ضيعتنا.

ولم يكد ينطقها حتى تبدلت عينا (ضياء) إلى عينين باردتين قاسيتين.. ثم ظهر في موضع الحدقتين سواد تام.

***

المسخ..

تراجع (خالد) و(رضوى) بينما كان يقترب منهما بحركةٍ مهزوزة تشبه حركة عرائس الماريونيت.. خطوة واحدة خطأ وسوف يمزقهما..

لمعت عينا المسخ وكشر عن أنيابه وهو يزمجر ثم اندفع نحو (خالد) الذي انحنى وحاول تفاديه لكنه وجد نفسه بين قبضته..

صرخت (رضوى) بارتياعٍ بينما تشاهد (خالد) وقد أصبح تحت رحمة هذا المخلوق البشع..

أصابع المسخ تضغط على عنق (خالد) وتوشك على تحطيم حنجرته بينما يرفعه عاليًا في الهواء..

بكل قوته ضرب (خالد) إصبعه في عين المسخ فانفجرت كالبالون وتدفق منها سائل أخضر اللون..

شعر (خالد) بالسائل يحرق إصبعه كما شعر بألمٍ رهيب..

ألقاه المسخ في الهواء فاصطدم ظهره بالجدار الحجري وسقط على وجهه.. تألم من قوة الصدمة وحاول أن ينهض لكنه عجز.. كان يشعر أن كل شيءٍ يدور حوله بلا توقف.. التفت إلى

(رضوى) التي سقطت على الأرض وقد انهارت تمامًا وشملها رعب هائل..

مرة أخرى اتجه نحوه المسخ في هجومٍ جديد واتسع فمه كأنه يهم بالتهامه.. حدق بالفكين المخيفين والأسنان الحادة التي برزت من بينهما.. لكن قبل أن يصل إليه، وقفت (رضوى) حائلًا.. كانت تمسك بقطعة خشبٍ مشتعلة وتلوح بها في وجه المسخ بعدما تغلبت على خوفها.. دفعت النار في وجهه..

تذكر (خالد) المسدس الذي وضعته (خديجة) في جيب سترته.. بسرعة أخرجه وبدون لحظة تأخير ضغط الزناد..

انطلقت الرصاصات تجاه المسخ فاخترقته وعبرت إلى الناحية الأخرى بعدما صنعت بداخله ثقوبًا واسعة، انفجر منها نفس السائل الأخضر..

طوح المسخ يده وضرب.. ومع ضربته شعر (خالد) بجسده يطير في الهواء، ثم ارتطمت رأسه بالجدار ودارت الدنيا أمام عينيه عدة دورات قبل أن تظلم تمامًا..

لم يدر كم ظل فاقد الوعي لكن حين استفاق وجد (رضوى) بجواره تحاول أن تعيده إلى وعيه..

مجرد أن رأته يفتح عينيه، احتضنته في سعادة..

نظر حوله..

المسخ مسجي على الأرض بلا حراك..

- أنا بقالي كتير مغمى عليا؟

- لا.. خمس دقايق بالكتير.

نظر في ساعته.. ما زال أمامهما وقت للخروج.. لكن ليس بالوقت الطويل.. لا بد من الاستفادة بكل دقيقة متاحة.. نهض مسرعًا وقال:

- طيب يلا.. قدامنا وقت بسيط.

ركضا بكل قوتهما دون أن ينظرا إلى الوراء أو يلتفتا إلى الصرخات المتوسلة التي جاءت من كل مكان..

خرجا من الكهف كأنهما يخرجان من قلب الجحيم.. صاحت (رضوى):

- هنروح فين دلوقتي.

تلفت حول نفسه يبحث عن المنزل الذي جاء منه..

لا أثر له..

فجأة غمر وجهيهما ضوءٌ قوي أصابهما بعمى مؤقت.. (رضوى) تشبثت بيده فاحتضنها.. شعرا أنهما يسقطان داخل هوةٍ عميقة.. بعد لحظاتٍ تبدل المشهد وأصبحا أمام المنزل.. قالت (رضوى) بينما تنظر حولها:

- إحنا جينا ازاي..؟

أجابها:

- مفيش قواعد هنا.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد.. اهتزت الأرض ثم راح المنزل يغوص بين الرمال حتى اختفى..

وضع (رضوى) فوق بغلة القبور ثم صعد خلفها.. لكز البغلة بطرف حذائه لكنها لم تتحرك.. ظلت ساكنة كالتمثال.. تذكر عصابة العينين.. أخرجها من جيبه ثم قسمها نصفين وربط نصفًا على عيني (رضوى) والنصف الآخر على عينيه.. شرح لها ما هما مقبلين عليه، وطلب منها ألا تنزع العصابة مهما حدث.. كرر تحذيره لها عدة مرات..

حين فعل ذلك تحركت البغلة بخطواتها البطيئة نفسها..

في طريق العودة شعر أن المسافة صارت أطول من اللازم.. سألته (رضوى):

- (خالد).. ده طبيعي..؟

- متتقلقيش.

- صوتك نفسه يقلق.

ابتسم قائلًا:

- عيب عليكي.. إحنا على وشك الوصول.

- متأكد..؟

- أيوه.. متأكد.

- طيب احلف.

- انتي بتهزري.. صح؟

- لا.. احلف.

سألها:

- أحلف بإيه..؟

- أي حاجة عزيزة عليك.

فكر قليلًا ثم قال:

- وحياة البغلة اللي إحنا راكبينها.

- أنت بتهزر.. صح؟

- أيوه بهزر.

- احلف بجد.

- خلاص.. وحياة البغلة اللي قدامي.

صاحت بغضب:

- خالد.

كاد أن يضحك لكن بغلة القبور توقفت في تلك اللحظة.. انتظر قليلًا حتى يتأكد أنها لن تتحرك مرة أخرى ثم أزال العصابة من فوق عينيه.. أمامه بيت (توفيق).. وفي مواجهته مباشرةً (خديجة) تحمل في يدها إناءً نحاسيًّا به لبن.

- (رضوى).. إحنا وصلنا.

ثم أزال عن عينيها العصابة وهو يستطرد:

- بصي حواليكي.

أقبلت عليهما (خديجة) تصيح في فرح:

- سلامتكم.

وضع قبلة فوق جبينها قائلًا:

- دعواتك كانت معانا.

ثم سألها:

- فين (توفيق)..؟

- راح يجهز قبر بتاع واحد ميت وهيتدفن كمان شوية.. هتلاقيه راجع لما يخلص.

ناولته اللبن قائلة:

- اشرب.

كان بالفعل يشعر بعطشٍ هائل لكنه أعطاه إلى (رضوى) قائلًا:

- انتي الأول.

ابتسمت (رضوى) ورفعت طرف الإناء إلى فمها وشربت ثم أعادته له قائلة:

- نسيت أقولك شكرًا.

ابتسم قائلًا:

- عفوًا.

- بس أنت راجل.

ثم ضمته إلى صدرها، وغمرها شعور لا نهائي بالعرفان.

***

كان البرق يشق السماء، في حين بدأت قطرات المطر في الارتطام بزجاج نافذة غرفة (ضياء).. داخل الغرفة نفسها كان المشهد كالتالي:

- (محفوظ) في مكانه وقد توقف عقله عن التفكير.

- (جابر) يصرخ بانفعالٍ ويحاول الهرب.

- (ضياء) تحول إلى كائنٍ شيطاني.

لكن من هو (ضياء).. وما هي قصته..؟

أعتقد أن الوقت قد حان لنعرف.. (شاهين).. رجل عصامي بنى نفسه بنفسه كما يحب أن يقول دائمًا، بينما الحقيقة هي أنه ورث ثروة صغيرة عن عمه الذي مات دون أن ينجب..

استطاع (شاهين) في خلال بضع سنوات أن يستثمر تلك الثروة ويضاعفها مئات المرات..

صار واحدًا من أغنى أغنياء البلد..

كان يمتلك تقريبًا كل شيءٍ وأي شيءٍ، متى أراد ذلك.. إلا أن هناك شيئًا واحدًا عجز عنه.. أن يكون له ابن.. تزوج مرة واثنتين وثلاثة وأربعة.. بلا فائدة.. الأطباء يقولون أن العيب منه.. مرض وراثي نادر جعل من المستحيل عليه الإنجاب..

هاجس أن يموت مثل عمه ويترك ثروته للآخرين كان مفزعًا جدًّا.. كان يقتله..

لم يعد يستطيع الحياة.. لا يمكن لكل هؤلاء الأوغاد الذين يحيطون به أن يرثوا أمواله.. لا بد أن يكون هناك حل.. لا بد..

وكنت أنا الحل.. أو لنقل كنت أملك الحل.. كان هو كالغريق الذي يريد أن يتعلق بقشة..

أخبرته أنني قادر على أن أهبه ليلة واحدة.. ليلة واحدة سيكون فيها قادرًا على وضع بذرته داخل رحم زوجته..

وافق بلا تردد..

لم يسألني عن العواقب.. اعتقد أن لا ذنب لي فيما حدث بعد ذلك..

بعد مرور تسعة شهور جاء (ضياء) إلى عالم البشر..

تمر السنون..

يكبر (ضياء)..

كان لا يتحدث إلا نادرًا.. أحيانًا يزوم بصوتٍ عميق لا يمكن أن يصدر عن طفلٍ بأي حالٍ من الأحوال..

بدأت تنتشر رائحة كبريت في المنزل.. الأشجار ذبلت وتساقطت أوراقها.. ماتت كل الطيور والحيوانات التي تعيش في المنطقة..

وهكذا أدرك (شاهين) أن ابنه ليس طبيعيًّا..

هناك أحد الأشياء الشريرة تقبع داخله..

ذات يومٍ استيقظ على صوت همسٍ يأتي من غرفة (ضياء)..

حاول أن يفتح الباب لكنه كان موصدًا من الداخل.. نظر من ثقب المفتاح، فشاهد ما جعله يرتجف..

أمام (ضياء) ومن العدم تجمعت ظلال رمادية, ثم تشكلت على هيئة كائنٍ عجيب.. وجهه عبارة عن وجه تيس له قرنان معقوفان فوق بعضهما البعض.. ذقن طويلة الشعر، نافرة في كل اتجاه.. أسود البشرة.. له ما يشبه أجنحة الخفافيش وراء ظهره..!

بلا خوف سجد له (ضياء) وعيناه تلمعان, وقد تغير لون جلده حتى صار مثل جلد القطط..!

في الليلة نفسها اشتعلت النيران في المنزل..

ماتت الأم.. لم يتبق منها غير حفنة من العظام.. لكن (شاهين) نجا.. أصيب ببعض الحروق لكنه نجا.. (ضياء) لم يصبه خدش واحد..

فكر (شاهين) أن يتخلص منه ويقتله... لكن ذلك لم يكن بالشيء

الهين.. أن تقتل ابنك الوحيد.. ذاك مستحيل..

بحث عن حلٍّ آخر..

السخيف في الموضوع أنه لم يلجأ لي هذه المرة.. ربما ظن أنني قد خدعته المرة السابقة..

لجأ إلى (جابر)..

لم يكن يعلم أن (جابر) مجرد بائس يجيد بعض أمور الدجل والشعوذة لكنه لا يمتلك القدرة التي تؤهله لمجابهة شيءٍ مثل (ضياء)..

ورغم أن (جابر) كان مخادعًا لكنه يتسم بالذكاء.. استعان بأحد شيوخ الصوفية والذي أعطاه سلسلة مرصودة وعلمه بعض الطقوس القادرة على حجب القوة عن (ضياء)..

كان من الممكن أن يسير كل شيءٍ على ما يرام لولا تدخل (محفوظ)..

أدرك (ضياء) أن تحريره في يد (محفوظ) فقط لو استطاع تحريك خيوط اللعبة بالشكل السليم..

وهكذا راح يرسل تابعيه ليثيروا المشاكل من وقتٍ لآخر.. وفي النهاية كان له ما أراد.. (محفوظ) حرر قواه الشريرة..!

صرخ (جابر):

- ضيعتنا.

في تلك اللحظة شيءٌ ما دفع (محفوظ) في صدره فطار في الهواء ثم ارتطم بالجدار وسقط على وجهه..

حاول (جابر) أن يهرول إلى الخارج لكن قدميه التصقتا بالأرض وجحظت عيناه بشدة..

ارتسمت ابتسامة مخيفة على وجه (ضياء) بينما يقترب منه..

بدأ (جابر) يصرخ في ألمٍ هائل وبرزت عروق رقبته.. تساقطت خصلات شعره على وجهه ليبدو مثل الموتى الأحياء في أحد أفلام الرعب.. تفجرت الدماء من عينيه.. لم يعد يرى جيدًا.. صار كل شيءٍ أحمر اللون قاتمًا.. ثم انفجرت رأسه.

تغلب (محفوظ) على ألمه وخوفه وحمل مقعدًا خشبيًا وهو يتنفس بصعوبة... ثم وبكل قوته هوى به على ظهر (ضياء)..

تهشم المقعد إلى أشلاء وتفتت في الهواء قبل أن يلمس (ضياء)..

تراجع (محفوظ) للوراء..

انطفأت الأنوار..

ساد بعدها الظلام..

أغلقت كل الأبواب والنوافذ..

استمر المطر في الهطول بشدة..

في الداخل لم يعد غير صراخ (محفوظ) الذي راح يرتفع أكثر..

وأكثر.

***

خاتمة

إن ما يجعل كل شيءٍ مخيفًا هو الغموض.

دعني أخبرك أن لا شيء يحدث بسهولة يا (ضياء).. حين تمتلك القوة اللازمة تعتقد أن كل شيءٍ سهل.. لكن في الوقت نفسه هناك مسؤولية تقع عليك.. حذار حين تتعامل مع البشر.. هم خائنون كما تعلم..

يومًا ما سوف تجلس هنا مكاني.. أريد الاطمئنان عليك قبل أن أبدأ مسيرتي الأخيرة ويبتلعني الظلام البارد إلى الأبد..

نحن الاثنان متشابهان إلى حدٍّ كبير.. الظروف نفسها التي أدت إلى وجودك هي التي أدت إلى وجودي.. أعتقد أن ظروف موتنا سوف تكون واحدة..

تقول أنك صرت تعلم القصة كاملة..

أنت مخطئ..

وستكتشف الآن أنك مخطئ..

خدعتي الكبرى تركتها حتى النهاية..

(خالد)

كان شخصًا أعمى لم يشاهد الحياة من قبل أو يعرف كيف تكون ملامحه.. سوف أخبرك الحقيقة الكاملة عنه.. فقط لا تقاطعني كعادتك.. قم بإطفاء هذا الوميض الذي يخرج من عينيك..

حدث هذا منذ عشرين عامًا وتحديدًا في أبريل ١٩٩٩.

الأستاذ (رجب)

عندما انفردت به كان منهارًا تمامًا.. كان يبكي.. يبكي بلا توقف.. من العجيب أن تنقلب حياة الإنسان من السعادة إلى البؤس في لمح البصر..

حاولت أن أخاطبه بعباراتٍ سهلة بسيطة وكنت في رحابٍ من السرور حين استوعب كل كلمة قلتها له.

لماذا (خالد)..؟

سألني الأستاذ (رجب) السؤال نفسه.. دعني أقول لك أن هناك أشياء لا تحتاج إلى أسباب.. فقط مقدر لها أن تحدث.. يمكن القول أنه اختيار القدر.

(إسحاق)

أنت تعلم جيدًا من هو (إسحاق) وتعرف كيف قادته الظروف لقتل (حسام) و(فوزي) وتعتقد أن (خالد) نجا بأعجوبة..

حسنًا.. هذا جزء كبير من الحقيقة لكن تظل الحقيقة ناقصة.. الحقيقة هي أن (خالد) قد قتل أيضًا.

(محفوظ)

توقف عن رسم تلك الابتسامة الخبيثة على وجهك.. لا تنس أنك السبب في موته.. نعم أنت محق.. كان شخصًا فضوليًا أكثر من اللازم ونال جزاءه.. لكن لا تنس أنك تركت لعنة في منزل (جابر)

وهي التي أدت إلى اختطاف (رضوى).. لا تعتذر.. كلنا نرتكب الأخطاء، المهم أن نتعلم منها.

كنت قد اتفقت مع الأستاذ (رجب) على إرجاع (خالد) إلى الحياة مهما كان الثمن.. من حسن الحظ أن جثة (محفوظ) كانت بحالةٍ جيدة جدًّا.. وجدت أنها فرصة سانحة تمامًا.. سأستخدمها بدلًا من جثة (خالد) التي فسدت بعدما هشم (إسحاق) رأسها.

أعلم أنها مخاطرة..

لكني جازفت..

وكانت النتيجة أكثر من رائعة..

حين انتهيت من ممارسة طقوسي، صارت روح (خالد) داخل جسد (محفوظ).

(القبر)

توجب عليّ أن أضع جثة أخرى داخل قبر (محفوظ).. أنت تعلم أن هناك قواعد لا بد من اتباعها.. في النهاية نحن نخضع لمزيجٍ من التوازنات.. وهكذا وضعت جثة (خالد) هناك.. ساعدني في ذلك (توفيق).. أفتقد وجود هذا الوغد.. للأسف هو ميت الآن إذا أردت أن تتأكد من كلامي.. ثعبان داخل مقبرة قام بعضه.. حذرته أكثر من مرة أن يتوقف عن قتل الثعابين لكنه مجرد أحمق آخر. (خديجة) أصبحت تتولى المسؤولية مع ابنتها (وفاء) بعد أن أعدتها إليها، وصارت بغلة القبور تحت عهدتهما.. سأصطحبك في زيارةٍ لهما عما قريب.

(والدة خالد)

أصيبت بالجنون حين علمت بما قمت به.. تم إيداعها مستشفى الأمراض العقلية، وقام الأستاذ (رجب) باختلاق قصةٍ وهمية صدقها (خالد)..

طلبت منه أن يحرق كل صور (خالد) القديمة وينتقل إلى بلدةٍ جديدة لا يعرفهما فيها أحد..

بين الحين والآخر كنت أراقبهما..

أعتقد أنها رغبة الفنان الكامن داخل أعماقي في متابعة أعماله.

(جلسة التحضير)

كان كل شيءٍ يمكن أن يسير على ما يرام لولا تلك الجلسة التي حضرها (خالد) والتي لم تكن في الحسبان..

كانت النتيجة هي استدعاء روح (محفوظ) التي قاتلت وأرادت العودة إلى الجسد..

حاولت أن أساعد (خالد) قدر استطاعتي.. فعلت الكثير والكثير.. أستطيع أن أؤكد أن وجودي بجواره هو الذي أنقذه..

في النهاية أنا لست الرجل الشرير في هذه القصة.. أنا مجرد مخلوق قام بوضع بعض الخطوط الصغيرة أسفل لوح القدر..

سأتوقف عن الحكي الآن يا (ضياء).. هذا سر كبير بيني وبينك.. دعنا لا نخبر عنه أحدًا.

***

كانت الشمس تجنح إلى المغيب حين وضعت (رضوى) رأسها فوق كتف (خالد)..

تبادلا نظرة طويلة بدون كلامٍ قبل أن تسأله:

- مش هتدور تاني على مين صاحب القبر..؟

- لا.. خلاص.. مش فارقة معايا دي جثة (محفوظ) ولا جثة حد تاني.. أنا انتهيت لغاية كدا.

- متأكد..؟

ابتسم قائلًا:

- أيوه متأكد.

ثم مد يده وأزاح خصلة شعر منسدلة على وجهها وقال:

- ما تيجي نغني.

- أغنية إيه..؟

- أي حاجة على ذوقك.

أغمضت عينيها للحظة كأنها تبحث في ذاكرتها ثم بدأت تغني:

أهواك

وأتمنى لو أنساك

وأنسى روحي وياك

وان ضاعت تبقى فداك

أهواك

ضمها إلى صدره بحنان, ومن أمامهما راحت أمواج البحر المالح تتكسر فوق صخور الشاطئ الداكنة.



محمود الجعيدي

(٢٠١٩ م)

